

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



3 8534 00951 1142



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

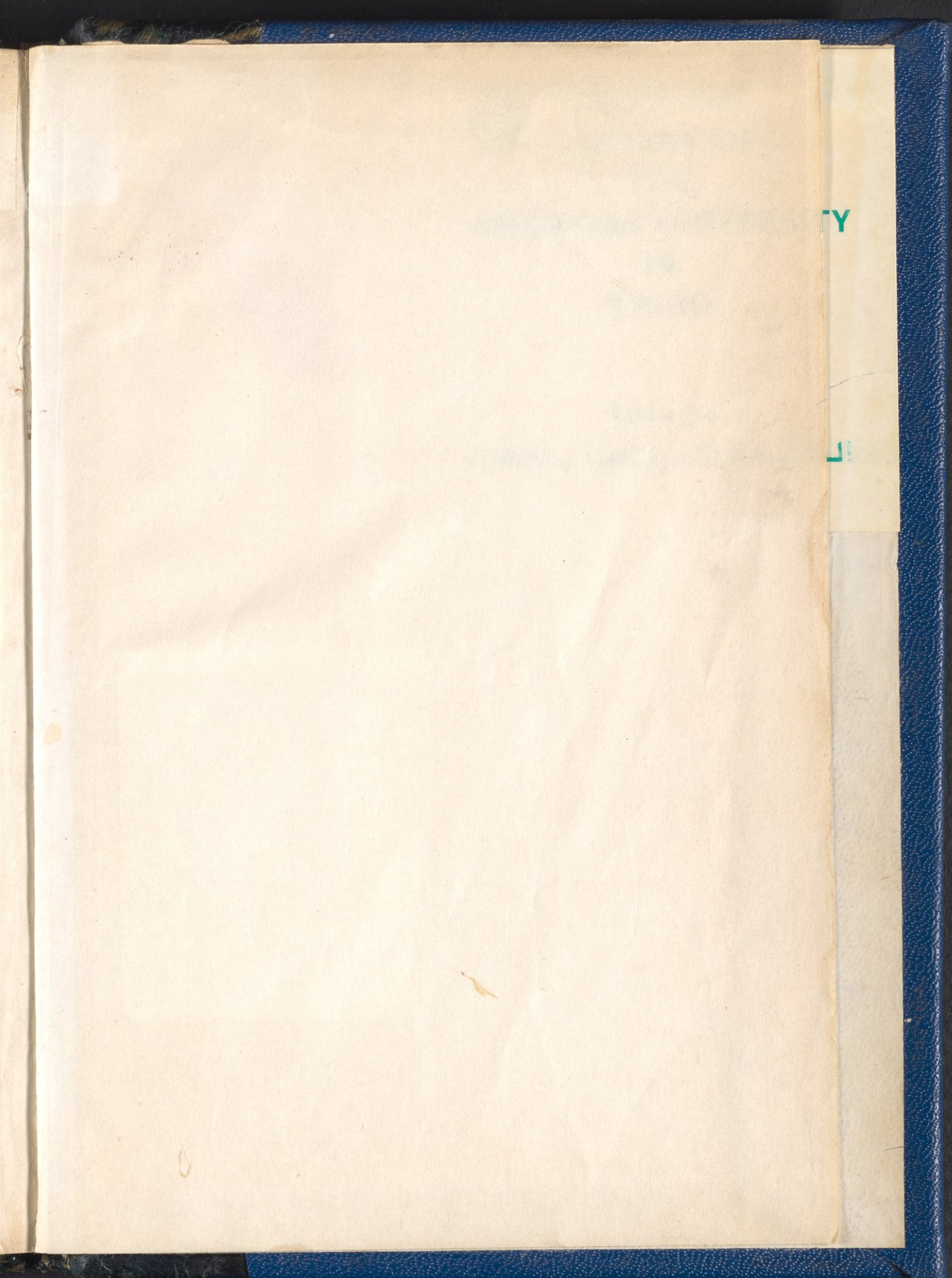
من مكتبة
الجامعة الأمريكية بالقاهرة

Handwritten text in Arabic script, likely a title or header, with some ink bleed-through from the reverse side.

Handwritten text in Arabic script, appearing to be a paragraph or a list of items.

Handwritten text in Arabic script, possibly a signature or a date.

Handwritten text in Arabic script, likely a footer or a concluding statement.



شخصية بشار

PJ
7741
B3
Z9X
1951
C.2

بقلم
الدكتور
محمد النوري

رئيس قسم اللغة العربية بكلية الخرطوم الجامعية
المحاضر الأول بمعهد الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن (سابقا)

الطبعة الأولى ١٩٥١

(جميع الحقوق محفوظة للمؤلف)

ملتزمة النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلي باشا - القاهرة

97
AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
Cairo

٨١١, ٥٠٩
نوعی، بی
١٥

٥٠١

تعداد کتب در این کتابخانه
(تعداد کتب در این کتابخانه)

36765

(تعداد کتب در این کتابخانه)

تعداد کتب در این کتابخانه
تعداد کتب در این کتابخانه
تعداد کتب در این کتابخانه

مقدمة

«تحليل الشخصية» تعبير يروج كثيرا بين متعلمي الأدب ومعلميهم،
وله رنة فخمة تكسب مستعمله اعتباراً وزهواً، أولاً تنبئ عن إتقان
للدراصة العصرية، وتمكن من طرق النقد الحديث؛ فالتلامذة يدبجون
موضوعات إنشائية يسمونها «تحليل» شخصية هذا الأديب أو ذاك،
ومعلموهم «يحللون» لهم شخصيات أربعين أديباً في السنة الدراسية
الواحدة، وواضعو كتب تاريخ الأدب المدرسية «يحللون» شخصيات
كل أدباء العربية، شعراء وناثرين، من أقدم العصور إلى أحدثها، بين
ضفتي كتاب واحد. وشيوخ المدرسة القديمة في الأزهر أو في دار
العلوم يأبون أن يقصروا عن ميدان «النقد العصري» الذي يتسابق فيه
الجميع، فيطلعون علينا بأسفار محبرة يقومون فيها هم أيضاً بـ «التحليل».
ولم لا يفعلون؟ ألم يصر جامعوهم الأزهر جامعة أزهرية ودار علومهم
كلية دار؟

وكل محاولاتهم تلك في «تحليل الشخصية» تثير الضحك والامسئ
معاً، فهي لا توميء إلى بصر صحيح بهذا الموضوع الصعب المعقد،
لا يظنون هذا «التحليل» شيئاً سوى لم أشتات مخلطة من أخبار الأديب،
لا تفتج إلا ثوباً مرقعاً عجيب التنافر لا يخفي هائلته وبلاه ما أضافوا
إليه من خرق مستعارة فتهم بريقها العصري. والأسلوب الذي يتخذونه
أسلوب إنشائي منمق العبارة مكتظ بالتراكيب البدوية الضخمة أو

محشو بالمحسنات العباسية المتظرفة ، أو يجمع في محاولته البلماء تقليد أساليب القدماء بين هذين العنصرين الشديدي التضارب . وليس يعنينا الآن ما ينتج عن هذا المزج السكريه من أسلوب يقز منه الذوق السليم ، لكن يعنينا أنهم يخدعون أنفسهم باصطلاح طنان لا يفقهون له معنى . فليس هؤلاء يفهمون المعنى الصحيح لـ « تحليل الشخصية »

أما نقادنا المحدثون ممن نشأوا بعد الثلاثة العظام فنصرفون عن الدراسة المجدية للأدب العربي بانهما كهم في تطبيق مقاييس النقد الأوربي على هذا الأدب المسكين ، وعزوفون عن التحقيق الصحيح لشخصيات أدبائه في جهادهم في تقسيم هؤلاء الأدباء بين واقعيين ومثاليين ، وطبيعيين ورمزيين ، وكلاسيكيين ورومانتيكيين ، إلى آخر ما يلصقون بالأدب العربي من اصطلاحات يحدونها متداولة في النقد الغربي وهي لا تمت إلى أدبنا بصلة قريبة ولا بعيدة .

حملتني هذه الحقائق المحزنة على أن أتوخى في وضع هذا الكتاب أن يكون سرحاً للخطوات التي يخطوها دارس الشخصية الأدبية ، كيف يتفهمها ويقلب النظر فيها ويتعرف جوانبها المختلفة ويحاول استكشاف الدوافع والقوى التي تعاونت على إنتاج عناصرها المتعددة المتضاربة ويضم كل هذه العناصر على تنافرهما في وحدة حيوية مؤتلفة . لذلك لم أكتف بعرض النتائج التي انتهيت إليها من دراستي لشخصية الشاعر الذي اخترته بالدراسة ، بل حاولت أن أبين للقارئ كيف توصلت

إلى هذه النتائج من قراءتي لأخباره وأشعاره . على أن القارىء لن يجدنى أعرض لمسائل الدراسة الشخصية بالشرح النظرى والمناقشة العقلية المجردة ووضع الأحكام والأصول والمقاييس ، فهذه طريقة قليلة الجدوى فى تبصير المتعلم وتدريبه . إنما الوسيلة التى ألتجأ إليها هى أن أتناول الشاعر الذى اخترته بالدراسة المباشرة ، فأدرسه مع القارىء فى خطوات تدريجية متمهلة ، فأبنى معه مرحلة بعد مرحلة - صورتي الشاملة للشخصية التى أدرسها ، ثم انتهز هذه الدراسة العملية لأشرح له واحدة بعد واحدة طائفة من أهم الحقائق فى الدراسة الشخصية .

هذه فى نظرى هى الطريقة المحمدية . أما الكتب التى تتناول قواعد النقد الأدبى وطرق الدراسة الأدبية بالشرح النظرى والمناقشة العقلية ، فقد يقرأ المتعلم منها عشرات دون أن تعود عليه بجدوى ذات بال . ولكن ان أردنا أن نحسن دراسة الشخصية الأدبية فلا بد لنا أولاً من أن نعرف : عم تنتج الشخصية الانسانية ؟

هى تنتج عن عوامل كثيرة عظيمة التنوع والاختلاف ، ولكننا نستطيع أن نقسمها قسمين عامين : عوامل التكوين الفردى ، وعوامل البيئة .

أما القسم الأول فنعنى به طبيعة الفرد نفسه ، أو جبلته التى خلق عليها ، وما به من استعدادات وزعات ومحاسن ومساوىء فطرته عليها عوامل التكوين الوراثى ، من التكوين العقلى ، وطبيعة الجهاز العصبى ،

وطبيعة الجهاز الجنسي ، وغير هذين من الأجهزة الجسمية ، وتصيبه من قوة البنية أو ضعفها ، وقدرة جسمه على مقاومة العلل أو استعداده لتقبلها . وهذه كلها عوامل عظيمة الأثر في تكوين الشخصية ، ولكننا لن نخصها هنا بالحديث ، فقد تناولناها بالشرح المفصل في كتاب سابق (١) .

أما القسم الثاني ، فهو عوامل البيئة ، وتأثير ظروفها الزمانية والمكانية . في أي عصر ولد هذا الفرد ، وفي أي مكان ، وما حالة عصره وموطنه من الوجهة السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والخلقية ، والثقافية . وفي أي بيت ولد ، ولأي أبوين ، ومن كانوا رفاق صباه وأخذان شبابه ، وكيف كان تأثيره بهم ، وأي نصيب ظفر به من ثروة عصره المادية أو الفكرية ، وبأي أوساط خاصة اختلط ، وأي أحداث حدثت له في مراحل حياته المتعاقبة فجعلته ينزع منزعا خاصا من السلوك أو التفكير .

وهذه أيضا عوامل عظيمة الأهمية ، إلا أن الشخصية لا تتكون عنها وحدها ، كما أنها لا تتكون عن عوامل التكوين الطبيعي وحدها ، بل هي نتاج تفاعل هاتين الناحيتين . وفي بعض الشخصيات يتساوى أثرهما ، وفي بعضها يزيد أثر هذه الناحية أو تلك . وقد رأينا في كتابنا الذي أشرنا إليه شاعرا زاد فيه تأثير التكوين الطبيعي ، وهو ابن الرومي ، فكانت دراسته مجالا لاستجلاء هذه الناحية من تكوين الشخصية . أما في هذا الكتاب فسندرس شاعرا زادت فيه عوامل البيئة ، وهو

بشار بن برد ، فتكون دراسته فرصة نتبين فيها أهمية هذه العوامل ونصيبيها الصحيح في تكوين كثير من الشخصيات الأدبية ، وتكون أيضا نوعا من التصحيح والموازنة للكفة الأخرى التي رأيناها رجحت في تحقيقنا لشخصية ابن الرومي .

وهذا هو السبب الأول الذي دفعني إلى اختيار بشار ، ولكن هناك أسبابا أخرى ، منها أن شخصيته عظيمة النضوج شديدة التعقد وعناصرها كثيرة التضارب ، فمحاولة حلها تقدم لنا ميدانا واسعا تجبهنا فيه أهم المشاكل والصعوبات التي يواجهها دارس الشخصية الأدبية . ومنها أن مؤلف هذا الكتاب يعتقد أن نقادنا أخطأوا في فهم شخصيته ، فدراسته مجال طيب للمقارنة بين اختلاف الآراء في فهم الشخصية لواحده ، ثم للقارئ أن يفضل منها ما يفضل ، وهو على أي حال سيجد في وجهات النظر المتعارضة ما يساعده على أن يحدد وجهة نظره الخاصة ويكون رأيه في تناول الصحيح للشخصية الأدبية .

وقد فرضت في وضعي هذا الكتاب أن قارئه قد ألم بأهم ما قيل عن بشار في القديم والحديث ، فإن أراد القارئ أن يعيد النظر فيه قبل أن يمضي في قراءة الكتاب فاليه ثبتا بأهم المراجع عن بشار .

أوفي هذه المراجع سيرته في الجزء الثالث من الأغانى ، ومنها تستمد معظم المراجع القديمة الأخرى . ولكن بالأغانى فصلين آخرين فيهما من أخباره وأشعاره مالا يوجد في سيرته الرئيسية ، أحدهما في الجزء السادس تحت عنوان « أخبار بشار وعبدية خاصة » ، والثاني هو سيرة حماد بن عمار ، وهو شاعر طال تهاجيه مع بشار ، في الجزء الثالث عشر .

يلي هذا في الأهمية سيرته في «طبقات الشعراء المحدثين» لابن المعتز. أما ما عدا هذا من المراجع القديمة فلا تنكاد تضيف إلى أخباره شيئاً جديداً.

كذلك شعره، أهم ما بقي لنا منه هو ما نجده في أخباره في الأغاني إلا أن بكتاب «المختار من شعر بشار» اختصار الخالدين، بضع مقطوعات أخرى لها أهميتها.

وما يرد في كتابي هذا من أخباره وأشعاره غير محال إلى مصدر فهو مأخوذ من سيرته في الجزء الثالث من الأغاني. إلا أنني في رواية بعض أبياته أثرت قراءات وجدتها في غير الأغاني، أو أضفت إلى ما يرويه الأغاني أبياتاً تعطيها مصادر أخرى.

أما الدراسات التي وضعت عنه في نقدنا الحديث فأهمها ما كتبه طه حسين في «حديث الأربعاء»، وما كتبه العقاد في «مراجعات في الآداب والفنون»، وما كتبه المازني رحمه الله في كتاب مستقل عن بشار نشر في سلسلة «أعلام الإسلام». والمازني في كتابه هذا يبذل جهداً مشكوراً في تصحيح النظرة الشائعة إليه، وإن لم يعطه الإنصاف الذي نظنه جديراً به، ولكن محاولته صادقة، وهي عندي خير ما كتب عن بشار في نقدنا الحديث.

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا.

محمد محمد الدروني النوبختي

الخرطوم في ١٥ مارس ١٩٥١

فهرس

صفحة

المقدمة ١-و

القسم الأول: الرجل

الجانب الأول: ظلام

٣	.	.	.	.	.	.	.	الصورة الشائعة
٦	.	.	.	.	.	.	.	أعمى ✓
١٧	.	.	.	.	✓	.	.	دميم ✓
٢١	.	.	.	.	.	.	.	مولى ✓
٣٥	.	.	.	.	.	.	.	مضطهد ✓
٣٧	.	.	.	.	.	.	.	مبخوس ✓
٤٤	.	.	.	.	.	.	.	حساس ✓
٤٩	.	.	.	.	.	.	.	أبى ✓
٥٢	.	.	.	.	.	.	.	مشاكس ✓
٥٤	.	.	.	.	.	.	.	سليط ✓
٥٦	.	.	.	.	.	✓	.	فاجر ✓
٦١	.	.	.	.	.	✓	.	متشكك ✓

صفحة

٧٠	مقوت
٧٧	كاره للبشر

الجانب الثاني: نور

٨١	معاصروه ، ونقادنا
٨٥	نواحيه الخيرة
٨٦	بار
٩٤	حنان
٩٨	كريم
١٠٦	مصادق
١١٣	صفوح
١١٦	فك
١٢٦	شجاع الرأي
١٣٠	مقتله الأشنع
١٤٢	شهيد
١٤٦	البيئة وشخصية الأديب

القسم الثاني : الشاعر

الجانب الأول : ظلام

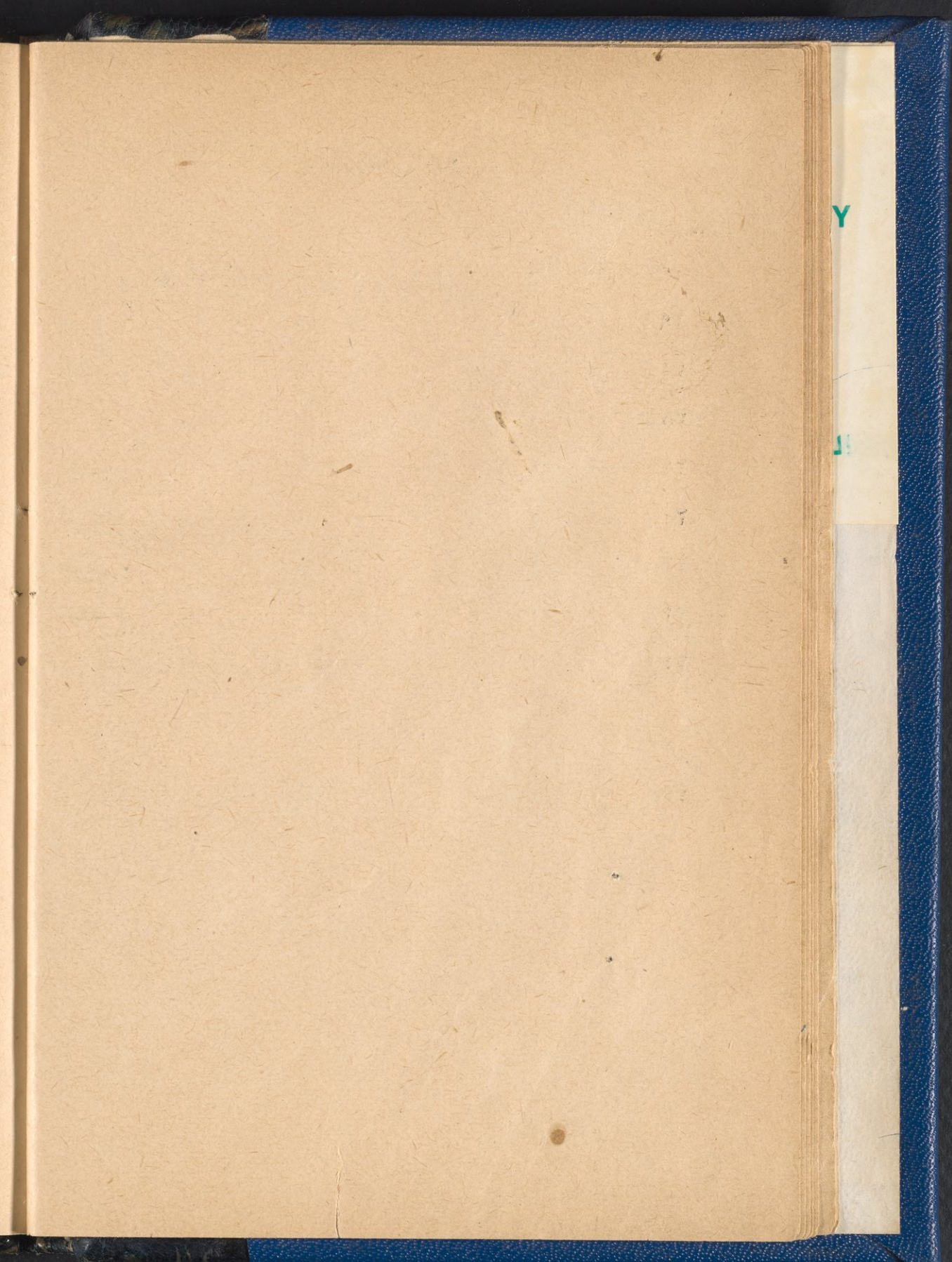
١٥٧	نقادنا وشعر بشار
١٦٦	انتقام
١٨٦	الحكم الخلق والحكم الفني

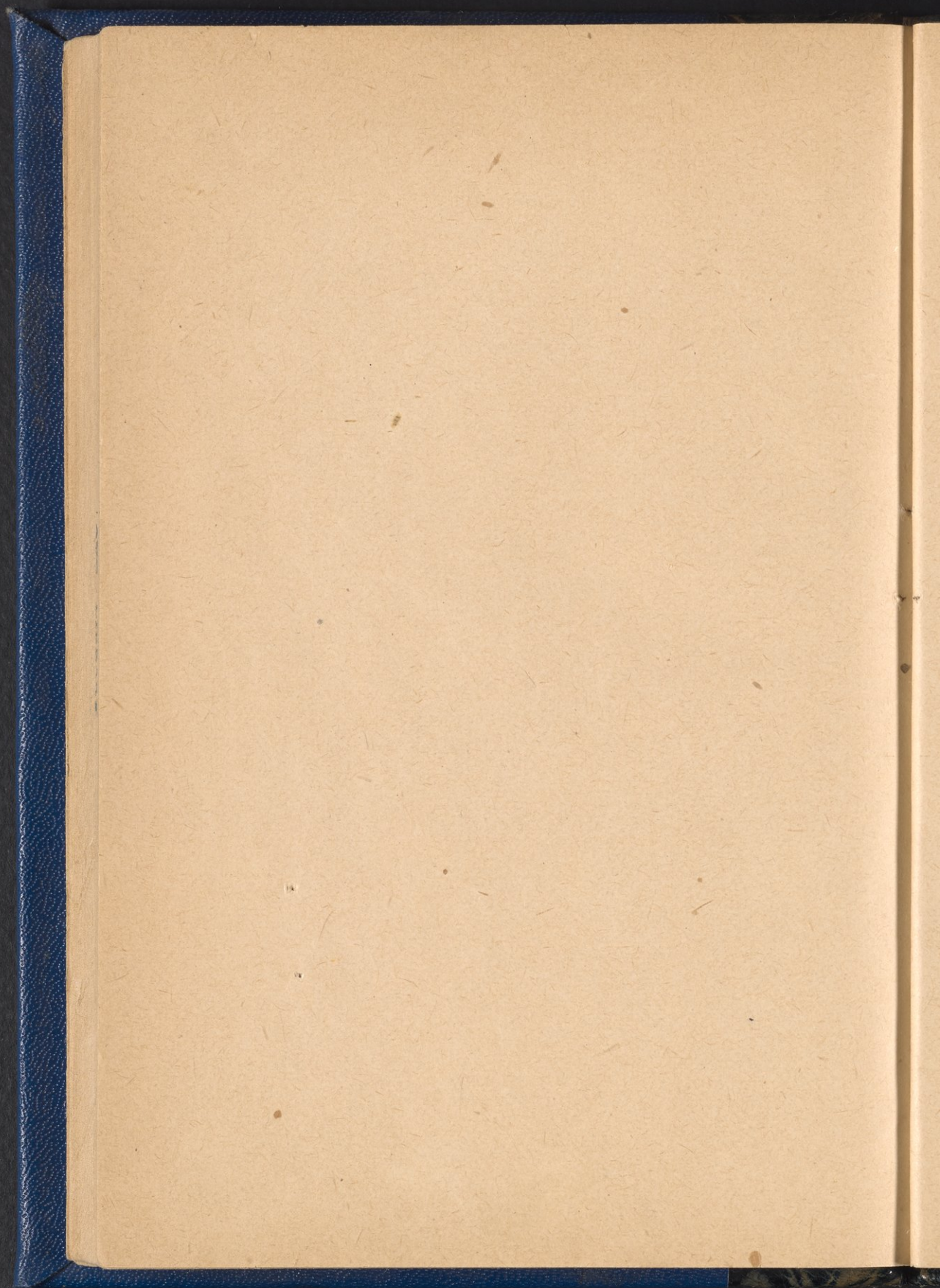
الجانب الثاني: نور

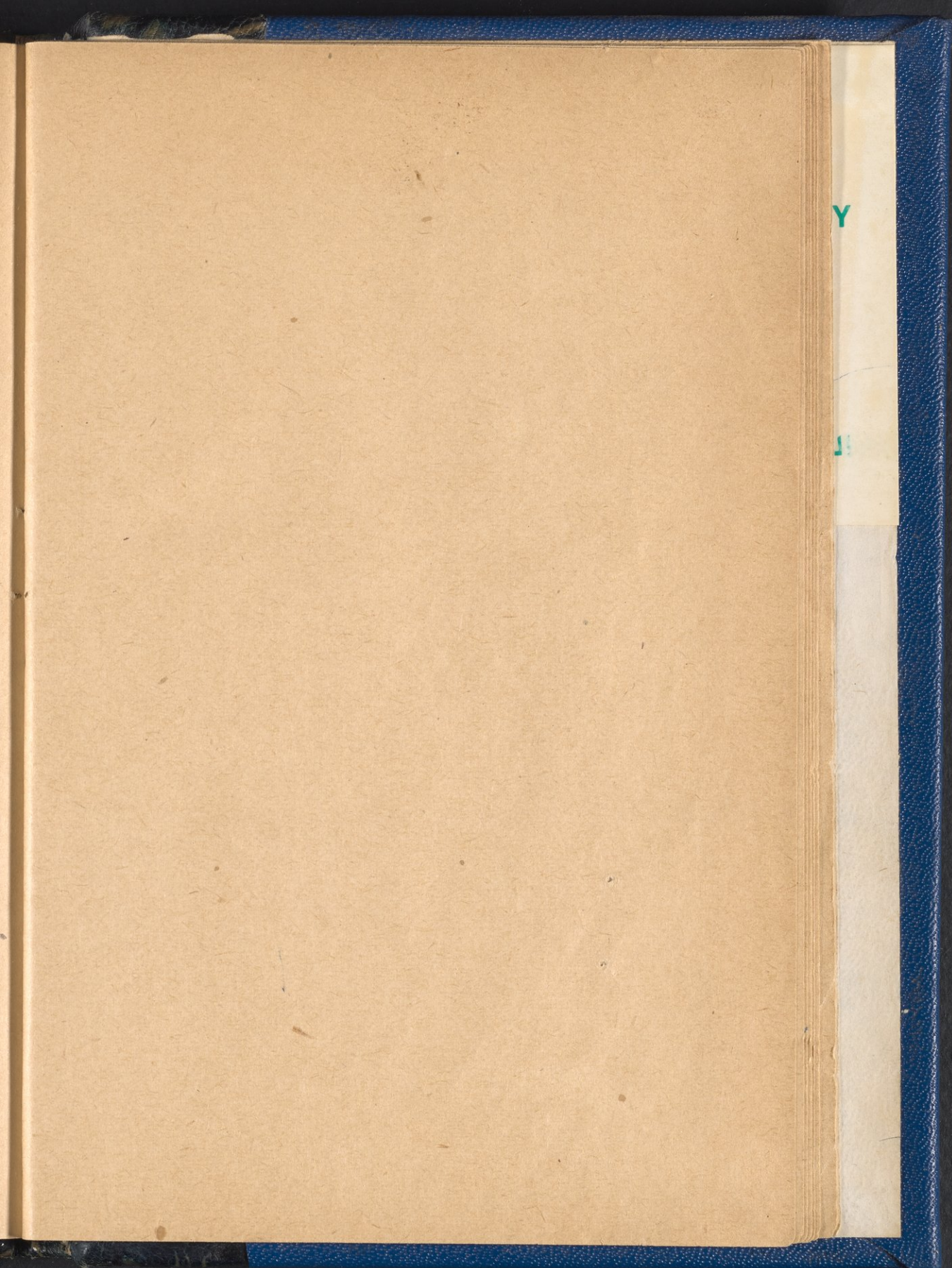
[illegible]

النهاية :

وداع الغزل ، ووداع الحياة ٢٥٥







القسم الاول

الرجل

Y

2.
20
2.
10
—
21.

الله وتصدقوا ، وأخرجت جنازته فما تبعها أحد إلا أمة له سوداء
سندية عجماء ما تفصح ، أفبعد هذا تحتاج إلى تدليل ؟

هذه هي صورة بشار الشائعة لدى أساتذة الأدب ومتعلميه ، وهي
صورة خاطئة ، ظالمة ، وعمل في كتابي هذا أن أحاول إثبات خطأها ،
ورسم صورة مغايرة أظنها أقرب إلى الصحة وإلى الانصاف .

ولكني قبل أن أبدأ مناقشتي المفصلة ألفت القارىء إلى حقيقة هامة
كان ينبغي أن تكون كافية لجلنا على الشك في هذه الصورة الشائعة ،
وهي هذه : إننا لا نستطيع أن نصدق أن إنسانا يبلغ هذا الحد من الشر
الكامل الذى لا يخالطه ذرة هيئة من الخير ، فهذه الصورة الخائفة
التامة الخائفة التى لا نجد فيها بصيصا من نور لا يمكن بحال أن تتحقق
في إنسان حقيقى من دم ولحم يعيش فعلا في المجتمع الانساني .

نحن بشر ، ليس أحدا ملكا ، وليس أحدا وحشا ، فان قرأنا عن
شخصية ما دراسة تصورها كأنها مجموعة من الفضائل التى لاشية فيها
شككنا في هذه الدراسة ، فمثل هذا الفرد الكامل لا وجود له في
حقيقة الحياة ، إنما يوجد في الأساطير الشعبية أو قصص المغامرات
الخيالية التى تروج لدى العامة ، والتى تتخذ لحوادثها بطلا يجمع كل
الحاسن ويتنزه عن جميع المساوىء ، فيفوز من قراء القصة السذج
العقول بأكل الحب وأتم الأعيان .

وإن قرأنا عن شخصية أخرى دراسة تصورها كأنها مجموعة من
الذائل التى لا تقترن بنصيب هين من الخير شككنا فيها كذلك ، فمثل

رجل دنىء خسيس النفس لثيم الطبع ، متلون الرأى ، يمدح ثم
لا يلبث أن يهجو ، يهدد الأغنياء بالهجوم إن لم يجودوا عليه ولا يعرف
في تهديده معنى للخجل ، غدار خوان لم يخلص لإنسان ، يخون أصدقاءه .
يشاركهم الاحاد ثم يهجوهم بالحادهم ، ولا يكتفى بهذا فيدفع عن نفسه
تهمة الزندقة بالطريق التى يسلكها الجبناء وأندال الناس فيتهم بها غيره
من خصومه ومن أصدقائه أيضا - رجل كاذب منافق مسرف فى النفاق ،
بخيل زائد الجشع ، أنانى عظيم الأنانية ، يرى أن الخير يجب أن يكون
موقوفا عليه .

أضف إلى هذا كله أموراً ثلاثة : أنه زنديق فاسد الرأى خبيث
العقيدة ، وأنه شعوبى يحقد على العرب ولا يخفى حقه ، وأن فظاعته
لم تقتصر على الناحية الخلقية بل تجلت فى تكوينه الجسمى كذلك ،
فقد كان فى جسمه أقرب إلى الوحش ، كان ضخيم الجثة غليظا أعمى
قبيح العمى بشع الوجه كره المنظر - فأى صورة تكونها كل هذه
العناصر ؟

صورة حالة تامة الحلاكة ، ليس فيها بصيص من نور ، صورة
إنسان خليق بالاحتقار والمقت الشديد ، لا يستحق قدراً تافها من
الأسفاق أو التسامح أو المغفرة ، فقد خرج هذا المخلوق عن نطاق
الانسانية فليس له أن ينتظر منها صفحا ولا قبولا .

فان كنت فى شك من هذا فيكفيك أن تعرف أن معاصريه جميعا
كرهوه كرها خالصا ، حتى إذا مات تباشروا وهناً بعضهم بعضا وحمدوا

الله وتصدقوا ، وأخرجت جنازته فما تبعها أحد إلا أمة له سوداء
سندية عجماء ما تفصح ، أفبعد هذا تحتاج إلى تدليل ؟

هذه هي صورة بشار الشائعة لدى أساتذة الأدب ومتعلميه ، وهي
صورة خاطئة ، ظالمة ، وعمل في كتابي هذا أن أحاول إثبات خطأها ،
ورسم صورة مغايرة أظنها أقرب إلى الصحة وإلى الانصاف .

ولكني قبل أن أبدأ مناقشتي المفصلة ألفت القارىء إلى حقيقة هامة
كان ينبغي أن تكون كافية لجلنا على الشك في هذه الصورة الشائعة ،
وهي هذه : إننا لا نستطيع أن نصدق أن إنسانا يبلغ هذا الحد من الشر
الكامل الذى لا يخالطه ذرة هينة من الخير ، فهذه الصورة الخالصة
التامة الخالصة التى لا نجد فيها بصيصا من نور لا يمكن بحال أن تتحقق
في إنسان حقيقى من دم ولحم يعيش فعلا في المجتمع الانساني .

نحن بشر ، ليس أحدا ملوكا ، وليس أحدا وحشا ، فان قرأنا عن
شخصية ما دراسة تصورها كأنها مجموعة من الفضائل التى لاشية فيها
شككنا في هذه الدراسة ، فمثل هذا الفرد الكامل لا وجود له في
حقيقة الحياة ، إنما يوجد في الأساطير الشعبية أو قصص المغامرات
الرخيصة التى تروج لدى العامة ، والتى تتخذ لحوادثها بطلا يجمع كل
الحاسن ويتنزه عن جميع المساوىء ، فيفوز من قراء القصة السذج
العقول بأكل الحب وأتم الإعجاب .

وإن قرأنا عن شخصية أخرى دراسة تصورها كأنها مجموعة من
الذائل التى لا تقترن بنصيب هين من الخير شككنا فيها كذلك ، فمثل

هذا الشيطان لا يوجد في واقع الحياة إنما يوجد في نفس الأساطير
والمغامرات الخيالية التي أشرنا إليها ، فانها تجمع إلى بطلها الذي يتحلى بكل
الفضائل مجرماً أثمياً يتصف بكل المساوئ وتصدر عنه جرائم القصة
ومصائبها فيصب عليه قراؤها كل كرههم واحتقارهم .

فهذه الصورة المبالغية في فساد بشار وشره تحملنا — حتى قبل أن
نحققها — على الظن بأن الناس قد أخطأوا فهم بشار فتحاملوا عليه ،
قدماءهم ومحدثيهم معا ، فعملنا ليس أن نحقق الصورة فقط ، بل أن
نبحث عن الأسباب التي دفعتهم إلى هذا الكره التام ، فلعل بحثنا هذا
يعيننا بدوره في محاولتنا استكشاف الصورة الصحيحة .

أعمى

العنصر الأول الذي تكونت منه نفسية بشار هو عماء .

نحن المبصرين نتحدث كثيراً عن نعمة البصر وعن مصيبة فقده .
ولكن معظم حديثنا هذا كلام شفاه ، قل منا من يدرك هذه النعمة
أو ضخامة فقدها حق الإدراك ، اللهم إلا إذا حدث ما يهدد بصرنا
نحن بالفقد أو بصر عزيز علينا .

وسبب هذا أن معظمنا لا يفكر في هذا الأمر تفكيراً جدياً ،
تفكيراً حقيقياً مخلصاً . أغلب ظني أنني لو طلبت إلى القراء أن يتدبروا هذه

المسألة لا يتسم أكثرهم هازئين (١) ، وقالوا هذا شيء بديهي يستطيعه صبي المدارس ويحسن الحديث فيه حين يكلف بأن يكتب موضوعا انشائيا عنوانه « تصور حال رجل حرم نعمة البصر » ، فانظر أى وصف بليغ يستطيعه ذلك الصبي ، وأى تصوير باك متحسر ، عنيف ناثر .

ولكن هذا عين ما لا أريده ، لا أريد الوصف « البليغ » ، ولا التصوير الباكي العنيف ، فهذا لن يقود إلى إدراك صادق بل كل ما يؤدي إليه هو الانفعال الكاذب المائع الذي يلجأ إلى حشد عبارات الإنشاء المحفوظة وأكليشيات البلاغة المرصوفة يستعويض بها عن

(١) وليس هذا مجرد ظن مني ، ففي كتاب سابق حاولت في أحد فصوله أن أطلع القارئ على مدى حزن الوالد الذي يفقد ولده ، وكانت طريقي أن أقص على القارئ قصصا واقعية عن آباء وأمهات عرفتهم وأن أسجل ما قالوا وما فعلوا . فكتب مدرس اللغة العربية بإحدى المدارس الثانوية مقالا عن الكتاب يقول فيه ان هذه الأمور « بدهيات لا تغيب عن عامة الناس » ويقول « وكنت أود من المؤلف قبل أن يقوم على هذه الطريقة أن يكلف الطلاب كتابة موضوع انشائي (عن تصوير حال أم فقدت ولدها) ثم ينظر بعد ذلك في الآفاق التي امتدت لإيها أقلامهم » . وهذا دليل محزن على نصيب أغلبنا من فهم الحياة وفهم الأدب ، فهل ادعأوه صحيح ؟ حين يكلف الطالب بمثل هذا الموضوع لا يجلس أولا يفكر في أحداث حياته هو وحياة أبويه وأقاربه ثم يحاول أن يسطرها بصدق وبساطة ، بل يبادر إلى الأسلوب البلاغي الصاحب الكاذب الذي يحمله عليه مدرسه الثانويون ، فيحشد لهم حيل البلاغة حشدا ، ويبدى براعته برص التشبيهات والاستعارات والكتابات ، ويتحلق في تنميق العبارات عن فداحة الخطب وهول المصائب ويصف اضطراب الأكوام وهوى النجوم وزلزلة الجبال حزنا على المفقود . وما أبعد هذا كله عن الألفاظ البسيطة الصادقة المؤثرة التي أوردتها عن أم تستغرب موت ولدها وتأبى أن تصدقه . هذه ألفاظ تقطع قلوبنا أربا ان كنا ممن يهتز للكلام الصادق المعبر عن عاطفة حقيقية ، أما تلك فشعوذة وألاعيب حواة .

التفكير الشخصي الجاد . ومعظمنا في بلداننا العربية لا يزال للأسف الشديد يقنع في كل مسائل الحياة والآداب يحشد هذه التعبيرات المنمقة التقليدية لا يحاول تفكيراً حقيقياً من عنده هو ، والنتيجة المحزنة هي أن معظمنا عاجز في معظم أوقاته عن تفهم مصائب الآخرين تفهما صادقا ، ومعنى هذا أنه يظل مغلقاً في دائرة نفسه لا يكاد يدرك صلته بالحياة الانسانية الشاملة له ولسواه من بني البشر .

ليس هذا الأسلوب الانفعالي الكاذب هو ما أريده ، بل أن يجلس القارئ جلسة هادئة يفكر تفكيراً متزنًا متمهلاً في كل النعم والملاذات والمنافع التي يستطيعها لأنه مبصر ، والتي يحرمها من لا يرى ، ولو فعل ذلك ساعة أو بعض ساعة لأدرك أى رعب حقيقى يستولى عليه من مجرد التفكير في احتمال فقد بصره ، رعب لا يستطيع استشارة معشار معشاره تلك البلاغيات الكاذبة والخطايات المهرجة ، ولبدأ يتفهم مقدار اللوعة الحقة ، مقدار الحسرة والسخط والأسى ، الذى يداخل نفس كل أعمى .

كل أعمى فهو لا يخلو طول حياته من الحسرة ، ولكن العميان
يختلفون في نصيبهم من الحكمة والرضوخ للواقع وقبول ما لا يمكن تغييره . فمنهم من ينتهى إلى كبت حسرته فلا تزيد في معظم أوقاته عن أن تكون أسى دفيناً محتزناً لا يهيج ويشتد الا بين الفينة والفينة ، ومن هذا النوع كان أبو العلاء .

ولكن منهم من يظل هائجاً ساخطاً طول حياته ، وفي كل يوم من أيام عمره ، لا يستطيع أبداً أن يرضى أو يرضخ للأمر الواقع . كل

ما يحدث له منذ أن يهب من نومه في الصباح إلى أن يأوى إلى فراشه في المساء يذكره بمصابه ، يذكره بهذه النعمة التي يستمتع بها غيره وهو قد حرمها . ومن هذا النوع كان بشار لسوء حظه .

من هذا النوع كان بشار . ما قبل عماه قط ، بل ظل طول حياته برما به مغتاضا ثائرا ، ويكاد هذا يتجلى في كل خبر من أخباره التي وصلتنا ، ولسكن قبل أن نتأمل فيها نشير إلى عوامل أخرى اقترنت بعماه فضاعفت عليه من جسامه هذا الرز .

فأولها أن بشارا لم يكن أعمى عاديا . لم يكن فردا من سوقة الناس . بل كان - كما سترى بعد - إنسانا ممتازا ، مفكرا عميق التفكير واسع الثقافة ، فنانا حاد الاحساس ، شاعرا بارعا من الطراز الأول . يتأمل هذا الرجل الممتاز في نفسه ، فيرى أنه برغم كل امتياز ، برغم فكره وثقافته وشاعريته ، قد ضنت عليه الطبيعة بما أسدت إلى غيره من الناس . ثم يتأمل في هؤلاء فيرى أكثرهم رعاا أو شابا أغبياء ، يراهم مخلوقات أقرب في بلادتها وغبائها إلى الحيوان الأعجم . ولسكن الطبيعة قد تسكرمت عليهم بما بخلت عليه به . أي عدل هذا ، وهو لو رزق البصر لاستعمله واستفاد منه أضعاف ما يستطيعون ، وهم لو حرموه لما زادهم انحطاطا أن يزدادوا إلى عمى القلوب التي في الصدور عمى الأبصار التي في الرؤوس .

وثانيها أن بشارا كان مولى ، اضطهد كثيرا من أجل أصله الأعجمي وتعذب صنوفا من العذاب بسببه . ففكر كيف انضم عماه إلى أعجمية

أصله ليزيدا في محنته . ولو كان أعمى عربيا لحف بلاؤه ، أو لو كان مولى مبصرا .

ولنفكر أخيرا في البيئة التي وجد فيها بشار ، وهي بيئة كان يعد فيها العمى نقصا شديدا بالرجل ، لست أعني أنه كان يعد نقصاً جسمانياً فقط ، بل كان يعد نقصاً خلقياً أيضاً . ولكنك إن تحتاج في هذا إلى تفكير طويل ، فنحن لا نزال نجد في ريفنا وباديتنا مثل هذه البيئة الساذجة التي تعد عاهة الفرد ذنباً عليه ، تعدها شيئاً مشيناً ، وتستنكرها استنكاراً خلقياً ، وتقرن بين العمى أو العرج أو العور أو غيرها من العاهات وبين رذائل أخلاقية تعتبرها لازمة لها ، وتعتقد أن هذا الفرد لم يبتل بعاهته إلا عقاباً عادلاً من الله على إثم لا بد أنه أتاه ، وتنفر من كل ذوى العاهات ، لا نفورا جمالياً فحسب ، بل نفورا خلقياً كذلك .

مثل هذه البيئة تحتقر ذا العاهة وتذمه وتكرهه ، ثم يدفعها هذا إلى أن يؤذيه رعاعها وينالوا منه بالسب بل بالأذى الجسمي في كثير من الأحيان ، لأنها لم تصل بعد في صحة التفكير إلى المدى الذي يريها أن ذا العاهة لا ذنب له في عاهته ، ولم تبلغ بعد في التمييز بين الحكم الجمالي والحكم الخلقى إلى الحد الذي يهديها إلى أن ذا العاهة الجسمية لا يكون بالضرورة وغداً من شرار الناس .

ولعل خير شاهد على هذا أن لفظ « أعمى » لا يزال في لغتنا صفة ذم ، لا نصف بها امراً إلا إذا أردنا شتمه ، أما إذا أردنا مجرد ذكر الحقيقة أنه لا يبصر فأننا نلجأ إلى تعبيرات أخرى ، فنقول فلان الكفيف

أو فلان الضير ، أو فلان المتطبع بغيره ، وما إلى هذا من المهارب التي نفر إليها من كلمة « أعمى » . ويزداد هذا وضوحا إذا قارنت « أعمى » العربية بنظيرتها (blind) الإنجليزية . فنظيرتها الإنجليزية لا تحمل بالضرورة رنة السباب التي تحملها الكلمة العربية . فلك في الأسلوب الإنجليزي أن تتحدث عن معاصر فتذكر أنه (blind) دون أن يكون في هذا إيذاء له أو نيل منه . ولا أزال أذكر دهشتي وألمى حين قرأت في صحيفة إنكليزية راقية وصفاً لأديب مصري كبير قيل فيه « هذا الأديب المصري الأعمى العظيم » ، لأنني كنت لا أزال أقرن بين اللفظ وبين رنة السباب المقترنة به في العربية .

من هذا كله كان رزء بشار في عماه عظيماً ، فلو أنه كان أعمى عادياً لامتياز له في العقل أو الثقافة أو الذوق الفني لما تعذب كل عذابه . ولو أنه عاش في عصرنا هذا في وسط راق مهذب لما ناله ما ناله من ألوان الأذى بسبب عماه . لست أعني أن هذا الوسط الراق يرحمه ويغض النظر عن عاهته ولا يسبه بها ، لست أعني هذا وحده ، بل أهم من هذا أن مثل هذا الوسط المتحضر لا يحتقره لعاهته ولا يعدها عليه ذنباً ولا يأخذ نقصه الجسمي عليه جريرة أخلاقية ولا يعتقد أنه لابد مقترن برذيلة نفسانية .

لا عجب إذن أن نرى بشاراً في أخباره التي يرويها القديما دائم السخط دائم الهياج ، لا يفتأ يتذكر عماه يذكره به كل حدث من أحداث عيشته ، ويذكره به الناس لسبب ولغير سبب ، عن قصد أو عن غير قصد .

فبين يدين منصور الحميري الذي دخل على المهدي وبشار بين يديه ينشده قصيدة امتدحه بها ، ثم أقبل عليه بعد أن فرغ منها فقال له : يا شيخ ، ما صناعتك ؟ فأجابه بشار : أنقب اللؤلؤ ! — يزيد هذا لم يكن يتعمد إيذاه أو تذكيره بعاهته ، إنما كان كما يقولون شيخا به غفلة . ولكن بشار غاظه هذا السؤال الغبي وتأذى منه كما لو كان الإيذاء متعمدا ، فأجابه بهذا التهمك اللاذع . يقولون : — فضحك المهدي ثم قال لبشار : أعزب ويملك ، أتتندر على خالي ؟ فقال له : وما أصنع به أرى شيخاً أعمى ينشد الخليفة شعرا ويسأله عن صناعته !

وغلامه الذي رفع إليه في حساب نفقته جلاء امرأة عشرة دراهم ، فصاح به بشار وقال : والله ما في الدنيا أعجب من جلاء امرأة أعمى بعشرة دراهم . والله لو صدئت عين الشمس حتى يبق العالم في ظلمة ما بلغت أجرة من يجلوها عشرة دراهم — هذا الغلام لا بد أنه دهش من هذه الثورة وتألم لها كثيراً . فهو لم يذنب ذنباً يبرر هذا الأسلوب الهائج . والحق أن بشارا ليس ساخطاً بالغلام ، ولا هو متأفف من المبلغ الذي عليه أن يدفعه ، إنما هو ساخط على عماه ، ساخط على « الدنيا » و « العالم » و « الشمس » ، ساخط على ظلمته التي تحرمه شمس الدنيا ونور العالم ، وتحرمه القدرة على أن ينظر في هذه المرأة فيرى نفسه ، وتهب في نفس الوقت هذه القدرة لخادمه .

وقصة الجام ^(١) التي تروى عنه :

(١) الجام : إناء للفضة .

« كان بالبصرة رجل يقال له حمدان الخراط . فاتخذ جاما لإنسان
كان بشار عنده . فسأله بشار أن يتخذ له جاما فيه صور طير تطير .
فاتخذ له وجاء به . فقال له : ما في هذا الجام ؟ فقال : صور طير تطير .
فقال له : قد كان ينبغي أن تتخذ فوق هذه الطير طائرا من الجوارح
كأنه يريد صيدها ، فانه كان أحسن . قال : لم أعلم : قال : بلى قد علمت
ولكن علمت أنى أعمى لا أبصر شيئا . »

واضح أيضا في هذه القصة أى سبب حقيقى أغضب بشارا : انه
لا يستطيع أن يرى هذه الطير التى صورها الخراط (١) .
وبقية هذه القصة : علام تدل ؟ تستمر القصة :

« وتهده بالهجاء : فقال له حمدان : لا تفعل فانك تندم : قال :
أو تهددنى أيضا ؟ قال : نعم . قال : فأى شيء تستطيع أن تصنع بى
أن هجوتك ؟ قال : أصورك على باب دارى بصورتك هذه وأجعل
من خلقك قردا ينكحك حتى يراك الصادر والوارد . قال بشار : اللهم
اخزه ! أما زح وهو يأبى إلا الجدا ! . »

يستدل بها النقد على جبن بشار ولؤمه . وقد تستدل بها نحن على

(١) ولكن نسأل : لم اختار بشار صور طير تطير دون غيرها مما كان يستطيع طلبه
من التحلية ؟ لعل عالما نفسانيا لو قرأ هذه القصة لرأى فى الطير التى تطير (لاحظ أنها
ليست جائحة على الأرض) محاولة من بشار دون أن يدرك فى الارتفاع على نقائصه والتحليق
فوق همومه ، فلما صورها الصانع فلم يستطع رؤيتها لم يجد بها كفاء ، بل ذكرته مرة
أخرى بنقصه الأعظم ، فعاد يتطلب جارحا يفلبها ويقهرها جميعا ، ولسنا نحتاج إلى أن
نكون علماء نفسانيين لنذكر أن هذا الجارح هو بشار نفسه .

شيء آخر حين نزداد لنفسيته فهما : على عظم إدراكه لبلبته في عماه
وقبح خلقته ، وشدة تأذيه من إشارة الناس إليها ، تأذيا ليس يصدر
عن جنبل عن فرط حساسيته وإرهاف شعوره .

أما تعمد الناس إيداهه بذكر عماه فكان كثيرا . يروى صاحب
الآغانى لشاعر يهجو اسمَه أبو هشام الباهلى بيتا شنيعا لا نستطيع
روايته (١) مضمونه أنه يدعى أن سبب عمى بشار هو أن عبدا لأبى هشام
اتصل بأبى بشار وهو جنين ، ففقأ عينيه . وقوة هذا الهجاء تغيب عليك
إن لم تدرك أن الناس فى عصره كانوا يعتقدون أن هذا ممكن أن يكون ،
فهم لم يكونوا يعرفون ما نعرفه الآن من تكون الجنين ووضعه فى
الرحم واستحالة حدوث ما يدعيه ذلك الشاعر . فلا غرو أن يروى
صاحب الآغانى أن بشارا لم يزل منذ قيل فيه هذا الشعر منكسرا .

— والكنك قد تقول : شاعر بذى يهجو خصما له بالهجاء العربى
المعهود البذاءة ، ولا يستدل بهذا على سائر أهل عصره . فما رأيك فى
عالم جليل فاضل هو واصل بن عطاء ، يغيظه من بشار زيغ الدينى
فيأبى إلا أن يقحم عماه أيضا فيقول : أن من أخدع حباثل الشيطان
وأغواها لكلمات هذا الأعمى الملهد . ويقول فى خطبة خطبها يحرض
بها الناس عليه : أما لهذا الأعمى الملهد ، أما لهذا المشنف المكنى بأبى
معاذ من يقتله ؟ . . . إلى آخر ذلك التحريض الكريه .

بل هم حين يريدون امتداحه يابون إلا أن يذكروه بعماه . يقول

بشار شعرا جميلا فيستكثرونه على أعمى . عن الأصمعي قال :
« ولد بشار أعمى فما نظر إلى الدنيا قط . وكان يشبه الأشياء بعضها ببعض
في شعره فيأتي بما لا يقدر البصراء أن يأتوا بمثله . فقليل له يوما وقد
أنشد قوله :

كان مشار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه
ما قال أحد أحسن من هذا التشبيه ، فمن أين لك هذا ولم تر الدنيا
قط ولا شيئا فيها »

فيجيب بشار جوابا شديدا للتأثير في نفوسنا ، أو ينبغي أن يكون ،
لا يحتد فيه ولا يثور ، ظاهره أنه يشرح لهم المسألة التي سألوها ،
وحقيقته أنه يعزى نفسه عن مصابه :

« فقال : إن عدم النظر يقوى ذكاء القلب ويقطع عنه الشغل بما
ينظر إليه من الأشياء فيتوفر حسه وتذكو قريحته » . ثم ينشدهم قوله :
عميت جنينا والذكاء من العمى فجت عجيب الظن للعلم موثلا
وغاض ضياء العين للعلم رافدا لقلب إذا ماضيع الناس حصلا
وشعر كنور الروض لامت بينه بقول إذا ما أحزن الشعر أسهلا
محاولته تعزية نفسه في هذه الآيات ظاهرة ، والحسرة السكامة
فيها لا تحتاج إلى إمعان كثير لكي تتبينها . وقوله إذا ماضيع الناس فيه
حنق على القدر الظالم الذي حرمه نعمة أعطاها سائر الناس وهم لبلادهم
وغبائهم ليسوا بها جديرين . يعزى نفسه بثلاثة أشياء : أولها ما يعبر
عنه بقوله « عجيب الظن » وهو تعبير فذ ، ويعنى « بالظن » ما نسميه

الآن ملكة الخيال ، أى القدرة على التخيل الواسع العميق المبتكر .
ويصف خياله هذا بأنه خيال « عجيب » ، وهو وصف جد جميل ،
ويعلل هذا الوصف بأنه لما حرم البصر اضطر إلى اشتقاق صور فنية
أخرى لا تقوم على هذه الحاسة ليعبر بها عن خواطره فاستكشف
وسائل للتعبير جديدة غريبة على المبصرين . وثانى ما يعزى به نفسه أنه
جيد الذاكرة « للعلم مؤثلا » . ويشرح هذا فى البيت الثانى شرحا لاحتياج
بعده إلى تفصيل . أما ثالث عزاء له فهو شعره ، ومن الطريف أن
نلاحظ هنا أنه لا يفخر بشعره التقليدى الذى يجارى به فخامة القدماء
ومتانة أساليبهم ، بلى يفخر بشعره الحديث المجدد ، شعره السهل المتعمد
السهولة . فبشار إذن كان يدرك ميزته الحقة فى تاريخ الشعر العربى ؛
ليست فيما بارى به أساليب القدماء فلم يقصر عن شأوهم ، بل هى فيما
أتى به من شعر تجديدى سهل .

ولكن هذا كله محاولة فى التعزى ان دلت على شئ فعلى فداحة
شعوره برزئه . وهى نفس المحاولة التى نجدتها فيما يروون عنه
إذ يقولون : كان من أشد الناس تبرا بالناس ، وكان يقول : الحمد لله
الذى ذهب ببصرى . فقليل له : ولم يا أبا معاذ ؟ قال : لئلا أرى
من أبغض .

حتى أصدقاؤه حين يريدون أن يمازحوه :

« قال هلال الرأى ، وهو هلال بن عطية ، لبشار وكان صديقا
يمازحه : ان الله لم يذهب بصر أحد إلا عوضه بشئ » ، فما عوضك ؟

قال : الطويل العريض . قال : وما هذا ؟ : أن أراك وأمثالك
من الثقلاء . .

والأمير العربي عقبة بن سلم ، الذي مدحه بشار بمقطوعات من
من أروع المديح العربي ، والذي لم يبق لنا ذكره إلا ما قاله بشار فيه
من شعر أريحي تهزله النفوس ، يغضب على بشار لا لسبب سوى صمته
في مجلسه . فيقول له في رواية مالك يا أعمى لا تتكلم ! أعمى الله قلبك !
بل بنية له تؤذيه دون أن تدري . تقول له : يا أبت مالك يعرفك
الناس ولا تعرفهم . قال : هكذا الأمير يا بنية . تأمل ما في جوابه من
حزن مكظوم ومن حنان ورافة على طفلته الجاهلة .

ولنتختم هذا الموضوع البيت يستعر حسرة وسخطا ، بيت واحد
يضمه بشار كل تبرمه وغيظه ، وينفس به عن حنقه على القدر الذي
حرمه ما وهبه سلفة الناس . وهو البيت الوارد في القصة الآتية :

« كنا مع بشار فأتاه رجل فسأله عن منزل رجل ذكره له ، فجعل
يفهمه ولا يفهم ، فأخذ بيده وقام يقوده إلى منزل الرجل وهو يقول :
أعمى يقود بصيرا لا أبالكمو قد ضل من كانت العميان تهديه
حتى صار به إلى منزل الرجل ، ثم قال له : هذا هو منزله يا أعمى .
فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور .

دميم

من العميان من لا أثر لعماه في تشويه منظره ، فعيناه لاتزيدان على

أن تكونا مطبقتين كأنه قد أغمضهما ليستسلم إلى النعاس ، أو هما مفتوحتان عاديتا الشكل يخيل إليك أنهما تريان لولا خلوهما من البريق الحى الذى ينعكس فى العين المبصرة ، وفى كلا الحالين لا يكون للأعمى منظر كرىه تنفر منه النفس .

ولكن بشارا لنكد طالعه لم يكن من أحد الصنفين ، بل كان كما يروى القدماء « جا حظ المقلتين قد تغشاها لحم أحمر » ، فكان أقبح الناس عمى وأفظعه منظرا .

ولم يقتصر خطبه على هذا العمى الشنيع ، بل كان وجهه أيضا كرىه المنظر بما تغشاه من آثار الجدرى ، فان كنت رأيت وجه رجل مجذور فانك تعرف مبالغ الدمامة دون حاجة إلى الشرح .

وكان هذا أيضا لم يكن كافيا ، فان جسمه كان مفرط الضخامة زائد الطول . فاقرن الآن بين عماه السكرية وبين هذا الجسم الضخم الطويل ، يتبين لك كيف كره معاصروه منظره وخافوه ورعبوا منه ، ورأوه أقرب إلى « الوحش » منه إلى الانسان . فهو « كالبعبع » الرهيب الذى تخيف به الأمهات أولادهن : جثة عالية كأنها المارد الجبار ، ضخمة كأنها الفيل العظيم ، فان تطالعت إليها وجدت عليها وجهها مجدورا بشعا وعينين لانطيل فى وصفهما ..

ولسنا نلوم معاصريه لنفورهم الذوقى من مثل هذا الخلق ، فهو لسوء حظ صاحبه لا يثير إلا الاشمئزاز والبكراهية الجمالية ، ولو وجد فى عصرنا لنفرنا منه أيضا . ولكن المصائب الأجل هو أنهم تعدوا النفور الذوقى إلى النفور الخلقى ، فاعتقدوا أن مثل هذا « الوحش »

الممسوخ لا بد أن يكون « وحشا ، من الناحية الخلقية أيضاً . ولو كان بشار أعمى ضئيل الجسم أو عاديّه ، أو ضخّم الجثة مبصراً ، لما اجتمع في خلقه ما رأى فيه معاصروه من القبح والتخويف . أما وقد جمع بين الصفتين ، العمى السكريه والضخامة المفرطة ، فقد وصل سوء حظه إلى نهايته .

وقد طالما عيّر معاصروه بكراهة منظره . يروون عن أحد الكوفيين يقول « مررت ببشار وهو متبطح في دهليزه كأنه جاموس . فقلت له : يا أبا معاذ ، من القائل .

في حلتى جسم قتي ناحل لو هبت الريح به طاحا

قال : أنا . قلت : فما حملك على هذا الكذب ؟ والله إنى لأرى أن لو بعث الله الرياح التى أهلك بها الأمم ما حركتك من موضعك ! فقال بشار : من أين أنت ؟ قلت : من أهل الكوفة . فقال : يا أهل الكوفة لا تدعون ثقلكم ومقتكم على كل حال .

هذه القصة تبين شيئين : أولهما سوء أدب الكوفى ، يتعرض لبشار بالسباب دون إثارة أو داع وبشار هادىء قار فى عقر داره مسالم ، ويأخذ عليه أنه نظم معنى عاديا مألوفاً تراوحه الشعراء واستحلوه جميعاً ضخاما كانوا أو نحافا . وثانيهما صبر بشار وكبته غيظه واكتفاؤه بذلك التأنيب المظلوم ، وهو صبر كثيراً ما لجأ إليه .

بل أصدقائه أيضاً يشخنون فى إيلامه :

« جالس إلى بشار أصدقاء من أهل الكوفة كانوا على مذهبه .

فسألوه أن ينشد لهم شيئاً مما أحدثه ، فانشد لهم قوله :
أنى دعاه الشوق فارتاحا من بعد ما أصبح جحجا حيا
حتى أتى على قوله :

فى حلقى جسم فى ناحل لو هبت الريح به طاحا
فقالوا : يا ابن الزانية ، تقول ذلك وأنت كأنك فيل عرضك أكثر
من طولك ! فقال : قوموا عني يا بنى الزناء فانى مشغول القلب لست
أنشط اليوم لمشايتكم .
تأمل فى هذه القصة نفس الحقيقتين اللتين رأيتهما فى القصة
الماضية .

لكن هناك عاملا آخر أريد أن أشرحه الآن ، زاد من تبرم بشار
بعماه ودمايته . وذلك أن بشارا كان - كما سنرى بعد - شديد الشهوة
الجنسية ، ثم اجتمعت أسباب مختلفة كثيرة على جعل التلذذ الجفسى
ضرورة ألزم له مما تكون للفرد العادى . فكانت عاهته وقبحه عقبة
عسيرة دون استمتاعه بمن هو يهن من النساء فى أحيان كثيرة . وقد
سبب له هذا حمرة شديدة . ونسكتفى فى هذا الموضوع بقصة واحدة :
« كان النساء المنتظرات يدخلن إلى بشار فى كل جمعة يومين ،
فيجتمعن عنده ويسمعن من شعره . فسمع كلام امرأة منهن فعلقها
قلبه وراسلها يسألها أن تواصله . فقالت لرسوله : وأى معنى فيك لى
أولك فى ، وأنت أعمى لا ترانى فتعرف حسنى ومقداره ، وأنت
قبيح الوجه فلا حظ لى فيك ! فليت شعرى لآى شىء تطلب وصال مثلى

وجعلت تمزأ به في المخاطبة . فأدى الرسول الرسالة ، فقال له : عد إليها
فقل لها ... »

ويلى ذلك أبيات شديدة الشناعة^(١) ، ولست أحاول أن أبرر قول
بشار إياها أو أسامحه عليها . ولكن شناعتهما ينبغي ألا تنسينا سوء أدب
تلك المرأة ، فما كانت تحتاج إلى كل هذا البذاء والتجريح في رفض طلبه ،
لاحظ أولا أنها لم تكن امرأة شريفة ، فهذه المرأة «المتظرفة» لا ترفض
وصال بشار لأن هذا فسق محرم ، بل لأن بشارا أعمى قبيح الوجه .
ولو كانت امرأة شريفة لما أطالت كل هذه الأطالة على أى حال ، فانك
تكاد تراها في كلامها تنثني وتمخلع في وقاحة جنسية سافرة .

قالت امرأة لبشار ، وواضح من الرواية أنها بدأت دون ما سبب :
ما أدري لم يهابك الناس مع قبح وجهك ! فقال : ليس من حسنه يهاب
الأسد ! وهو جواب مفحم نرجو ألا تكون براعته ضاعت على تلك
المرأة الصفيقة .

والعجيب أن معاصريه لم ينكروا عليه أن يستمتع بوصال النساء
فحسب ، بل أنكروا عليه أن يحب وأن يتغزل في شعره وهو أعمى
وله شعر كثير يحاول أن يرد عليهم وأن يثبت لهم أن الأعمى يستطيع
تقدير الجمال والاهتزاز له ، وسنعرض لهذا الشعر بعد قليل .

مولى

كان بشار مولى اضطرده العرب كما اضطردها كل الموالى . وهذا

(١) أغاني دار الكتب ٢٠٢/٣ .

عنصر مهما نقل عن أثره في تكوين شخصيته فلن نبالغ . وهو بعد
عنصر يستطيع قرأى أن يفهموه دون صعوبة كبيرة إذا أخلصوا
التفكير ، فبعض الأمم العربية لا يزال يرزح تحت نير الحكم الأجنبي ،
وبعضها لم يتحرر إلا من مدة قريبة ، وجميعها لا يزال يذكر العسف
والمهانة التي يوقعها الحكم الأجنبي بالمحكومين . ولكن ما لقيه بشار
وسائر الموالى من إذلال العرب واضطهادهم الاجتماعى لا تزال تجد له
النظائر في المعاملة التي يلقاها الزنوج من الأمريكين في الولايات المتحدة ،
وتلقاها الأجناس الملونة من البيض في جنوب أفريقيا .

كان العرب في جاهليتهم قوما شديدي الرعونة والعنجهية ، يعدون
ما سواهم من الأمم « أعاجم » ، أى مخلوقات بكاء لا تتكلم بالكلام
البشرى ، ثم كانوا شديدي الاعتزاز بالنسب فيما بينهم . ثم جاءهم دين
سمح عادل يذهب عنهم حميتهم الجاهلية ويصدهم عن التفاخر بالأنساب .
ولقد كان قصد هذا الدين منذ بدايته أن يخلطهم بالأجانب في دعوته
الدينية ، فاحترس لهذا أعظم الاحتراس ومضى يثبطهم عن التعالى على
سائر الأجناس البشرية ، ويؤكد لهم تساوى هذه الأجناس كلها جميعا .
ولكن العرب بعد أن قبلوا هذا الدين المسوى لم يراعوا مبادئه بل
ضربوا بتعاليمه في هذه المسألة عرض الحائط وأبوا أن يصيروا مسلمين
وفضلوا أن يظلوا عربا .

أبى العرب أن يصيروا مسلمين وفضلوا أن يظلوا عربا . فالذى
لا شك فيه أبدا هو أن الاسلام دين التسوية ، التسوية التامة المطلقة
بين جميع معتنقيه ، لا يفرق فيهم بين لون ولون أو بين سلالة وسلالة .

وكل قارىء من قرائى يعرف الآيات القرآنية والأحاديث المتعددة التى ترد فى هذا الموضوع . من قوله تعالى إنما المؤمنون إخوة (لم يقل إنما العرب إخوة) . وقوله : إن أكرمكم عند الله أتقاكم (لم يقل أعر بكم) وقول رسوله الكريم كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى . وقوله المؤمنون متكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم (تأمل جيدا فى كل حكم من هذه الأحكام الثلاثة) . وغيرها من الآيات والأحاديث القاطعة التى لا تحتل تأويلا والتى ليس بعد تصريحها تصريح ، فالخطاب فى الآيات إلى البشر جميعا لا إلى العرب وحدهم ، والرسول الأمين على وحى ربه زاد الأمر تفصيلا باستعماله كلمة « آدم » ، فأحكامه تنطبق على بنيه جميعا ، ثم ختم حكمه باستعماله كلمتى « عربى » و « عجمى » فقطع آخر مبعث للشك .

فكيف أطاع العرب هذه التعاليم القاطعة ؟ هنا أواجه صعوبة شديدة ، منشأها الحقيقى — إن أراد القارىء منى المصارحة التامة — هو أن الكثيرين منا لا يزالون فى صميمهم متشبعين بالروح الجاهلية يغلبونها على روح الاسلام ، فينتصرون للعرب فى كل سلوك صدر عنهم وإن كانت به مخالفة بيينة لتعاليم الاسلام . فأغلب الفضائل التى لا نزال نعطيها الصدارة فى معيارنا الأخلاقى هى الفضائل الجاهلية ، من الأخذ بالشار ، واعتبار الشرف الرفيع لا يسلم من الأذى حتى يراق الدم على جوانبه (كم منا استشهد بهذا البيت الوحشى فى مختلف أطوار حياته !) والتفاخر بالكرم الجنونى المسرف الذى ينشأ عن التطاول الاجتماعى لا عن العطف القلبى الصادق ، وأمثالها مما كان الجاهليون

يعدونه فضائل ولا نزال نغلبها على مقاييس الاسلام من الصفح والعفو والمرحمة ، والتواضع والرفق وخفض الجناح والصوت ، والاقتصاد والتعقل في الانفاق والتوسط بين الغل السكامل والبسط السكامل (كم من أهل قرانا وباديتنا لا يزالون يسرفون في إكرام الضيف ويفخرون بهذا الاسراف وإن أصاب أهليهم بالضرر البليغ !) ولسكننا نكف عن هذا الحديث فلسنا في مجال الوعظ الديني ، إنما نكتفي بأن نقول : إن من أجود الأمثلة على أصرارنا على النعرة الجاهلية انحياز الكثيرين منا إلى صف العرب فيما صدر عنهم من ظلم الموالي .

لا شك عندي أن كثيرين من القراء سينفرون من هذا اللفظ الذي وصفت به العرب ، « الظلم » ، فهم قد قرأوا كثيراً وسمعوا كثيراً عن عدل العرب ، وسيبادرون إلى تذكيري بالوقائع التاريخية التي تبين أن العرب جلبوا إلى الأمم المفتوحة من العدل ما لم تعرفه قبل الفتح العربي بقرون طويلة . وكل هذه الوقائع ثابت لا شك فيه ، ولكن « الظلم » الذي أتحدث عنه وأعنيه هو نوع لا ينفيه « العدل » الذي تدل هذه الوقائع عليه ، فالذي أعنيه هو الظلم الاجتماعي ، أي معاملة العرب كأشخاص لأفراد الرعايا التي دخلت تحت نفوذهم كأفراد بشريين . أما العدل الذي تصوره تلك الوقائع التاريخية فهو العدل القضائي المحض . فلو قتل عربي أعجمياً لاقتص منه القاضي كما لو قتل عربياً مثله ، ولو أصابه بإيذاء جسمي ، أو سرق منه مالا ، أو غمطه في حق من حقوق الملك ، فشكاه الأعجمي إلى القاضي ، لأعطاه القاضي نصيبه الوافي من الانصاف دون أن يراعي أعجميته أو عروبة خصمه .

فهذا هو نوع العدل الذى حققه العرب ، وهو — بالمناسبة — نوع العدل الذى تفخر بعض الأمم الأوربية الحديثة بأنها حققته فى مستعمراتها ، ولكن هل حققوا العدل بالمعنى الشامل الذى أعنيه ؟ أكانوا يعاملون الأعاجم كأنهم بشر مساوون لهم فى البشرية ؟ أكانوا يلقونهم فى مجالسهم وحفلاتهم ومجتمعاتهم وأنديتهم على قدم المساواة ؟ أكانوا يعطونهم من الاحترام والأدب ما هو حق كل مخلوق بشرى يسمو على الدرك الحيوانى ؟

أما مبادئ الإسلام فى هذا الموضوع فقد رأيتها صريحة قاطعة ، فان أردت أن تعرف مدى استماع العرب لهذه المبادئ الرفيعة فيكفيك أن تقرأ فى الجزء الثانى من العقد الفريد الفصول الأربعة التى ينتهى بها كتاب اليتيمة فى النسب وفضائل العرب ، لترى شيئين : كيف عامل العرب الموالى ، سواء من العرب عامتهم وخاصتهم ، رعاعهم وفضلاؤهم ، سوقتهم وحكامهم . وكيف حاول بعض مفكرى العرب أن يؤولوا الآيات والأحاديث كي يتخلصوا من أحكام الإسلام فى التسوية المطلقة بين الأجناس بالسفسطة المحضة . وإلا فما ترى فى القطعة الآتية ؟ أليست سفسطة خالصة ؟ :

« رد ابن قتيبة على الشعوبية . قال ابن قتيبة فى كتاب تفضيل العرب : وأما أهل التسوية فان منهم قوما أخذوا ظاهر بعض الكتاب والحديث ، فقصوا به ولم يفتشوا عن معناه . فذهبوا إلى قوله عز وجل إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وقوله إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، وإلى قول النبي عليه الصلاة والسلام فى خطبته فى حجة الوداع

أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفأخرها بالآباء ليس
لعربي على أعجمي نحر إلا بالتقوى كلكم لآدم وآدم من تراب ، وقوله
المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسمى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم .
وإنما المعنى في هذا أن الناس كلهم من المؤمنين سواء في طريق الأحكام
والمنزلة عند الله عز وجل والدار الآخرة !! لو كان الناس كلهم سواء
في أمور الدنيا ليس لأحد فضل إلا بأمر الآخرة لم يكن في الدنيا
شريف ولا مشروف ولا فاضل ولا مفضول !!! الخ

أما معاملة العرب للموالى فيكفي في توضيحها أن أنقل هذه الفقرات
من العقد الفريد ، ويجب أن تلاحظ أنها ليست مظالم اخترعها الموالى
وألصقوها بالعرب ، بل هي ما يقره العرب أنفسهم بل هم يسوقونها
فخورين بهذا الاذلال الذي كآله الموالى :

« وقدم نافع بن جبير بن مطعم رجلاً من أهل الموالى يصلى به ،
فقالوا له في ذلك ، فقال إنما أردت أن أتواضع لله بالصلاة خلفه .
وكان نافع بن جبير هذا إذا مرت به جنازة قال من هذا ؟ فإذا قالوا
قرشى قال واقوماه ، وإذا قالوا عري قال وابلدناه ، وإذا قالوا مولى
قال هو مال الله يأخذ ما شاء ويدع ما شاء . وكانوا يقولون لا يقطع
الصلاة إلا ثلاثة : حمار أو كلب أو مولى . وكانوا لا يكتونهم بالكنى
ولا يدعونهم إلا بالأسماء والألقاب ولا يمشون في الصف معهم
ولا يتقدمونهم في الموكب ، وإن حضروا طعاماً قاموا على رؤوسهم
وأن أطعموا المولى لسنه وفضله وعلمه أجلسوه في طريق الخبز لئلا
يخفى على الناظر أنه ليس من العرب . ولا يدعونهم يصلون على الجنائز

إذا حضر أحد من العرب وإن كان الذي يحضر غريرا . وكان
 الخاطب لا يخطب المرأة منهم إلى أبيها ولا إلى أخيها وإنما يخطبها إلى
 موالها فان رضى زوج والا رد ، فان زوج الأب أو الأخ بغير مواله
 فسخ النكاح ، وان كان دخل بها كان سفاحا غير نكاح . . وروى أن
 عامر بن عبد القيس فى نسكه وزهده وتقشفه وإخباته وعبادته كله
 حمران مولى عثمان بن عفان عند عبدالله بن عامر صاحب العراق فى تشنيع
 عامر على عثمان وطعنه عليه ، فأنكر ذلك ، فقال له حمران لا كثر الله
 فىنا مثلك ، فقال له عامر بل كثر الله فىنا مثلك . فقليل له أيدعو عليك
 وتدعونه ؟ قال نعم يكسحون طرقنا ويخرزون خفافنا ويحكون ثيابنا ،
 فاستوى ابن عامر جالسا وكان متسكنا فقال : ما كنت أظنك تعرف هذا
 الباب لفضلك وزهادتك ، فقال : ليس كل ما ظننت أنى لأعرفه لأعرفه . . .
 يتجلى فى هذه الفقرات مقدار استهانة العرب بالموالى ، فهم لم يعاملوهم
 كأنهم خدم أو عبيد بل عاملوهم كأنهم حيوانات احط من جنس
 الانسان فسووهم بالحمار وبالكلب . ويتضح ان الذين اضطهدوا الموالى
 لم يكونوا رعاة العرب وخدم بل جلة علمائهم وأفاضل عبادهم ونسائهم
 ويتبدى أيضا أنهم لم يقصروا احتقارهم على سوقة الموالى بل أنزلوه
 برجال الفضل والعلم منهم . فإن يكن منا من يقر هذه المعاملة ويرى
 مطابقتها لروح الاسلام ونصوصه فهو متعصب أعمته النعرة البغيضة
 فآثر تعصبه الجاهلى على دينه الاسلامى .
 وإليك نصا آخر ينقله (١) الأستاذ أحمد أمين عن الأصفهاني :

(١) ضحى الاسلام الطبعة الثالثة ٢٦/١ ، ويرجع القارىء إلى هذا الفصل الجيد
 فيه أمثلة أخرى كثيرة .

« كانت العرب إلى أن جاءت الدولة العباسية إذا أقبل العربي من السوق ومعه شيء فرأى مولى دفعه إليه ليحمله عنه فلا يمتنع ، ولا السلطان يغير عليه . وكان إذا لقيه راكبا وأراد أن ينزل فعل . »
وتصور مولى جليلا فاضلا راسخ القدر في العلم يلقاه وضيع من أوشاب العرب فيجرعه هذه المهانة . تصور ما ذا يكون شعوره .

فإن أردت نظيرا لهذه المعاملة في عصرنا الحديث فاقرا القطعة الآتية أترجمها لك من مقالة نشرت بصحيفة انجليزية^(١) يتحدث فيها الكاتب عن اضطهاد الأوربيين للشعوب الملونة في جنوب أفريقيا ، فيصف جهود الحكومة في العزل التام بين الأجناس البيضاء والأجناس الملونة كأن هذه نجس يتحاشى البيض أن يدنسهم :

« محطات السكك الحديدية لها أبواب منفصلة وشبابيك للتذاكر منفصلة ، والقطارات به عربات معزولة ، والمحطات كراسي معزولة بل في دارى البرلمان كراسي معزولة أيضاً . وفي دور البريد شبابيك منفصلة وأكشاك التليفون أيضاً فيها فصل ، وفي العربات العمومية (أتوبيس) مقاعد معزولة . وغير الأوربيين لا يسمح لهم بالاستحمام على شاطئ البحر إلا في « بلاجات » منفصلة تكون في العادة قذرة ، ويحرم عليهم دخول البلاجات الواسعة الجميلة المخصصة للبيض . وفي الألعاب الرياضية

(١) New Statesman and Nation عدد ٥ أغسطس سنة ١٩٥٠

بجميع أنواعها يحشد غير الأوربيين في حظيرة منفصلة ولا يسمح لهم
أبداً بمباراة الأوربيين . . . كذلك الفنادق ، والمطاعم ، والمقاهي ،
وكل دور السينما الراقية ، ومعظم المسارح . تغلق أبوابها إغلاقاً تاماً
دون غير الأوربيين ، (١) .

والعجيب أننا إذ نقرأ هذا الكلام يغلي دمنا غضباً وسخطاً على
اضطهاد البيض للملونين ، ونصرخ بأعلى صوتنا ضد الاستعمار وآثام
الاستعمار وظلم الاستعمار ، ثم يقرأ بعضنا عن استدلال العرب لغير
العرب فيرضون به ويبررونه ولا يستشير فيهم غضباً ولا استنكاراً .
والحقيقة أنه إن كانت النعرة الجنسية قبيحة فهي كذلك بجميع أنواعها ،
والذي يستنكر نعرة الأوربيين ولا يستنكر نعرة العرب رجل ما أبعد
عن الانصاف .

ولكن دعك من الانصاف والعدل والإنسانية . ان رضى أحدنا
بانتهاء كما فهل يرضى أيضاً بتحدى قوانين الشريعة الإسلامية في مثل
المسألة التي تدور حولها القصة الشنيعة الآتية ؟ يرويها صاحب الأغاني
في سيرة الشاعر البدوي الأموي محمد بن بشير الخارجي (٢) :

(١) لو سمح لنا الفراغ لنقلنا أوصافاً أخرى كثيرة لما يحدث في جنوب أفريقيا وما
يحدث في أمريكا ، وهناك عزل أشنع لم يذكره الكاتب وهو الذي يحدث في الكنائس !
حتى في العبادة أمام الله رب الناس جميعاً لا يسمحون للزنجي أو الملون بمخالطة سادته البيض ،
ومن يدرينا لعل القس يقوم على منبره فيتلو عبارات الإنجيل في العدل والمساواة . ونظير هذا
فعلة العرب حين كانوا يقدمون العربي الغريب على المولى المسن في الصلاة على الجنائز .

(٢) أغاني ساسي ١٤٤/١٤

«قدم أعراب من بنى سليم أقحمتهم السنة إلى الروحاء فخطب إلى بعضهم رجل من الموالى من أهل الروحاء فزوجه ، وركب محمد بن بشير الخارجى إلى المدينة ووالها يومئذ إبراهيم بن هشام بن اسماعيل بن هشام بن المغيرة ، فاستعداه الخارجى على المولى فأرسل إليه إبراهيم وإلى نفر المسلمين ففرق بين المولى وزوجته وضربه مائى سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه . »

فيمدحه محمد بن بشير بقصيدة يقول فيها: قضيت بسنة وحكمت عدلا .
قضى بسنة وحكم عدلا ! أى سنة قضى بها وأى عدل حكم ؟
ولكن دعك من العدل فقائمه قد تختلف وقد يتجادل فيها وخبرنى هل يجيز الإسلام مثل هذا التفريق فى زيجة شرعية صحيحة ؟ أو يحرم الإسلام زواج العربية المسلمة بالمولى المسلم مجرد أنه مولى ان لم تكن هناك مبطلات أخرى للزواج ؟ بل نظير هذا تجده فى القانون الذى سنته حكومة جنوب أفريقيا فى السنة الماضية تحرم فيه زواج البيض والملونين .
ولو سمح لى حجم الكتاب لملاآت خمسين صفحة أخرى بأمثال هذه الشواهد ، ولستنى أكتفى بما تقدم وبإحالة القارىء إلى المرجع الذى ذكرته فسيجد فيه أموراً أخرى .

كان من الموالى أفراد استكانوا للظلم العربى ، كما أنه كان منا أفراد رضوا بالظلم الأوروبى وصاروا للاستعمار أذنانا . ولستنى الموالى كان منهم أيضاً رجال أبت كرامتهم البشرية أن يعاملوا كالكلاب والحمير ، أبوا أن يذلوا لهذا التعدى فثاروا عليه ولقوا فى ثورتهم هذه صنوف الاضطهاد . ومن هؤلاء بشار .

وهنا أنبه القارىء إلى أن جزءاً عظيماً من الكراهية التي أثارها
بشار في نفوس معاصريه كان راجعاً إلى اصراره على المحافظة على عزته
البشرية، ورفضه أن يرضخ لتلك المهانة.

ولا بد أن يدرك القارىء أن بشاراً لم يبادى العرب بالخصومة
والتعالى، بل هو قد بذل جهداً كبيراً في مجاملتهم إلى الحد الذي ترضى
به كرامته، فلما اتضح له من طول ازدراءهم به وتغطرهم عليه أنهم
أن يكتفوا بهذا، إذ ذاك ثار وأعلن ثورته.

فالقدمات يروون له شعراً يحامل فيه العرب ولا يطعن فيهم. يروى
راوية بشار عنه :

قال . لما دخلت على المهدي قال لي : فيمن تعتد يا بشار ؟ فقلت :
أما اللسان والزي فحريان ، وأما الأصل فعجمي ، كما قلت في شعري
يا أمير المؤمنين :

ونبتت قوماً بهم إحنة يقولون من ذا وكنت العلم
ألا أيها السائل جاهدنا ليعرفني أنا أنف الكرم
نمت في الكرام بنى عامر فروعى وأصلى قریش العجم
فإني لأغنى مقام الفتى وأصبي الفتاة فما تعتصم

لاحظ أولاً هذا السؤال الذي يجبه به المهدي دون ما سبب :
فيمن تعتد يا بشار . وأقل ما يقال فيه أنه سؤال عديم اللباقة ، فهو
يعرف جيد المعرفة أنه مولى ، هذا أن لم يكن يتعمد النيل منه ، وهو
فرض قد يؤيده مخاطبته إياه باسمه دون كنية . ثم لاحظ تأدب بشار

في الجواب ، ومجاملته العرب في رده الثرى وفي شعره ، يعتز بأصله
الأعجمي ولكنه لا يغمط مواليه العامرين حقهم من الشاء ثم أقرأ بقية
القصة (١) لتدرك مدى تمسكه بعزة نفسه حتى أمام المهدي لا يخشاه ،
حتى هابه فلم يرد عليه .

ويروون له شعراً آخر يمدح فيه قيس عيلان ، والعجيب أنهم
يسوقون هذا الشعر شاهداً على تلونه ونفاقه ! ولكن بشاراً ما فتئت
تحدث له أمثال الحادثة الآتية :

« دخل أعرابي على مجزأة بن ثور السدوسي وبشار عنده وعليه
بزة الشعراء . فقال الاعرابي : من الرجل ؟ فقالوا : رجل شاعر .
فقال : أمولى هو أم عربي ؟ قالوا : بل مولى . فقال الاعرابي : وما
للموالى وللشعر ! فغضب بشار وسكت هنيهة ، ثم قال : أتأذن لي
يا أبا ثور ؟ قال : قل ما شئت يا أبا معاذ . فأنشأ بشار يقول :

خليلي لا أنام على اقتسار	ولا آبي على مولى وجار
سأخبر فاخر الأعراب عني	وعنه حين تأذن بالفخار
أحين كسيت بعد العرى خزا	ونادمت الكرام على العقار
تفاخر ، يابن راعية وراع	بني الأحرار حسبك من خسار
وكنيت إذا ظمئت إلى قراح	شركت الكلب في ولغ الأطار
تريغ بخطبة كسر الموالى	وينسيك المكارم صيد فار
وتغـدو للقنافذ تدريها	ولم تعقل بدراج الديار

وتتشع الشمال للابسيها وترعى الضأن بالبلد القفار
مقامك بيننا دنس علينا فليتك غائب في حر نار
وفخرك بين خنزير وكلب على مثلي من الحدث الكبار

فقال مجزأة للأعرابي : قبحك الله ، فأنت كسبت هذا الشر لنفسك
ولأمثالك .

هذه قصيدة تقطر سما وتلظى غضباً . ولكن أى غضب هو؟ غضب
النفس الالية لا تقبل الهوان ، والرجولة الحققة ترفض الأذلال . لاحظ
أولاً من البادية في هذه القصة . هذا بشار يجلس في مجلس الأمير
العربي آمنًا مسالماً ، فيدخل عليه ذلك الأعرابي الجلف الأرعن ويأبى
إلا إساءته دون ما استفزاز . ثم لاحظ أدب بشار ، يستأذن الأمير
العربي أولاً ، فاذا أذن له قصر ذمه ، حتى في هذه الحالة النفسية الهائجة ،
على الأعراب ولم يعمم الحديث عن العرب .

فان أردت أن تفهم عاطفة هذه القصيدة حق الفهم فلا بد أن
تذكر أن بشاراً لم يكن مولى عادياً ، بل كان مفكراً ممتازاً ومثقفاً
واسع الثقافة ، وكان شاعراً في اللغة العربية من أقطاب شعرائها دون
ما شك . والذي لا شك فيه أن إتقانه للسان العربي . وبصره باللغة
وأسرارها ، وامتلاكه للأسلوب العربي وقدرته على تصريفه ، وعلمه
بتاريخ الأدب العربي وحفظه لنثره ولشعره ، كان أعظم بكثير مما
أتيح لتلك الأعرابي الجاهل الشرس المعتز بعرويته . ولعل بشاراً في

اتقانه للثقافة العربية الأصلية أجدر بأن يعتز بها من ذلك الأعرابي
القح وإن كان أصله نصف فارسي ونصف عربي .

وهذا هو الذي يغيط بشاراً أعظم الغيط ، أن يفخر عليه مثل
هذا البدوي الجاهل الخشن . لو فخر عليه عربي مثقف لما آلمه بهذه
الدرجة .

لا جرم أن ينتهي بشار إلى الحقد على العرب جميعاً ، وإعلان
ثورته عليهم ، والتبرؤ من ولائهم ، ودعوة سائر الموالى إلى مثل هذا
التبرؤ ، فيقول هذه الآيات الرفيعة :

أصبحت مولى ذى الجلال وبعضهم مولى العريب نخذ بفضلك فانخر
مولاك أكرم من تميم كلها أهل الفعال ومن قریش المشعر
فارجع إلى مولاك غير مدافع سبحان مولاك الأجل الأكبر

لست أعرف في الشعر العربي كله ما يفوق هذه الآيات في جلالها ،

ولا أعرف ما يقاربها في مناداتها بالكرامة الإنسانية واصرارها على
التمسك بالعزة البشرية . لاحظ قول بشار « أصبحت » ، فهو يدل على

أنه لم يبدأ بمعاداة العرب إنما انتهى إلى هذا بعد أن أعيته محاولته في
مجاملتهم والاحتفاظ بمستلزمات المودة والتحاب معهم . ولاحظ أنه

هنا ليس يفخر — كما فخر في أبيات سابقة — بأصله الفارسي ، إنما
يفخر بإنسانيته ، يفخر ببشريته العزیزة التي وهبها له الله . فهو هنا

لا يغلب فرساً على عرب ، إنما ينادى بالكرامة الإنسانية جمعاء ،
ولا يدعو الموالى إلى انتباذ ولاء العرب كي يعتزوا بأصلهم الفارسي ،

إنما يدعوهم إلى أن يعتزوا ببشريتهم ، هذا القبس السامى الذى تكرم
به عليهم خالقهم الله جل وعلا هو وحده المولى (١) .

مضطهد

لن أحاول فى دراستى هذه تبييض صفحة بشار من كل عيب .
إنما الذى أريد أن أدعيه هو أن بشارا قد أسىء إليه أكثر مما أساء هو
إلى غيره ، وأنه لو لقي معاملة خيرا مما لقي لتغيرت شخصيته تماما ،
فالحقيقة التى ينبغى أن يدركها القارىء الآن هى أن بشارا ظل طول
حياته — منذ صباه إلى مماته — مضطهدا ، بكل ما تحمل هذه الكلمة
من معان .

(١) هناك حقيقة هامة أحب أن أنهى إليها القارىء . وهى أن اضطهاد العرب للموالى
لم ينته باقضاء الحكم الأموى ، فقد بقى بعد هذا زمنا طويلا برغم أن السطة الفعلية
زالت من أيديهم باقضاء ذلك الحكم . والحوادث التاريخية التى أشيرنا إليها وسقنا
بعضها تشهد بذلك ، وسببه ليس صعب الفهم ، فإن العرب لم يفهموا المغزى الحقيقى
لانهيار الحكم الأموى بمجرد حدوثه ، بل ظنوه مجرد تحول الحكم من بيت قرشى إلى
بيت قرشى آخر . فظلوا فى غطرستهم واضطهادهم حتى حوالى عهد المأمون وهو العهد الذى
تحقق فيه قدر عظيم من المساواة الجنسية ، وشجعهم على هذا أن الخفاء العباسيين الأول
كانوا عربا تعصبوا للعرب ؛ وإنما نحن الآن فى دراستنا التاريخية المتعمقة الذين نستطيع
أن نفهم المغزى الحقيقى لزوال الحكم الأموى . ونظير هذا تجده فى العصر الحديث فى
الطرسة التى لا تزال تصدر عن كثير من البريطانيين ، لا يفهمون بعد أن عهد التسلط
البريطانى قد انتهى ، وأن أمباطوريتهم قد بدأت فعلا فى الانحلال . فبشار إذنت لم
يضطهد من أجل أصله الأعجمى فى زمن الأمويين وحدهم ، بل ظل يضطهد فيما عاشه
من حياته تحت العباسيين .

نقرأ مثل هذه القصة :

« عن الحكم بن مخلد بن حازم قال : مررت أنا ورجل من عكل من أبناء سوار بن عبد الله بقصر أوس . فاذا نحن ببشار في ظل القصر وحده ، فقال لي العكلي : لا بد لي من أن أعيث ببشار ، فقلت له : ويحك ! مه لا تعرض بنفسك وعرضك له . فقال : اني لا أجده في وقت أخلي منه في هذا الوقت . قال : فوقفت ناحية ودنا منه فقال : يا بشار ! فقال : من هذا الذي لا يكتيني ويدعون باسمي ؟ قال : سأخبرك من أنا ، فأخبرني أنت عن أمك ، أولدتك أعني أم عميت بعد ما ولدتك ؟ قال : وما تريد إلى ذلك ؟ قال : وددت أنه فسح لك في بصرك ساعة لتنظر الى وجهك في المرأة ، فعسى أن تمسك عن هجاء الناس وتعرف قدرك . فقال : ويحكم ! من هذا ؟ أما أحد يخبرني من هذا ؟ فقال له : على رسلك ! أنا رجل من عكل وخالى يبيع الفحم بالعبلاء ، فما تقدر أن تقول لي ؟ قال : لا شيء ، اذهب بأني أنت في حفظ الله . »

فنقول : فرد من سفلة الناس يعبت بأعني كما يعبت أمثاله بالعميان ولا يستشهد به على كل بيعة بشار . ولما كنا نعود فتأمل القصص الأخرى التي روينها في الصفحات الماضية ، وتأمل أمثالها مما تفيض به سيرة بشار ، فننتهي مرغمين إلى أن نقرر أن الاضطهاد الذي لقيه بشار كان اضطهادا عاما لقيه من مختلف طبقات الناس في عصره . اضطهده سفلةهم لعماءه ، واضطهده جميعهم لقبحه وفضاعة منظره ، واضطهده العرب منهم لمولويته واصراره على كرامته ، واضطهده جميع

المسلمين لما اعتقدوه فيه من الزندقة والاحاد . ورجل يلقى مثل هذه
المعاملة طول حياته يندرجدا أن يحتفظ على الرغم منها بعاطفة الصفيح
والمساحة ، بل يغلب عليه أن يصير عظيم المرارة شديدا الحقد على
مجتمعه ، وان يتسمم شعوره نحو الانسانية عامة . فان انتهى الى مثل
هذا فهل نستطيع منصفين أن نلومه ؟

مبخوس

ولكن الاضطهاد الذي لقيه بشار لم يقتصر على كرامته كرجل ،
بل تعداه إلى منزلته كشاعر . وهذا ادعاء مني سيد هاشم الكثيرين ،
فهم يقرأون عن اعجاب القدماء بشعره واعترافهم له بتقدمه طبقات
المحدثين فيظنون أنه نال هذا التقدير الاجماعي في حياته . ولكننا ان
أنعمنا النظر في هذه الأحكام فسنجد كثرتها الغالبة مما قيل بعد وفاته ،
أما في حياته فقد ظل مبخوسا ، فان كان نال نصيبا من التقدير في أواخر
أيامه ، ولم يكن قط باجماع العلماء ، والذين سلبوا له بشيء مما يستحقه
انما فعلوا ذلك مضطرين إذ تخوفوا هجماءه ، فشاؤهم ثناء غير مخلص .
وقد كان لذلك البخس الذي مني به شعر بشار أسباب متعددة .
منها أن علماء عصره لم يستطيعوا التفريق بين شخصيته البغيضة إليهم
وبين قيمة شعره في ذاته ، وهذا عامل لا نستطيع أن نسرف في لومهم
من جهته ، فكثيرون من عظام الأدباء لا يظفرون بالتقدير الصحيح
الذي يستحقونه في حياتهم ، والحزازات الشخصية كثيرا ما تغطي على
نظرة المعاصرين ، نجد هذا لا في الأدب العربي وحده بل في آداب

أخرى كذلك ، بل نقادنا الأحياء لا يزالون يظلمون بشارا برغم
انقضاء تلك الحزازات وزوال أسباب العداوة الشخصية ، فما بالك بمن
عاشروه وآذوه ونالهم منه الأذى .

① ومنها النزعة التجديدية الشديدة التي تجلّت في الكثير من شعره ،
وهي نزعة لم ترض أئمة اللغة والأدب فقد كانوا محافظين ازعجهم هذا
الأسلوب الجديد المبالغ في السهولة وظنوه ركافة وضعفا ، فالحق أنك
ان تدبرت سيرة بشار وجدت الرواج الذي لقيه شعره في عصره كان
مقصورا على اوساط العامة والشبان والنساء لم يتعدّها إلى اوساط
العلماء المتخصصين في الرواية والشعر . بل لعل رواجه بين العامة زاد
من انتقاص العلماء له ، اما هؤلاء العلماء فقد حملوا عليه حملة طويلة
وكثرت انتقاداتهم لما اعتقدوا فيه من التهاوت والحشو والركافة ، ولم يغير
بعضهم رأيه إلا بازاء هجوم بشار كما ذكرنا . ولم يبدأ هؤلاء العلماء
في تغيير رأيهم عن إخلاص واقتناع إلا بعد وفاته ، حين زالت شخصيته
البعيضة التي طالما أقضت مضاجعهم ، ومضى زمن كاف يتروون فيه
وينعمون النظر في شعره ويستكشفون ميزات الحقّة ويقبلون تجديداته
ويتغلبون على عدائهم الغريزي لاسكل جديد . بل بعد وفاته بزمن طويل
ظل بعضهم يعيب شعره ويرفضه لخروجه عن جادة الأسلوب البدوي
المتين ، فيروى أن اسحق الموصلي كان لا يعتد بشار ويقول هو كثير
التخليط في شعره وأشعاره مختلفة لا يشبه بعضها بعضا . ومعنى هذا أنه
رفض شعر بشار التجديدي ولم يقبل إلا قصائده التي يقلد فيها أسلوب
البدو . ويروى أيضا أن اسحق هذا كان يقدم على بشار مروان

ابن أبي حفصة ويقول هذا أشد استواء شعر منه وكلامه ومذهبه أشبه
بكلام العرب ومذاهبها . وليس بعد جملته هذه حاجة إلى التذليل على
سبب رفضه لشعر بشار ، وهو النزعة التقليدية المسرفة . ومن الطريف
أن نرى أن اسحق كان يرفض أيضا أبا نواس ، وهو المجدد الثاني
العظيم في الشعر العربي ، فيروى أنه « كان لا يعد أبا نواس البتة ولا يرى
فيه خيرا » .

(٤) ومنها أنه مولى ، ولم يكن العرب قد أدركوا بعد أن الثقافة العربية
بجميع فروعها لم تعد ارتنا موقوفا على العرب الأقحاح بل صارت ملكا
مشاعا لكل الأجناس التي تعلمت العربية ، ولا هم أدركوا أنه قد بدأ
عهد سيكون عظام شعرائه وأدبائه من الموالى ، أو أن معظم رجال
الفكر والفلسفة والعلوم سيكونون من غير العرب . ظن بعض
معاصري بشار أنه بكونه مولى يستحيل عليه أن يبرز في الشعر والأدب
تبريز العرب . وهذا واضح في القصة التي رويها عن الأعرابي يقول
وما للموالى وللشعر . وقد كانت عقيدتهم هذه متولدة عن ظنهم أن في
الأصل الجنسى ميزة طبيعية تقرر مدى اتقان الفرد للغة ، لم يدركوا
أن الأمر كله محصور في مدى تعلم الفرد للغة وتدريبه منذ طفولته على
أسلوبها الصحيح . وهذا منهم ظن لا نستطيع أن نبالغ في لومهم عليه
فالكثيرون منا في عصرنا هذا لا يزالون يعتقدون أن للأصل الجنسى
ميزات ثقافية بطبيعة الوراثة . ومن الطريف أن صاحب الأغاني يروى
خبراً عن رجل يتعجب من صحة شعر بشار وسلاسته من الأخطاء
اللغوية برغم أن العرب أنفسهم أتوا في أشعارهم بألفاظ مشكوك

في صحتها . فأجابه بشار : « ومن أين يأتي الخطأ ؟ ولدت هاهنا ونشأت
في حجبور ثمانين شيخاً من فصحاء بني عقيل ما فيهم أحد يعرف كلمة
من الخطأ ، وإن دخلت إلى نسائهم فمساؤهم أفصح منهم ، وأيفعت
فأبديت (١) إلى أن أدركت ، فمن أين يأتي الخطأ ! ، ونحن في ضوء
علمنا الحديث نسرع إلى قبول احتجاجه هذا ، فالذي ينشأ هذه النشأة
وتتوفر له هذه الفرص لتعلم الأسلوب العربي الصحيح يستطيع أن
يتقنه بما لا يقل عن أتقان أهله وأن يكن أصله غير عربي .

على أن أعجب الأسباب التي حملت معاصريه على الانتقاص من
شعره هو عماه . إذ ظنوا أن عاهته تقصر بالضرورة شأوه عن شأو
المبصرين ، واعتقدوا أنه إن اجتمع شاعر مبصر وشاعر أعمى فالمبصر
بالضرورة أعلى كعباً في الشعر ، فالذي يصف ما يرى يكون أقدر وأعظم
أتقانا من الذي يصف ما لا يرى . ثم تأملوا فوجدوا معظم شعر بشار
في الغزل ، فازدادوا في عقيدتهم هذه يقيناً : أو ليس من البديهي أن
الغزل فن لا يستطيع أن يجيده إلا الذي يرى النساء ويبصر جمالهن ؟
بل بعض النسوة اللاتي أحبن بشار استنكرن عليه أن يحبن ويتغزل
فيهن وهو لا يراهن .

ولبشار شعر كثير يحاول فيه بإلحاح وتكرار أن يصحح هذه
الفكرة الخاطئة ، وأن يثبت أن الأعمى يستطيع أن يتصور وأن
يؤدي تصوره هذا . فالأعمى لا يحرمه عماه ملكة الخيال ، بل له ملكة

(١) أخرجت إلى البادية .

خيال كما للبصر ملهكة خيال ، وإن كانت بالطبع مختلفة . فالخيال عند
المبصر مشتق معظمه من البصر والصور المنظورة . ولكن البصر ليس
كل شيء ، فهناك احساسات أخرى وإن يكن هو أعظمها . فالأعشى
عنده حاسة السمع وحاسة الشم وحاسة اللمس والذوق ، والأعشى
يكون لنفسه من هذه الإحساسات صورة ذهنية تتداعى إلى خيلته حين
يفكر في شخص أو في شيء كما يتداعى إلى خيلة المبصر منظر ذلك
الشخص أو الشيء . وهذه الصورة الذهنية تكون جميلة إذا فكر في
امرأة جميلة وقبيحة إذا فكر في امرأة قبيحة ، وهو يستطيع أن يصف
هذه الصورة ويحاول ادائها وتحديد بالألفاظ .

ثم يناقش بشار مسألة الحب خاصة . هل صحيح أن المبصر وحده
يستطيع تقدير جمال النساء وبالتالي يستطيع أن يغرم بهن ؟ بل الأعشى
أيضا يستطيع أن يقدر المرأة الجميلة ، بما يصل إلى إحساساته من
صوتها وعطرها ومس جلدها وذوق شفتيها ، دعك من استماعه لو صف
المبصرين لها واستطاعته تمثل هذا الوصف تمثلا خاصا . ويضيف بشار
إلى هذا كله حقيقة لا شك فيها : أن البصر لدى المبصرين أنفسهم ليس
له قيمة كبيرة في تقدير حبهم للمرأة أو نفورهم منها . فكم يحبون نساء
لسن جميلات الصورة ، وكم يظنون فاترين امام نساء رائعات المنظر ،
فالحب لا يمكن تفسيره بجمال المحبوبة المنظورة ، بل هو نزعة وجدانية
ولطفة جسدية وروحية إلى الأنثى تتكون من عناصر كثيرة ليس البصر
سوى أحدها .

الخيال يكره
سيفه
أعشى

وشعر بشار في هذا الموضوع مشهور وقد جمعه نقادنا المحدثون ،
فنكتفي هنا ببعضه . تأمل قوله :

يا قوم أذنني لبعض الحى عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم الأذن كالعين توفى القلب ما كانا
هل من دواء لمشغوف بجارية يلقي بقلبانها روحا وريحانا

فقوله : الأذن كالعين توفى القلب ما كانا ، معناه أن السمع مصدر
للمعرفة كما أن البصر مصدرها . فالوجودات — ويعبر عنها بقوله :
ما كانا — تصل إلى ملكتنا العارفة لا عن طريق العين وحدها بل عن
طريق الأذن أيضاً . ويستعمل « القلب » حيث نستعمل نحن الذهن
أو العقل . وقوله : يلقي بقلبانها روحا وريحانا ، معناه : صحيح أنني
لا أستطيع أن أراها ولكن لها جمالا كثيرا آخر خلاف الجلال
المنظور يصلني عن طريق مالى من حواس .

وقوله :

قالت عقيل بن كعب إذ تعلقها قلبي فأضحى به من حبها أثر
أنى ولم ترها تهذى ؟ فقلت لهم ان الفؤاد يرى ما لا يرى البصر
فالشطر الأخير معناه أن الفؤاد ، أو كما نقول نحن الآن العقل
أو الذهن ، يستطيع أن يتقبل إحساسات أخرى غير الإحساس البصرى ،
وأن يتخيل موجودات لم يؤدها إليه البصر .

وقوله :

يزهدنى فى حب عبدة معشر قلوبهمو فيها مخالفة قلبي

فقلت دعوا قلبي وما اختار وارضى فبالقلب لا بالعين يبصر ذو الحب
فما تبصر العينان في موضع الهوى ولا تسمع الأذنان الا من القلب
وما الحسن إلا كل حسن دعا الصبا وألف بين العشق والعاشق الصب
الآيات الثلاثة الأولى منها واضحة لا تحتاج إلى شرح . أما البيت
الأخير فيزيد على كل الحجج الماضية حجة جديدة ، هي هذه : ليس الحسن
الجسدى هو كل شئ . فى الحب ، فعاطفة الحب لا يستشيرها مجرد جمال
المرأة الجسمانى ، منظورا كان أو مسموعا او ملموسا او مشموما ، إنما
تستشيرها دواع أخرى غريبة مهمة ، من نشوة الشباب إلى الشباب ،
وما ينتج بين المحبوبين من ألفة روحية عجيبة تزيد على مجرد الاستمتاع
الجسدى . فدعاء الشباب إلى الشباب ، وحنين الحبيب إلى الحبيب ، وما
إلى هذا من دوافع وجدانية تكون بين المحبين ذلك الشعور المعقد العميق
الذى نسميه الحب ، والذى ليس الاستمتاع النظرى ، بل ليس الاستمتاع
الحسى جميعه ، سوى عنصر واحد من عناصره .

قد نكون أطلنا فى هذا الموضوع وان يكن خارجا عما نحن بسبيله
الآن من تحقيق شخصية بشار ، ولكننا اضطررنا إلى هذه الأطالة حتى
نؤكد هذه الحقيقة الهامة التى كان لها أثر كبير فى تكوين شخصيته ، وهى
أنه لم يفز فى حياته بما اعتقد أنه جدير به من التقدير الأدبى . فشاعر
يلجأ إلى كل هذا الاحتجاج الطويل المتكرر لا بد أنه عانى كثيرا من
انتقاص الناس لشعره بسبب عماء .

حساس

الحقيقة التي غابت على معاصري بشار ، والتي غابت على ناقدينا المحدثين ايضاً ، هي ان بشاراً برغم غلاظة جسمه وضخامة جثته كان عظيم الحساسية . اما معاصروه في نقص معلوماتهم وثقافتهم فقد نسا محهم ، فهم رأوه ضخماً هائل الجثة كأنه الفيل او كأنه الجاموس ، فظنوا ان غلاظة الجسم تتبعها غلاظة الحس وبلادة الشعور . واما ناقدونا فلا نسا محهم ، فان لهم من وسائل العلم الحديث ما يريهم ان هذا لا يستتبع بالضرورة هذا . فكم من ضخم رقيق الشعور . وكم من نحيل فاتر بليد الحس .

أما حساسية بشار فكانت في قدر منها الحظ الذي يتاح لكل أعشى من ارهاف الاحساسات الأخرى إذ يضطر الى استعمالها مستعجلاً بها عن حاسة النظر فتتمو بالاستعمال المكثف . وهذا يتجلى في القصص الآتية التي تروى عنه :

« مر ابن أخى بشار به ومعه قوم ، فقال لرجل معه : من هذا ؟ فقال : ابن أخيك . قال : أشهد أن أصحابه أنذال . قال . وكيف علمت ؟ قال . ليست لهم نعال . »

ولكنك لا تقدر مبلغ دلالة هذه القصة على دقة حسه ان لم تعرف أن النعال التي كان يلبسها العرب لم تسكن كما حذيتنا الخليطة الثقيلة التي يسمع لها صوت لا يخطأ ، بل كانت رقيقة خفيفة المس جداً تكاد لاتزيد عن وقع القدم الخافية . كذلك الطرق التي كانوا يسيرون عليها في مدنهم ، لم تسكن كطرقنا المعبدة التي يرن عليها صوت القدم ،

بل كانت رملية وعثة تمتص معظم الصوت . فبشار برغم هذا يسمع صوت أقدامهم فيستطيع أن يحكم بأنهم يمشون حفاة لانعال لهم .

وقصة أخرى :

✕ « عن أبي دهمان الغلابي قال : مررت ببشار يوما وهو جالس على بابهِ وحده وليس معه خلق ويده مخرصة يلعب بها وقدامه طبق فيه تفاح وأترج . فلما رأيته وليس عنده أحد تافت نفسي إلى أن أسرق ما بين يديه . فجئت قليلا قليلا وهو كاف يده حتى مدت يدي لأتناول منه . فرفع القضيب وضرب به يدي ضربة كاد يكسرها . فقلت له : قطع الله يدك يا ابن الفاعلة ! أنت الآن أعمى ! فقال : يا أحمق « فآين الحس ! » (١) .

والقصة التي رويناها عن بشار يهدي فيها مبصرا إلى منزل لا يعرفه تدل أيضا على هذا النصيب من الحس الدقيق الذي ينمو في معظم العميان تعويضا عما فقدوه . ولكن الارهاق الحسي لا يكون كل شيء . بل يتبعه في العميان ارهاق نفسياني ، فتجد أغلبهم على درجة من قابلية التأثير والانفعال أكبر مما يتوفر لمعظم المبصرين . وهذا ما يغفل عنه المبصرون دائما ، لا يدركون ان الأعمى يتأذى من أشياء كثيرة يقبلها المبصرون دون تضرر كبير . فالمبصر إذا سقط من يده شيء ، أو أخطأ وضع شيء على مائدة فهوى وتحطم ، أو أخطأ تقريب كوب من فمه فأهرق بعض ما فيه ، أو تعثر في حصاة في الأرض ، أو حدث له ما يشابه هذه الحوادث التي تلم بنا في كل يوم ، لم يهتم لها كثيرا وينساها بعد دقائق قليلة ، أما الأعمى فهي تؤلمه ايلاما لا يستطيع المبصر أن يقدره

(١) ولا تنس أن تتأمل في هذه القصة مثلاً جديدا لاضطهاد الناس إياه بسبب عماءه .

تمام التقدير . على أننا لم نسق إلا أمثلة قريبة سهلة القبول ، ولكن تجارب الأعمى في حياته لا تقتصر على أمثالها بل تتعداها إلى أشياء كثيرة لا تقوم مباشرة على حاسة النظر .

والعجيب أن المبصرين لا يقتصر الخطب فيهم على أنهم لا يدركون أن الأعمى يزيد عليهم حساسية ، بل هم يظنون أنه لا بد أن يكون بسبب عماه أقل قدرة على التأثير العاطفي والانفعال منهم ! وهذا في أحيان كثيرة هو سبب إرهابهم للعميان ، لا يصدر هذا عن تعمد للايذاء في كل حال ، بل يصدر أيضا عن ظن بأن الأعمى لن يتأثر منه كما لو كان مبصرا . ويزيد من رسوخ هذه الفكرة عندهم أن العميان كثيرا ما يضطرون بسبب عجزهم عن الانتقام إلى كظم غيظهم والتجمل بالصبر ، بل يضطر بعضهم إلى الابتسام فيزيد المبصرين اعتقادا بأنه ليس في حساسيتهم وتأثرهم .

ولكن حساسية بشار كانت أعظم من هذا القدر المعهود لدى العميان ، إذ ضاعفها شعوره بدمامة خلقتة وغلاظة جسمه وكرهية الناس لهذه الصفات ممزوجة بعماه . وقد قلنا من قبل أنه لو كان أعمى وسيم الوجه أو عادى البنية لما ناله كل ما ناله من الأذى . أضف إلى هذا كله مولويته وحساسية أبيه وولادته على الرق . لا جرم أن بلغت حساسية بشار حدا زائدا ، ونفس هذه الحساسية هي ما أخطأ القدماء فهمه وظنوه جبنا ، وتبعهم في خطأهم نقادنا المحدثون ، وهو ليس جبنا بل هو تأثر زائد من خوف الهجاء بسبب عماه . فالقصة التي رويناها عن صانع الجوام الذي هدده بأن يصوره على باب داره بخلقته

الشذیعة ، ومن خلفه قرد ، لیس ازعاج بشار فیها صادرا عن جبن بل
عن احساس زائد بمقدار دمامته وتأذ مفرط من أن یهاجم من هذه
الناحية . ومن هذا الصنف أيضا القصتان التالیتان أن أحسنت
تفهمهما :

« كان بشار يعطى أبا الشمقمق فی كل سنة مائتی درهم . فأتاه
أبو الشمقمق فی بعض تلك السنین فقال له : هلم الجزية یا أبا معاذ .
فقال . ويحك ! أجزية هی ؟ قال : هو ما تسمع . فقال له بشار یمازحه :
أنت أفصح منی ؟ قال لا . قال : فأعلم منی بمثالب الناس ؟ قال : لا .
قال : فأشعر منی ؟ قال : لا . فقال فلم أعطیک ؟ قال : لئلا أهجوك .
فقال له : إن هجوتی هجوتك . فقال له أبو الشمقمق [شعرا لانستطيع
روایتہ] ... فوثب بشار فأمسك فاه وقال : أراد والله أن یشتمنی ! ثم
دفع إلیه مائتی درهم ثم قال له : لا یسمع منك هذا الصبیان یا أبا الشمقمق .
قد یكون بشار أفصح من أبی الشمقمق وأعلم منه بمثالب الناس
وأشعر منه ، ولكن أبا الشمقمق یستطيع أن یناله من حیث لا یستطيع
بشار أن یناله ، من دمامته وعماه ومن خسة أصله . والقصة الثانية عن
أبی الشمقمق أيضا :

« امر عقیبة بن سلم لبشار بعشرة آلاف درهم ، فأخبر أبو
الشمقمق بذلك فوافی بشارا فقال له : یا ابا معاذ ، إنی مررت بصبیان
فسمعتهم یشدون :

هللینه	هللینه	طعن	قناة	لتینه
إن	بشار بن برد	تیس	اعمی	فی سفینه

فأخرج إليه بشار مائتي درهم فقال : خذ هذه ولا تكن رواية
الصبيان يا أبا الششمقمق !

وليس ادل على ما نقول من القصة التي تروى في تهاجيه مع حماد
بجرد ، وهي وحدها في هذا الموضوع قاطعة . فهم يروون أنه لما هجاه
حماد ببيته :

ويا أقبح من قرد إذا ما عمى القرد

بلغ تأثر بشار ان بكى ، فقليل له أتبكي من هجاه حماد ؟ فقال :
والله ما أبكي من هجائه ولكنني أبكي لأنه يراني ولا اراه فيصفني
ولا أصفه .

ولكن حساسية بشار لم تكن مقتصورة على هذا القدر الناجم عن
العمى أو عن الشعور بالدمامة أو النقص الذي أحس به بسبب أصله
الأعجمي وحساسية أبيه . بل كانت اعظم من هذا بكثير : لم تكن
حساسية مكتسبة بل كانت حساسية أصيلة وجدت في طبيعة تكوينه .
كانت حساسية من النوع الممتاز النادر الذي يوجد لبعض الأفراد
ولو كانوا مبصرين أو ملاح الوجوه . كانت حساسية الفنان الممتاز ،
هذا الارهاق الشعوري والعاطفي والذوقي الذي يتاح لبعض الأفراد
فيجعلهم من عظماء الشعراء أو الرسامين أو الموسيقيين أو غيرهم من
أصناف الفنانين . وهي صفة ستعجلى لنا حين ندرس شعر بشار في
القسم الثاني من هذا الكتاب ، فسنرى في هذا الشعر دليلاً نهائياً على
أنه لم يكن غليظ الحس أو جهم الشعور .

أبي

كما اخطأ معاصروه فهم حساسيته فظنوه لضخامة جسمه غليظ
الشعور ، كذلك اخطأوا فهم عزته النفسية وتمسكه بكرامته وظنوها
صلفاً بغيضاً وغرورا . فقد صعب عليهم ان يفهموا أنفة هذا الأعمى
القييح وعهدهم بالعميان رضوخين صابرين كاطمين ، وأحنقهم ان
يجدوا هذا المولى الذى ولد على الرق يأبى ان يعطى سادته العرب
ما يتطلبون من التذلل والخنوع .

ولكن ان كان معاصروه قد التبس عليهم الأمر فخلطوا بين
الآباء والخطرة ، وبين الشتم والصلف ، وبين الاعتداد بالنفس والغرور ،
فان هذا ينبغي أن لا يختلط علينا نحن الذين تفصلنا عنهم وعنه مئات
السنين ، ضاعت فيها كل تلك الاحقاد الشخصية وزال أصل تلك
النعرات الجنسية . نالحق أن كل ما نجده لبشار فيما يرويه عنه القدماء
لا يخرج عن اصرار رجل أبى على المحافظة على كبريائه البشرية ، فان
زاد عن هذا فهو مجرد مبالغة فى الادعاء من رجل اضطر إلى هذه
المبالغة اضطرارا لما لقيه من الاضطهاد والمهانة . وهى مبالغة خليق بها
أن تحملنا على العطف والثناء لا على الكراهية والذم .

هذه بقية القصة التى رويناهما عن بشار أمام المهدي . بعد أن أنشد

أبياته الأربعة :

وَنَبَّئْتُ قَوْمًا بِهِمْ إِجْنَةٌ يَقُولُونَ مَنْ ذَا وَكُنْتُ الْعِلْمُ
أَلَا أَيُّهَا السَّائِلُ جَاهِدًا لِيَعْرِفَنِي أَنَا أَنْفُ الْكَرَمِ

نمت في الكرام بنى عامر فروعى وأصلى قريش العجم
فانى لأغنى مقام الفقى وأصبي الفتاة فما تعصم
تستمر القصة :

« وكان أبو دلامة حاضرا فقال : كلا ! لوجهك أقبح من ذلك
ووجهى مع وجهك . فقلت : كلا ! والله ما رأيت رجلا أصدق على
نفسه وأكذب على جلسه منك . والله إنى لطويل القامة عظيم الهامة ،
تام الألواح أسجح الحدين ، ولرب مسترخى المذروين (١) للعين فيه مراد
قد جلس من الفتاة حجرة (٢) وجلست منها حيث أريد . فأنت مثلى
يامرضعان (٣) قال : فسكت عنى . ثم قال لى المهدي : فمن أى العجم
أصلك ؟ فقلت من أكثرها فى الفرسان ، وأشدّها على الأقران ، أهل
طخارستان . فقال بعض القوم : أولئك الصغد . فقلت : لا ، الصغد
تجار . فلم يردد ذلك المهدي . »

أفترى فيها شيئا سوى أنفة مشروعة ؟

وتأمل أيضاً فى القصة الآتية :

« أنشد بشار جعفر بن سليمان :

أقلى فاما لاحقون وإنما يؤخرنا أنا يعد لنا عدا .

(١) المذروان : طرفا الأليتين ، ويريد شابا سمينا منعا حسن المنظر .

(٢) حجرة : ناحية ، أى لم تقربه منها .

(٣) المرضعان : اللثيم .

وما كنت إلا كالأغر ابن جعفر
رأى المال لا يبقى فأبقى به حمدا

فقال له جعفر بن سليمان : من ابن جعفر ؟ قال الطيار (٤) في الجنة .
فقال : لقد ساميت غير مسامى ! فقال : والله ما يقعدني عن شأوه بعد
النسب ، لكن قلة النسب ، واني لأجود بالقليل وان لم يكن عندي
الكثير ، وما على من جاد بما يملك ألا يهب البدور . فقال له جعفر :
لقد هزرت أبا معاذ ! دعا بكيس فدفعه إليه .

هذه القصة أيضاً ليس فيها سوى اصرار من الرجل على أباؤه ،
وما فيها من فخر بالكرم صادق كل الصدق كما سنتبين فيما بعد . ولكن
ان كان جعفر بن سليمان قد أعجبه قول بشار وأثابه عليه ، فان غيره
من معاصريه كان يغيظهم مثل هذا الاعتداد بالنفس ويعدونه غطرسة
لا تطاق بل لعلمهم عدوه إلحادا وكفرا ! أولا يسامى هذا الأعجمي
الخصيس رجلا من صميم البيت النبوي ؟

أما القصة الآتية :

محمد بن الحجاج قال : قلت لبشار : اني أنشدت فلانا قولك :

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى
ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه

(٤) الطيار : القب جعفر بن أبي طالب ، عوض عن يديه اللتين قطعتا في غزوة مؤتة
جناحين يطير بهما مع الملائكة .

فقال لي : ما كنت أظنه إلا لرجل كبير . فقال لي بشار : ويلك ! أفلا قلت له هو والله لا أكبر الجن والانس ،

فأى شيء فيها سوى تزييد في الفخر ناشئ عن رد فعل شديد إذ رمى بأنه رجل صغير . كذلك ما يروى أنه سمع جارية تغنى في شعره له فطرب وقال هذا والله أحسن من سورة الحشر . أو طرب وقال هذا والله أحسن من فلبج يوم القيامة . ليس فيها سوى جموح في التعبير دفعه إليه طول ما لقيه من مساواة واذلال لشخصه وانتقاص لقيمة شعره . أفىؤاخذ مؤاخذه عسيرة إذا جمع لسانه حين طرب فنطق بمثل هذه الدعاوى ؟ أم تظن أن بشارا كان في صميمه يعتقد حقا أن شعره أحسن من سورة الحشر أو أنه أكبر الجن والانس ؟ ان استطعت إثبات هذا فقد أثبت عليه الغرور والصلف ، والا فلا .

مشاكس

لكفى لا أريد أن ادعى أن بشارا كان بطبعه رحب الصدر أو واسع الصبر وإن الناس هم الذين بدأوه بالأيذاء في كل حادثة حدثت له . فلا شك أنه كان على قدر من ضيق الخلق وشراسة الطبع والنزق والمشاكسة والسرعة إلى الغضب . بل الذي ادعاه هو أنه لو لا ما لقي من الاضطهاد الطويل لما زاد حظه من هذا على النصيب العادى الذى يوجد في الكثيرين منا ويظلمون برغمه أعضاء مقبولين في المجتمع . إنما الذى هول الأمر وضخمه هو ما وصفنا من شدة الأساءة التى لقيها طول حياته .

أما ضيق خلقه وسرعة غضبه فأمر تشهد عليه قصص كثيرة .
فهمو يسأل مثلاً عن ابن قنان الذى ذكره فى قوله : غنى للغريص يا بن
قنان . قيل له : من ابن قنان هذا لسنا نعرفه من معنى البصرة ؟ فيجيب
بجدة ظاهرة : وما عليكم منه ! ألكم قبله دين فتطالبوه به ؟ أم
ثأر تريدون ان تدركوه ؟ أو تكفلت لكم به فاذا غاب طالبتموني
باحضاره ؟ فيقولون فزعين : ليس بيننا وبينه شيء من هذا ، وإنما أردنا
ان نعرفه . فيجيبهم : هو رجل يغنى لى ولا يخرج من بيتى ! فقالوا :
إلى متى ؟ قال : منذ يوم ولد وإلى يوم يموت !

فالتين يسألونه واضح أنهم لا يريدون إحراجاً بل هم مخلصون
فى طلب المعرفة ، لكنه يرد عليهم بهذا النزق الشديد . وكذلك حين
سئل عن « البردان » فى قوله « ووافانى هلال السماء فى البردان » .
سأله : يا أبا معاذ أين البردان هذا ؟ لسنا نعرفه بالبصرة . واضح
أيضاً من تسميتهم إياه بكنيته أنهم يسألونه فى لطف وأدب . فيجيب :
هو بيت فى بيتى سميت البردان ، أفعلكم من تسميتى دارى ويوتها سىء
فتسألونى عنه ؟

كذلك حين سأله رجل عن قوله « دسست إليها أبا مجلز » ، قائلاً :
ومن أبو مجلز هذا يا أبا معاذ ؟ قال : وما حاجتك إليه ؟ لك عليه دين ؟
أو تطالبه بطائلة ؟ هو رجل يتردد بينى وبين معارفى فى رسائل .

كذلك القصة الآتية :

« أنشد بشار قوله :

يروعه السرار بكل أرض مخافة أن يكون به السرار
فقال له رجل : أظنك أخذت هذا من قول أشعب : ما رأيت
اثنين يتساران إلا ظننت أنهما يأمران لي بشيء . فقال : ان كنت أخذت
هذا من قول أشعب فانك أخذت ثقل الروح والمقت من الناس جميعا
فانفردت به دونهم ! ثم قام فدخل وتركنا .

ولكن لعلك لاحظت ان بشارا في كل هذه القصص يعارض
في شعره ، وقد كان به شديد الاعتزاز ، لئلا له من قيمة صحيحة
فحسب ، بل لأنه كان من الأشياء القليلة التي كان يستطيع أن يجد فيها
عزاء وسلوى بين محنة الكثيرة .

سليط

بل أزيد على ضيق خلقه وشكسه فأقرر أنه كان على قدر غير قليل
من السلاطة وبذاءة اللسان . استمع إلى القصة الآتية :

« أبو معاذ النيرى قال : قلت لبشار : لم مدحت يزيد بن حاتم ثم
هجوته ؟ قال : سألتني أن [أفعل به] فلم أفعل . فضحكتم ثم قلت :
فهو كان ينبغي له أن يغضب ، فما موضع الهجاء ! فقال ، أظنك تحب
أن تكون شريكه ؟ فقلت : أعوذ بالله من ذلك ويحك ! » .

كما أتني لا أدعي أنه لم يهج إلا حين بدى بالإساءة . فانه يبدو من
أخباره أنه كان في أحيان كثيرة مغرما بالهجاء لمجرد اللذة التي يجدها
فيه . حتى لم يسلم من هجائه بعض أصدقائه . فيروى عنه مثلا :

« كان بشار كثير الولوع بديسم العنزي وكان صديقا له وهو مع ذلك
يكثر هجاءه . وكان ديسم لا يزال يحفظ شيئا من شعر حماد وأبي هشام
الباهلي في بشار . فبلغه ذلك فقال فيه :

أديسم يابن الذئب من نجل زراع أتروى هجائي سادرا غير مقصر ،
وأدل من هذا على سلاطته وولعه بالهجاء القصص الآتية ، وبها يدت
لا بد من روايته كاملا برغم إخفاشه ، وإلا كنا نتخير محاسنه ونتجاهل ،
مساوته :

« نهق حمار ذات يوم بقرب بشار . فخطر بباله يدت فقال :

ما قام أير حمار فامتلا شبقا إلا تحرك عرق في است تسنيم
قال : ولم يرد تسنيم بالهجاء ، ولكنه لما بلغ إلى قوله « إلا تحرك

عرق ، قال : في است من ؟ ومربه تسنيم بن الحواري وكان صديقه ،
فسلم عليه وضحك ، فقال : في است تسنيم علم الله ! فقال له : أيش
ويحك ! فأنشده البيت . فقال له : عليك لعنة الله ! فما عندك فرق بين
صديقك وعدوك . أي شيء حملك على هذا ! ألا قلت في است حماد ،
الذي هجأك وفضحك وأعيأك ، وليست قافيتك على الميم فأعذرك !
قال : صدق والله في هذا كله . ولكني مازلت أقول : في است من ؟
في است من ؟ ولا يخطر ببال أحد حتى مررت وسلمت فرزقته . فقال
له تسنيم : إذا كان هذا جواب السلام عليك فلا سلم الله عليك ولا
على حين سلمت عليك . وجعل بشار يضحك ويصفق بيديه وتسنيم
يشتمه . »

واضح من هذه القصة أن بشارا وجد لذة خبيثة في الهجاء دون ما مبرر . فهو يريد أن يتم البيت في هجاء أى انسان ولا يهتم من . ولهذا لا أظن القدماء كاذبين حين قالوا : « وقال بشار الشعر ولم يبلغ عشر سنين ثم بلغ الحلم وهو مخشى مهرة لسانه » .

بكل هذا أسلم ، فغرضى من دراستى هذه ان أحقق شخصية بشار على صحتها ، لان ابرته من كل عيب ، وما يحتاج بشار في محنة الكثيرة وفي مصائبه من الطبيعة ومن الناس إلى أن نبالغ في تبيين صحيفته لنحمل الناس على الرثاء له . ولكنى اعود فأقول : انه لولا ما لقي من الاساءة والاحتقار ، ومن الانتقاص والاضطهاد لما وصل شره إلى ما وصل ، لاشك انه كانت به نزعة طبيعية نحو البذاءة والهجاء ، ولكن لاشك ايضا ان الذى نماها فيه إلى ذلك الحد المفرط هو مالمقيه من البيئة التى وجد فيها منذ صباه .

فاجر

رديلة أخرى ببشار لا بد ان نسلم بها ، هى شهوانيته المفرطة . وسيرته فيها بضع قصص تبين مقدار تمالكه على النساء وتتبعه لهن حتى يرضين بمواصلته او يشكونه إلى ازواجهن . وقد سئل بشار اى متاع الدنيا أثر عندك ؟ فأجاب : طعام مز وشراب مر وبنات عشرين بكر . ويبدو لنا من اخباره ومن شعره انه برغم قبحه وعاهته لم يكن كاسد السوق على النساء . ولا تنحير طويلا فى استكشاف سبب رواجه لديهن ،

فظهره وحسن حديثه وفكاهته ولذة منادمته كانت تعوض/ جزءا غير قليل من دمايته ، وأهم من ذلك انه يبدو كأنه قد كانت لديه قوة جنسية عظيمة افتن بها بعض النساء فتحدثن بها إلى غيرهن فأغرى بها هؤلاء ايضا .

ورواج بشار لدى الكثيرات من نساء عصره كان مما أحقق رجال عصره عليه وزادهم عليه حقدا . ولكن استنكارهم لهذه الناحية منه لم يقتصر على سلوكه ، بل أغضبهم أيضا شدة تأثير شعره الداعر وحضه الفتيان والفتيات على سبيل الفسق . مثل أبو عبيدة عن السبب الذي من أجله نهى المهدي بشارا عن ذكر النساء فقال : كان أول ذلك استهتار نساء البصرة وشبانها بشعره ، حتى قال سوار بن عبد الله الأكبر ومالك ابن دينار ما شيء أدعى لأهل هذه المدينة من الفسق من أشعار هذا الأعمى ، وما زالوا يعظانه .

وليس هذه دعوى من القدماء لا دليل عليها ، فان لبشار قصيدة غاية في الشناعة الخلقية سنعرض لها حين ندرس شعره . وله أيضا بضعة أبيات متفرقة لابد أن تأثيرها في إغواء الشباب كان شديدا . فاليتم الثالث من قوله :

لا خير في العيش ان كنا كذا أبدا لا نلتقي وسبيل الملتقى نهج
قالوا حرام تلاقينا فقلت لهم ما في التلاقي ولا في قبلة حرج
من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك النهج (١)

(١) النهج : الذي يفرى بالشئ فيثابر عليه ويلج في طلبه .

لا بد أنه شجع بعض الفتيان والفتيات من هموا بالمنكر وأمسكوا عنه خوفاً . وكذلك البيتان الواردان في القصة الآتية ، والقصة نفسها دليل قوى ، يتحدث بعض الشعراء فيقول :

« أتيت بشارا الأعمى وبين يديه مائتا دينار . فقال لي : خذ منها ما شئت . أو تدري ما سببها ؟ قلت : لا . قال جامني فتى فقال لي : أنت بشار؟ فقلت : نعم . فقال : إني آليت أن أدفع إليك مائتي دينار ، وذلك أني عشقت امرأة فجئت إليها فكلمتها فلم تلتفت إلي ، فهممت أن أتركها فذكرت قولك :

لا يؤيسنك من مخبأة قول تغلظه وإن جرحا
عسر النساء إلى مياسرة والصعب يمكن بعد ما جمحا
فعدت إليها فلازمتها حتى بلغت منها حاجتي .

ولا نظن هذه كانت الحادثة الوحيدة من نوعها .

ولكن الدارس إذا أراد ألا يكون بحشه مجرد وصف سطحي فانه ينبغي عليه ألا يقرر النقص ويكتفي ، بل عليه بعد ذلك أن يفتش عن أسبابه فيستجليها . فما أسباب هذه الدعارة في بشار ؟

سببها الأساسي دون شك أنه كان على حدة جنسية عظيمة بطبيعة تكوينه . ولكن هذا لم يكن كل شيء ، فلو لا عوامل بيئته لبقيت هذه الحدة تقلس منافذها في حدود الحلال وما يقره الخلق والمجتمع . ولكن عوامل البيئة زادت حدة وإفراطا ودفعت بها إلى الاستهتار السافر . فأول ما يبدو لنا أن بشارا كان ذا قوة جسدية وصحة كاملة

مزهرة ، لانعرف أنه شكا مرضاً أو ضعفاً طول حياته . وهذه القوة
الجسمانية إذا وجدت في المبصرين لم يكن الارضاء الجنسي متنفسها
الوحيد ، بل تجد منصرفاً في الحركة الدائمة التي يقومون بها ، من الحرفة
اليديوية والرياضية البدنية والركوب والسباحة أو مجرد المشى الكثير ،
ومن التلهي بمختلف الملهي التي يستطيعها المبصر . أما بشار فقد حده
عماه بحدود عظيمة خرمه فرص التنفيس العادي عن حيويته الموفورة ،
فلم يبق إلا نشاطه الجنسي تتدفق فيه صحته وقوته .

وهذا نجده عند كثير من العميان ، ولكنه لم يكن في حالة بشار
كل شيء ، بل لاشك أن إفراطه الجنسي كان إلى حد عظيم تعويضا
عن شعوره بقبحه الزائد . كان قبيح العمى كره المنظر فأراد أن يقنع
غيره وأن يقنع نفسه أيضا أنه برغم ذلك يستطيع أن يكون محببا إلى
إلى النساء رائجا لديهن . وكان إفراطه كذلك تعويضا عما لقيه من المحن
والاضطهاد بسبب مولويته . كلما زادوه اضطهادا ازداد في فجوره
تحديا وعنادا ومكيدة ، كأنه ينتقم من رجال عصره بإغراء نسائهم .
وليس هذا مجرد تخمين منا ، فانك إذا رجعت إلى القصة التي
رويناها عن فخره أمام المهدي تبدي لك فيها شيء عجيب . هو أنه يفخر
فيها ، لا بأصله الفارسي أو ولائه العامري فحسب ، بل بقوة إغرائه
للنساء أيضا :

فاني لأغني مقام الفتى وأصبي الفتاة فما تعصم
وهذا فخر يبدو لنا لأول وهلة غريبا . فهذا رجل يغمز في نسبه ،
فنحن نفهم قوله « أنا أنف السكرم » . ونفهم قوله :

نمت في الكرام بنى عامر فروعى وأصلى قریش العجم
ولكن ما الداعى إلى فخره فى هذا المقام بأنه يصبى الفتاة فلا
تستطيع مقاومة اغرائه؟ شرح هذا واضح الآن، هذا الافتخار بحاجة
الجنسى تعويض عظيم عن شعوره بعاهته وتألمه من دمايته وبرمه
باحترار الناس له وتأذيه من اضطهادهم. ويزداد هذا اتضاحا إذا
أتممت قراءة القصة فاستمعت إلى رد بشار على أبى دلالة حين عبه
بقبح وجهه وتأملت فى كل جملة من هذا الرد.

وقد قال بشار حين لم يشبه سليمان بن هشام بن عبد الملك بما يعتقد
أنه كفايته :

فاكحل بعبدة قلمتيك من القذى وبوشك رؤيتها من الهملان
فلقرب من نهوى وأنت مقيم أشقى لدائك من بنى مروان
أضف إلى هذا كله حقيقة هامة يجب أن نحسب لها حسابها حين
نحاسبه على دعارته : وهى الانحلال الخلقى الذى فشا فى كثير من أوساط
مجتمعه. فالعدل يطالبنا ألا نقصر نظرا على أثر بشار فى إفساد معاصريه،
بل ننظر كذلك فى تأثيره هو بالفساد الذى شاع فى ذلك العصر، وقد
عبر المازنى عن هذه الحقيقة خير تعبير حين قال : « ولو كان الوحيد
الذى نرى فيه صورة من زمانه لما عذرناه. ولكن الشعراء الذين
عاصروه لم يكونوا خيرا منه، بل لم يكن بعض الخلفاء وأبنائهم وذوى
قرباتهم بأهدى وأرشد من بشار. أو أقل خلاعة أو مجرنا وشكا
وزندقة، ومن كلمات صريحة جريئة لا تترك فى حاجة إلى التطويل، لكننى

أسألك أن تتذكرها حين تقرأ الفصل القادم عن شكه وزيفه الديني .
على أنني أريد على هذا كله فأقول : إن من الخطأ الشديد أن نعتقد
أن بشاراً لم يكن في علاقاته مع النساء سوى رجل شهواني لا هم له إلا
الشهوة الحيوانية المحضة . فان بشاراً كان في علاقاته بهن على نصيب
عظيم من الرقة والانتشاء الوجداني ، لم يكن كل ما أغراه بهن ناحيتهن
الجنسية ، بل كان قادراً على تعرف النواحي السامية المهيبة في جمال
المرأة ومتعتها ، وكانت بقلبه رقة للجمال وقدرة على الاهتزاز له اهتزازا
يسمو على الشبق الجنسي . وهذه دعوى أرسلها الآن وسيكون إثباتها
حين ندرس شعره الغزل .

متشكك

هناك عامل آخر زاد في كره الناس لبشار واضطهادهم له . ولعلنا
لو فهمناه فهما صحيحا لكان أحرى بأن يحملنا على الرثاء له والاشفاق
عليه . ذلك هو ما ظنوه فيه من الكفر والالحاد .
أول ما ينبغي علينا إدراكه في هذه المسألة أن تهمة الكفر والالحاد
ليست صحيحة . فبشار لم ينته إلى الالحاد أو الكفر ، بل ظل طول عمره
حائراً متشككاً في كل شيء ، وهذا أساس بليته ، أنه ظل متردداً شاكاً
لم يستطع أن ينتهي إلى الإيمان ولم يستطع أن ينتهي إلى الالحاد ، ولهذا
قلت أنه ينبغي أن نرثي له ونشفق عليه . وقد يكون بعض القراء
أدهشهم أن يقال لهم أنهم ينبغي أن يعطفوا على زائع لم ينته إلى
الإيمان وبقى طول عمره متشككاً .

وشرح هذا أن شك بشار كان من أعظم أسباب عذابه في حياته ،
 فجحيم الشك هول لا يقاربه هول . والذي ينتهى إلى الايمان يسعد به
 ويجد به برداً وسلاماً ، والذي ينتهى إلى الالحاد كذلك يجد له برداً ،
 إذ ترتاح كل مخاوفه وتهدأ جميع تحيراته ، ولا يعود يتعب عقله في حل
 متناقضات الكون ، ويعذب نفسه في محاولة التوفيق بين عدل الله وبين
 ما في الكون والحياة والمجتمع من ظلم وشر وآثام : يهدأ الآن هدوءاً
 تاماً إذ تبدو له كل هذه المشا كل وهمية لا أساس لها ، فليس في الكون
 إله ، ولا له خالق مدبر يصدر في عمله عن قصد وحكمة ، فلا داعى
 إذن إلى محاولة استكشاف حكمته أو قصده أو التوفيق بينهما وبين فساد
 الكون وظلمه .

يهدأ الملحد ويجد للالحاد برداً يوازي ما يجده المؤمنون في إيمانهم ،
 ولا يخيفه ما يتوعدده المؤمنون من العقاب والتعذيب في الآخرة ، بل
 يسخر من تخويفهم هذا فهو لا يؤمن بحياة آخرة ، بل هو واثق أنه
 ليس من بعث ولا من حساب ، وبشار ما استطاع طول حياته أن
 ينتهى إلى هذه الثقة وهذه الراحة ، فظل منغصاً تفتك به الشكوك
 وتلتهمه المخاوف والريب ، وهذا لا يعرف أنونه المستعر إلا من شك
 فترة من حياته . وكل مفكر على أو دينى فهو يمر بالضرورة في فترة
 شك في زمن ما من حياته . ولكن معظم المفكرين ينتهى إلى إحدى
 راحتين ، راحة الايمان أو راحة الالحاد ، وبشار ما انتهى إلى إحداهما
 وهذا كما قلت أساس بليته العظمى . يقوى شكه فيظن أنه وصل مرحلة
 الالحاد التام ، فيبتسم ابتسامة الهازى الساخر ، ويستعد لهدوء الالحاد

وراحته ، ثم ما يلبث أن تعاوده الظنون والمخاوف ، فما أداره لعل هذا الذى يسخر به حق . وتقوى مخاوفه حتى يخيل إليه أنه بلغ مرتبة الايان ، فيقول مثل هذين البيتين الظاهري الصدق والحرارة :

كيف يبكى لمحبس فى طول من سيفضى لحبس يوم طويل
إن فى البعث والحساب لشغلا عن وقوف برسم دار محيل
ولسكنه ما يلبث أن يعود إلى شكه القديم .

ويلقى المؤمنون فيجادلهم ويطيل جدالهم ، ويخيل إليه أنه ظفر بهم وأثبت سخرهم ، وما هى إلا برهة حتى يتكدر وجهه ويتقطب جبينه ، فما أداره لعلهم على حق وهو على ضلال :

« أحمد بن خلاد قال حدثني أبى قال : كنت أكلم بشارا وأرد عليه سوء مذهبه بميله إلى الاتحاد ، فكان يقول لا أعرف إلا عاينته أو عاينت مثله ، وكان الكلام يطول بيننا ، فقال لى : ما أظن الأمر يا أبا خالد إلا كما تقول ، وأن الذى نحن فيه خذلان . . . »

نجد فى أخبار القديس تقريرات مختلفة عن دين بشار . فهم يقررون أنه آمن بالرجعة ، أو أنه صوب رأى إبليس فى تقديم النار على الطين ، أو أنه كفر بجميع الأئمة ، وكل هذه تقريرات خاطئة إن أريد بها أن هذا هو مذهبه الذى صار إليه وقبلة قبولاً نهائياً ، فالحق أن بشارا لم ينته إلى مذهب ما ، بل تقلب بين شتى المذاهب الإسلامية وغير الإسلامية يدرسها ويناقشها ويمتحنها ، وقد يستهويه أحدها حيناً ثم لا يلبث أن يضيق به ويتشكك فيه ، فقد يكون مال حيناً إلى مذهب الرجعة أو غيره من عقائد أهل الهند ، وقد يكون استهواه فى فترة ما من

حياته رأى أصحاب الديانات الفارسية في عبادة النور وتقديس النار ،
ولا شك أنه كان في زمن ما معتزليا بل كان من أئمة المعتزلة وقادة الرأي
بينهم . ولكن كل هذه المذاهب لم تقنعه اقناعا كاملا ، ولم ينته هو
إلى مذهب شخصي له يرضاه .

فاستشهداهم بقوله :

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار
أو بقوله :

إبليس خير من أبيكم آدم فتنهوا يا معشر الفجار
إبليس من نار وآدم طينة والأرض لا تسمو سمو النار

لا يثبت تدينه باحدى الديانات الفارسية ، بل يثبت العكس
لو تأملته جيدا . فليس هذا كلام رجل يعبد النار ، بل كلام مجادل
منطقي يحاول أن يرى الموحدين ما في قول عبدة النار من وجاهة ، وهو
أيضا قول رجل حاقده على البشر جميعا ، باختلاف أجناسهم ودياناتهم ،
حتى يفضل على جنسهم البشري خلقا آخر ، فيقول لهم هذا الشعر
لا لأنه يعبد النار أو يحب إبليس بل لمجرد أن يغضبهم ويحنقهم .

كل هذه التقارير خاطئة إذن . أما التقرير الوحيد الذي لا شك
في صحته فهو الذي يرد في القصة الآتية :

« سعيد بن سلام قال : كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام :
عمرو بن عبيد ، وواصل بن عطاء ، وبشار الأعشى ، وصالح بن عبد
القدوس ، وعبد الكريم بن أبي العوجاء ، ورجل من الأزد - يعنى

جرير بن حازم - فكانوا يجتمعون في منزل الأزدى ويختصمون عنده . فأما عمرو وواصل فصارا إلى الاعتزال ، وأما عبد الكريم وصالح فصححا التوبة ، وأما بشار فبقي متحيرا مخطئا ، وأما الأزدى فمال إلى قول السمنية ، وهو مذهب من مذاهب الهند ، وبقي ظاهره على ما كان عليه .

بقي متحيرا مخطئا ، هذا هو الحكم الصحيح ، ولكنك لا تقدر مبلغ هذا الهول ان لم تعرف شيئا عن حالة العصر ومدى اضطرابه ، وشيئا عن عقلية بشار .

أما العصر فكان من أشد عصور التاريخ الاسلامي زعزعة واضطرابا ، شهد انقلابا سياسيا عظيما هو تحول الملك من البيت الأموي إلى البيت العباسي ، أو كما ندرك نحن الآن ، وكما أدرك العرب بعده بنصف قرن ، تحوله من العرب إلى الفرس . وشهد غير هذا فتنا وثورات كثيرة وحروبا أهلية وخارجية . وشهد بحورا متلاطمة متعارضة من المذاهب والعقائد من الخوارج ، والشيعة ، والمرجئة ، والمعتزلة ، والرافضة ، وفرق عديدة من العلويين ، أضف إليها جميعا فرق المجوس ، والنصارى ، واليهود ، والصابئة ، يناحر بعضها بعضا ، فالذي يظل متحيرا مخطئا بينها جميعا قد ذاق عذاب الشك حقا .

فبشار لم يكن شكه مجرد النصيب العادي الذي يوجد لدى كل الناس ، حتى أنهم إيماناً ، فهم تمر بهم فترات متراوحت يقولون فيها : أهذا كله حق ؟ أهناك جنة ونار حقا ؟ أهناك حقا ملائكة وشياطين وبعث وحساب ؟ أديننا وحده هو الصواب ؟ إلى آخر ما يعن لهم من (م — ٥)

ظنون . ولكن هذه فيهم نزوات فكر لا تلبث أن تتبدد ويحل محلها
الايان التام الراضى المسلم بكل شىء . أما شك بشار فكان من النوع
الذى يلتهم صاحبه التهاما . وسر ذلك ان بشار لم يكن فردا عاديا ،
ولا كان مجرد فنان شاعر ، ولا كان مفكرا متواضع النصيب من
التفكير ، بل كان من أعظم ذوى العقول فى عصره .

كان بشار من أعظم ذوى العقول فى عصره ، وهذه الحقيقة تغيب
علينا فى معظم حديثنا عن بشار ، لا نتحدث عنه إلا من ناحية شاعريته .
ونحن فى هذا معذورون ، فالذى وصلنا منه هو شعره ، لا تفكيره
وجداله ومناقشته . فبشار من هذه الناحية شبيه بعمر الخيام ، الذى
كان من أعظم العلماء الرياضيين فى عصره ، والذى لا يعرف الآن
إلا بشعره . ولكننا ان تأملنا أقوال القدماء عن عقل بشار وعن علمه
استطعنا أن نحزر نصيبه منهما . فقد كان مشهورا فى عصره وفيما تلاه
لا بشعره وحده بل بسعة علمه وقوة تفكيره كذلك ، وبثرة وسائله
وخطابته ، ويبدو أن علمه وفكره شملا كل نواحي الثقافة فى عصره ،
دينية وفلسفية ، اسلامية وغير اسلامية ، وهذا ابن المعتز يقول عنه
فى طبقاته : « كان من أفقه الناس وأعلمهم بكتاب الله .. وكان يقول
ما أعلم شيئا مما عندى أقل من الشعر .. وكان بشار يعد من الخطباء
البلغاء الفصحاء .. ولا أعرف أحدا من أهل العلم والفهم دفع فضله .. »
ونحن ان لم يكن قد وصلنا من جدله وخطابته ما نستكشف منه
مدى عمق فكره ، فانه يكفيننا أنه كان فى زمن ما أحد المعتزلة . لست
أعنى أنه كان من متبعي مذهب الاعتزال ، بل كان من أئمتهم وقادة

الرأى بينهم ، بل يبدو لى أنه كان من روادهم الذين أسسوا فلسفتهم ووضعوا أصول تفكيرهم . وقصة خروجه على المعتزلة وانتهائه إلى رفض مذهبهم قصة عظيمة الدلالة على شكه الذى لا يهدأ . فقد كان فى أول الأمر صديقا لواصل بن عطاء شديد الملازمة له فى حلقات البحث والمناظرة ، ثم لما انتهى إلى الخروج على الاعتزال رماه واصل بالألحاد وسعى فى تحريض الناس عليه ، فقال بشار يهجوه :

مالى أشايح غزالا له عنق كعنق الدو^(١) ان ولى وان مثلا
عنق الزرافة مابالى وبالكمو تكفرون رجالا ككفروا رجلا

تأمل فى قوله « مالى أشايح » فانه يريدك بدأ تملله من الاعتزال وعدم اكتفائه به . أما البيت الثانى فبالغ الأهمية ، إذ يرينا أن سبب خروجه على المعتزلة هو مبالغتهم وافرطهم فى قضاياهم النظرية إلى حد أنهم يكفرون من لا يرى رأيهم . وبيته هذا ينقض قولهم عنه أنه كفر جميع الأمة ، فهو يدل على أن أكره شىء إليه كان التعصب المذهبي المسرف ولجوء كل فريق إلى تكفير الفرق الأخرى ، وهو يفضل إذ حار بينهما جميعا أن يتسامح معها جميعا . فالخوارج كفروا عليا لأنه قبل التحكيم ، والمعتزلة يكفرون الخوارج لأنهم كفروا عليا ، ثم يأتى آخرون فيكفرون هؤلاء لأنهم كفروا أولئك . فما نهاية كل هذا التكفير سوى الضيق المذهبي البغيض الذى يجر إلى التعصب والاضطهاد والتعذيب ؟

(١) النتنق : ذكر النعام . والدو : الفلاة . وسمى واصل بالغزال لكثرة جلوسه فى سوق الغزالين إلى صديق له .

بشار لم يكفر أحدا ، ولم يكفر بمذهب ، بل تساوت لديه جميع المذاهب في الشك . هناك أخبار يستدل بها البعض على أنه كفر بالإسلام . منها قول بعض أصحابه : كنا إذا حضرت الصلاة نقوم ويقعد بشار فنجعل حول ثيابه ترابا لننظر هل يصلي فنعود والتراب بحاله . ومنها أنهم سألوه يوما : حضرت الظهر والعصر والمغرب فلم تصل ، فأجابهم : ان الذي يقبلها تفارق يقبلها جملة ! ومنها قوله إن شعرا له يغنى فيه أحسن من سورة الحشر ، أو من فليج يوم القيامة .

وكل هذه لا دليل فيها على الكفر بالإسلام . وليس ترك الصلاة وحده بدليل على أنه اقتنع بخطأ الإسلام ، ورده على من سألوه لم لم يصل لا يزيد على أن يكون ردا لادعاء على أناس يتدخلون فيما ليس من شأنهم ، وخليق بنا ألا نقصر غضبنا على بشار لأنه لم يصل ، بل نصبه كذلك على أولئك الصنفاء يتجسسون عليه ويضعون عليه التراب وما عليهم من عدم صلاته حساب ، والإسلام دين لا يقر التفتيش والتجسس على أحوال الفرد الدينية كما أقرتهما أديان أخرى . وأما نخره بشعره فقد قدمنا القول في أنه لا يزيد على أن يكون أسلوبا سيء الأدب جمع به لسانه في حالة طرب .

على أن هناك رأيا دينيا واحدا نستطيع أن نطمئن إلى أن بشارا ، في كل شكه وتحيره ، قد آمن به إيمانا تاما . ذلك هو رأى الجبرية . فله هذه الآيات الرائعة :

طُبعت على ما في غير مخير هواي ولو خيرت كنت المهدبا
أريد فلا أعطى وأعطى ولم أرد وقصر على أن أنال المنغيا

فأصرف عن قصدى وعلى ثاقب فأرجع ما أعقبت إلا التعجبا
لعمري لقد غالبت نفسى على الهوى لتسلى فكانت شهوة النفس أغلبا
ومن عجب الأيام ان اجتنبها رشاد وأنى لا أطيق التجنبا

ما أشجأها وأشد تأثيرها ! وما أعظم نصيبها من الصدق ، فهى
أبيات نستطيع ان نردها دون أن نخرج عن دائرة الأيمان أو تملطخ
بالزيف ، دعك من الكفر . فالمذهب الجبرى مذهب مقبول محترم فى
كل الديانات السماوية ، بل هو المذهب السائد لدى أهل السنة الإسلامية .
فتأمل فيها ، وانشدها وتغن بها كلما صدر عنك تصرف انت ادرى
الناس بخطئه أو سخافته . وأينا يريد ان يكون غير مهذب ؟ أينا لا يريد
ان يكون فى كل حالاته فاضلا ، عفيفا ، صادقا ، بارا بالوعد ، رحيا ، حلما
عاقلا راشدا حكيما ؟ أينا لا يريد ان يكون جماع الفضائل ، وان يصير
مضرب الأمثال بين الناس فى الخير والتقوى والصلاح ؟ أم تظن ان
المجرم الشرير يريد ، الشر والأجرام والأثم ؟ ولسكننا بشر ، لسنا
آلهة ، فينا ضعف البشرية الذى قد نحاول جهدا مغالبتة ، ولسكنه يغلبنا
فى أحوال كثيرة ، وقد نكون أنقب الناس علما بما فيه خيرنا وفلاحنا ،
وقد نسعى له قاصدين ، ثم تصرفنا عنه بشريتنا العاجزة ، ومن لم يكن
منا بلا خطيئة فليرمنا بأول حجر ، تبارك الله وحده ، فله وحده المثل
الأعلى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

تأمل الآن فى هذا العنصر الجديد من شخصية بشار ، عنصر شك

الديني واضطرابه الفكري ، وفكر في نصيبه من تكوين نفسيته الخاصة ،
واقرنه إلى العناصر السابقة لتري مايتولد عن هذا الاقتران . اقرنه مثلاً
إلى شهوانيته المفرطة ، تجد انه لا بد ان قد زادها حدة وفجورا . فلو
انه انتهى إلى الايمان التام لرما خفف هذا من استعارها أو فجع من
جموحها أو حبسها في الحدود التي يقرها الدين ويرضاها المجتمع ، ولكن
لا أعنى هذا وحده ، فالذى لاشك فيه أن تحيره الديني والفكري دفعه
إلى ان يلتمس في اللذة الجنسية شبه عزاء وسلوى ، وجد فيها خلاصا
وقتيا من جحيم الشك ، كلما لذعته أسنة الشكوك اندفع إلى النساء
ينشد في صحبتن وفي وصاھن فترة نسيان ومتنفس عقلية معذبة ، فهو
في هذه الناحية أيضاً يشبه عمر الخيام بعض الشبه ، الذى أقبل على الخمر
وعلى المحبوبة وعلى الطعام الشهى يبغي في هذه الملذات الحسية تسكيناً
وتخديراً لسعير الريب الدينية والمخاوف الفكرية .

مقوت

ثم تأمل في هذا السبب الجديد لبغض الناس إياه ، وأقرنه بالأسباب
الأخرى لتري كيف تعاونت جميعاً على مضاعفة كرههم له وإيصاله إلى
أقصى حد من الكره تستطيع قلوبهم .

فهم لم يبغضوه لما ظنوا فيه من الألحاد فقط ، بل أبغضوه لأنه
ملحد أعشى ، والناس دائماً يرون في اجتماع العمى والألحاد فظاعة وشرأ
ليس بعدهما فظاعة أو شر ، ولأمر ما كان واصل يسميه دائماً هذا الأعشى

الملحد . فلو أنه كان زنديقاً مبصراً لكان الأمر ، لست أدري لماذا ،
ولكن سل الناس فهذا رأيهم .

ولو أنه كان زنديقاً عربياً لكان خطبه أيضاً ، ولكن زنديقاً أعجمي ،
مولى خسيس يجرأ على الزيف ! هذه شناعة مضاعفة .

ولو أنه كان ملحداً فاضل السيرة ، ولكنهم رأوه ملحداً فاسقاً
هجاء سليطاً لاذع اللسان ، ثم أضف سائر عيوبه ، من العمى الفظيع
والدمامة والضخامة المخيفة ، فإنك تبتدى الآن في الإدراك الحقيقي
لمبلغ كرههم له .

فقد كان كرههم له من أشد نوع من الكره يستطيعه القلب
الإنساني ، وهو الكره المزوج بالخوف والرغبة ، فلو استطعنا أن
نتغلغل إلى باطن عقولهم لنرى الصورة التي ارتسمت عنه في أذهانهم
لوجدنا صورة فظيعة عظيمة الارعاب . صار لديهم أكثر من إنسان
مكروه مخوف . صار «بعبعا» ، صار وحشا ممسوخا غير إنساني ، صار
تجسما بشريا لتلك المخلوقات الخرافية التي تتخيلها الإنسانية وتتخذها
رموزاً ترمز بها إلى كل ما يداخل القلب البشري من الاحتقار للمزوج
بالرغبة ، والكرهية المقترنة بالرعب ، والبغض المختلط بالذعر الشديد .
وسنقص الآن من روايات القدماء قصصاً تبين مقدار مقههم إياه
وتخوفهم منه . والعجيب أن بشارا لم يزعج من هذه الصورة التي
التي كونوها عنه ، بل يبدو أنه رحب بها وشجعها عامداً . ولكن
لا يصعب علينا سر ذلك ، فهو قد استكشف أن في كرههم له وخوفهم

منه حماية له من اذاهم ، فبذل جهده في تنمية هاتين العاطفتين فيهم وإعطاء
الاسباب التي تبررهما وتعززهما ، ولم يكن هذا منه سوى دفاع المستضعف
وسلاح العاجز . ولم يكن لمثله سوى سلاح واحد ، الهجاء ، فأكثر منه
وأقذع فيه حتى يخيفهم وينفرهم .

يقول خلف :

« كنت أسمع ببشار قبل أن أراه . فذكره لي يوما وذكروا بيانه
وسرعة جوابه وجودة شعره ، فاستنشدتهم شيئاً من شعره فأنشدوني
شيئاً لم يكن بالمحمود عندي . فقلت : والله لا تينه ولا طأطن منه .
فأتيته وهو جالس على بابي ، فرأيت أعني قبيح المنظر عظيم الجثة .
فقلت : لعن الله من يبالي بهذا . فوقفت أتأمله طويلاً ، فبينما أنا كذلك
إذ جاءه رجل فقال : إن فلانا سبك عند الأمير محمد بن سليمان ووضع
منك . فقال : أو قد فعل ؟ قال : نعم . فأطرق ، وجلس الرجل عنده
وجلس ، وجاء قوم فسلموا عليه فلم يرد عليهم ، فجعلوا ينظرون
إليه وقد درت أوداجه . فلم يلبث إلا ساعة حتى أنشدنا بأعلى صوته
وأفخمه :

نبت . . . أمه يعتابني عند الأمير وهل على أمير
ناري محرقة ويبتى واسع للمعتفين ومجلسي معمور
ولي المهابة في الأحبة والعدا وكأني أسد له تامور (١)

غرثت حليته وأخطأ صيده فله على لقم الطريق زئير^(١)
قال : فار تعدت والله فرأى واقشعر جلدى وعظم فى عيني جداً،
حتى قلت فى نفسى : الحمد لله الذى أبعدنى عن شرك .
ويتحدث أحد معاصريه يقول :

« أتانى أعشى سليم وأبو حنش فقالا لى : انطلق معنا إلى بشار
فتسأله أن ينشدك شيئاً من هجائه فى حماد عجرد أو فى عمرو الظالمى ، فإنه
إن عرفنا لم ينشدنا . فمضيت معهما حتى دخلت على بشار فاستنشدته
فأنشد قصيدة له على الدال فجعل يخرج من واد فى الهجاء إلى واد آخر
وهما يستمعان وبشار لا يعرفهما . فلما خرجا قال أحدهما للآخر :
أما تعجب بما جاء به هذا الأعمى ؟ فقال أبو حنش : أما أنا فلا أعرض
والله والذى له أبداً . وكنا قد جاء يزورانى ، وأحسبهما أرادا أن
يتعرضا لمهاجاته . »

ويروى الأصمعى :

« لما أنشد بشار أرجوزته : « ياطلل الحى بذات الصمد » أبا الملدّ
عقبة بن سلم أمر له بخمسين ألف درهم . فأخراها عنه وكيهه ثلاثة أيام ،
فأمر غلامه بشار أن يكتب على باب عقبة عن يمين الباب :

مازال ما منيتنى من همى والوعد غم فأزح من غمى
إن لم ترد حمدى فراقب ذمى

(١) غرثت : جاعت : لقم الطريق : يمتنه ووسطه

فلما خرج عقبة رأى ذلك . فقال : هذه من فعلات بشار . ثم دعا
بالقهرمان فقال : هل حملت الى بشار ما امرت له به ؟ فقال : أيها
الأمير نحن مضيقون وغدا احملها إليه . فقال زد فيها عشرة آلاف
درهم واحملها إليه الساعة . فحملها من وقته .

ويروى عافية بن شبيب :

« قدم كردى بن عامر المسمعى من مكة ، فلم يهد لبشار شيئا وكان
صديقه . فكتب إليه :

ما أنت يا كردى بالهش ولا أبريك من الغش
لم تهدنا نعلا ولا خاتما من أين أقبلت؟ من الحش؟^(١)

فأهدى إليه هدية حسنة وجاءه فقال : مجلت يا أبا معاذ علينا . فأنشدك
الله ألا تزيد شيئا على ما مضى .

ويروى عن الرياشى قال :

« حضر بشار باب محمد بن سليمان . فقال له الحاجب : اصبر ،
فقال : ان الصبر لا يكون إلا على بلية . فقال له الحاجب : انى أظن
ان وراء قولك هذا شرا ولن أتعرض له ، فقم فادخل . »

ويرى ان الأخفش طعن على بشار فى استعماله فى شعر له لفظ
« الوجكسى » ولفظ « الغزلى » والجمع « نينان » فقال : لم يسمع من الوجلى
والغزل فعلى ، ولم أسمع بنون ونينان . وتستمر القصة : « فبلغ ذلك

(١) الحش : المرحاض .

بشارا فقال : ويلي على القصارين ! متى كانت الفصاحة في بيوت
القصارين ! (١) دعوني وإياه ! فبلغ ذلك الأخفش فبكى وجزع . فقليل
له : ما يبكيك ؟ فقال : وما لي لا أبكي وقد وقعت في لسان بشار الأعمى !
فذهب أصحابه إلى بشار فكذبوا عنه واستوهبوا منه عرضه وسألوه
ألا يهجوهم . فقال : قد وهبته للؤم عرضه . فكان الأخفش بعد ذلك
يحتج بشعره في كتبه ليبلغه ، فكف عن ذكره بعد هذا .

ويروى نظير هذا الخبر عن سيديويه ، وإن بشارا هجاه بيتين ، فتوقاه
سيديويه بعد ذلك ، وكان إذا سئل عن شيء فأجاب عنه ووجد له شاهدا
في شعر بشار احتج به استكفافاً لشهره .

ويروى عن أحد الأدباء قال :

« غضب بشار على سلم الخاسر وكان من تلامذته ورواته ، فاستشفع
عليه بجماعة من أخوانه فجاءوه في أمره . فقال لهم : كل حاجة لكم
مقضية إلا سلها . قالوا : ما جئناك إلا في سلم ، ولا بد من أن ترضى
عنه لنا . فقال : أين هو الخبيث ؟ قالوا : ها هو ذا . فقام إليه سلم
فقبل رأسه ومثل بين يديه وقال : يا أبا معاذ ، خريحك وأديبك . فقال :
ياسلم ، من الذي يقول :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج
قال : انت يا أبا معاذ ، جعلني الله فداك ! قال : فمن الذي يقول :
من راقب الناس مات غمماً وفاز باللذة الجسور

(١) القصار : محو الثياب .

قال : خريجك يقول ذلك — يعني نفسه — قال : أفتأخذ معاني^١ التي قد عنيت بها وتعبت في استنباطها ، فتكسوها ألفاظا اخف من ألفاظي حتى يروى ما تقول ويذهب شعري^٢ الا أرضى عنك ابدا .
قال : فما زال يتضرع إليه ويشفع له القوم حتى رضى عنه .

وعن عباد بن عباد قال :

« مررت ببشار فقلت : السلام عليك يا أبا معاذ . فقال : وعليك السلام ، أعباد ؟ فقلت : نعم . قال : اني لحسن الرأي فيك . فقلت : ما أخرجني إلى ذلك منك يا أبا معاذ ! »

لاغرو ان يرووا عن وفاته : « لما مات بشار ونعي إلى اهل البصرة تباشر عامتهم وهنا بعضهم بعضا وحمدوا الله وتصدقوا لما كانوا قد منوا به من لسانه . » واستمع إلى هذه القصة تريك كيف لم يصدق بعضهم وفاته حين بلغته ، كأنها سعادة مستحيلة :

« سالم بن علي قال : كنا عند يونس فنعي بشارا إلينا ناع ، فانكر يونس ذلك وقال : لم يمت ! فقال الرجل : انا رأيت قبره . فقال : انت رأيته ؟ قال نعم ، وإلا فعلى^٣ وعلى . وحلف له حتى رضى . فقال يونس : للدين والفهم ^(١) »

وقبل ان تقبض روحه بعد جلده بادر اشراف البصرة فبعثوا إليه بالفرش والكسوة والهدايا ، كأنهم يخشون ان لا يموت فيأخذهم

(١) مثل يقال عند السمات بسقوط إنسان ، والمراد أسقطه الله على يديه ورجليه .

بأهمالهم إياه ، فلما مات « أخرجت جنازته فاتبعتها أحد إلامة له سوداء
سندية عجماء ما تفصح ، رأيتها خلف جنازته تصيح : واسيداه !
واسيداه ! . »

ثم يقول أحد شعرائهم فيه كلمتهم الأخيرة :

يا بؤس ميت لم يبكه أحد أجل ولم يفتقده مفتقد
لا أم أولاده بكته ولم يبك عليه لفرقة ولد
ولا ابن أخت بكى ولا ابن أخ ولا حميم رقت له كبد
بل زعموا أن أهله فرحا لما اتاهم نعيه سجدوا
وكان هذا وداعهم له :

قد تبع الأعمى قفا مجرد فأصبحا جارين في دار
قالت بقاع الأرض لا مرحبا بروح حماد وبشار
تجاورا بعد تنائيهما ما أبغض الجار إلى الجار
صارا جميعا في يدى مالك في النار والكافر في النار

كاره للبشر

قلنا أن بشارا تعمد أن يزيد الناس كرها له وخوفا منه ، واتخذ
من هذا سلاحا يحميه من عدوانهم . ولكن ليس منا من يحب أن
يكرهه الناس ، مهما ادعى أن هذا لا يهمه . فلا بد أن بشارا تعذب
عذابا عسيرا من هذا الكره الذى معنى هو فى اذكاء ناره . فتأمل هذا
المصدر الجديد لعذابه ، وأضفه إلى عذاب شكه وتخبطه فى ليل فكري
دائم ، وإلى عذاب عماه ، وعذاب دمامته ، وعذاب مولوته وولادته

على الرق و حطة أيبه ، تجد أن بشارا عاش عيشة لا يحسد عليها ، عيشة لا يتمناها أحدنا لعدو فضلا عن حبيب .

فلا غرو أن ينتهى هذا إلى أن يكره الناس . ولسنا نغنى بهذا ما يتعاور كلامنا في فترات مختلفة من ضيق صدر بالناس وبرم بهم وإيثار وقى للوحدة . إنما نعنى الكره الحقيقي للجنس البشرى Misanthropy . انتهى بشار الى كره الناس هذا الكره العميق الصادق الدائم . فلم يكن أثقل عليه من مخالطتهم ، ولم يكن أحب إليه من الفرار من عشرتهم جهد ما يستطيع ، وما قى . يتمنى إلى الله أن يريحه منهم .

يروون عنه أنه كان من أشد الناس تبرا بالناس . و يروون أيضا أنه كان ضيق الصدر متبرما بالناس ، فكان يقول اللهم إني قد تبرمت بنفسى وبالناس جميعا ، اللهم فأرحني منهم . وبلغت به الحال أن صار يحمد الله على عاهته التى تصونه من رؤية وجوههم . وهذه دعوى قد يكون بدأ بها مجرد التعزى عن حرمان البصر ، ولكن لما طال به الضر صار يقولها مخلصا ، وانك لا تخطئ . هذا الاخلاص فى روايتهم : « وكان يقول : الحمد لله الذى ذهب ببصرى ، فقيل له : ولم يا أبا معاذ؟ قال : لئلا أرى من أبغض » .

ولم يتبرم بشار بأعدائه وحدهم ، بل كثيرا ما كان يشغل عليه أصدقاؤه ، فان تذكرنا مقدار ما لقيه من إيذاء مقصود وغير مقصود منهم أيضا لم نستغرب ذلك . يقول فى بعضهم :

وكيف يخف لي بصرى وسمعى وحولى عسكران من الثقال
 قعودا حول دسكرتى وعندى كأن لهم على فضول مال
 إذا ما شئت صبحنى هلال وأى الناس أثقل من هلال
 ويقول فى آخر :

ربما يشقل الجليس وإن كان خفيفا فى كفة الميزان
 كيف لا تحمل الأمانة أرض حملت فوقها أبا سفیان
 وله فى نفس الرجل هذان البيتان الشديدا السخط والهياج :
 هل لك فى مالى وعرضى معا وكل ما يملك جيرانى
 واذهب الى أبعد ما ينتوى لا ردك الله ولا ماله
 وبلغ به استثقاله للكثيرين من جلسائه أنه كان يعتمد إلى وسائل
 عظيمة الجفاوة للتخلص منهم :

« قعد إلى بشار رجل فاستثقله ، فضرط عليه ضرطة ، فظن الرجل
 أنها أفلتت منه ، ثم ضرط أخرى ، فقال : أفلتت ، ثم ضرط ثالثة ، فقال
 يا أبا معاذ ، ما هذا ؟ قال : مه ! أ رأيت أم سمعت ؟ قال : بل سمعت
 صوتا قبيحا . فقال : فلا تصدق حتى ترى ! »

ويروى عن بعض جلسائه أنهم أتوه فأذن لهم والمائدة موضوعة
 بين يديه فلم يدعهم إلى طعامه . فلما أكل دعا بطست فكشف عن سوءته
 فبال . ثم حضرت الظهر والعصر والمغرب فلم يصل . فلما عاتبوه أجابهم
 بما يدلنا على أنه إنما تعتمد هذه الاساءات ليغیظهم ويحملهم على تركه

إذ استثقل صحتهم . ولكنهم كما تدل القصة بقوا لديه من قبل الظهر
إلى ما بعد المغرب !

ولما ليم على كثرة هجائه علمه بفساد ظنه بالناس ، فقال : « إني
وجدت الهجاء المؤلم آخذ بضبع الشاعر من المديح الرائع ، ومن أراد
من الشعراء أن يكرم في دهر اللثام على المديح فليستعد للفقر ، وإلا
فليبالغ في الهجاء . ، ولا يهمننا الآن أحق هو أم غير محق في سوء ظنه
هذا ، إنما يهمننا دلالة هذا الخبر على مقدار تسمم ذهنه ضد الناس .

الجانب الثاني : نور

معاصروه ونقادنا

لسنا نريد في محاولتنا إنصاف بشار أن نتجنى على معاصريه . فان كان قد لقي منهم شراً كثيراً فقد لقوا منه شراً ، صحيح أن الشر الذي فيه إنما تولد عن تتبعهم إياه بالأساءة ، ولكن الدراسة الأدبية الصحيحة - دعك من العدل - تقتضينا أن ننظر إلى المشكلة لامن وجهة نظره هو وحده بل من وجهة نظرهم أيضاً ، حتى نتعرف عقيدتهم فيه وشعورهم نحوه . وحين نفعل ذلك فلا بد أن نراعى حالة مجتمعهم ، ومستواهم الفكري والذوقي ، وتقاليدهم الدينية والخلقية ، والانتطال منهم ما كانوا عنه عاجزين .

فهذا وحش هائل الحجم زائد الضخامة ، أعمى شنيع العمى ، قبيح الوجه مجدوره ، لا عجب أن ينفروا من مرآه ، ولا يلام أمثالهم اذا خلطوا بين النفور الجمالي والنفور الخلقى ، فليس من العدل أن نطالبهم بما يستطيعه ذهننا المثقف المتعمق من التمييز الحاد بين الحكمين .

وهذا رجل برغم دماسته الفظيعة لا يفتأ يتحجب إلى النساء ويتابعهن ، وينجح فعلا مع الكثيرات منهن ، ولا يكتفى بهذا بل يعتمد إلى رواية مغامراته في شعر شديد التأثير على الفتيان والنساء ، ثم لا يكتفى بالرواية

حتى يدعو الشبان والنساء دعوة صريحة إلى اهدار الحدود الخلقية التي يتقيد بها المجتمع.

وهذا أعمى شديد اللجاجة عنيف الخصومة دائم العناد ، لا يرضى بما قسم له من عاهة لا سبيل إلى إصلاحها ، ولا يقنع بما تفرض عليه من منزلة وضيعة في المجتمع . لا يرضى بما يرضى به العميان عامة من الاستكانة للبصرين ، ولا يقبل ما يفرضون على العميان من الأسبقية والسيطرة .

وهذا مولى خسيس الأصل لا يؤدي إلى أسياده العرب ما ينبغي لهم من الأجلال والخضوع ، بل يظل يكابرهم ويحاول ان يكون لهم ندا نظيرا ، ويتطلب منهم مالا يستطيعون ان يؤدوه الى مولى من الاحترام والاعتراف بالمساواة ، ويتجاوز هذا كله فيدعو سائر الموالى إلى التمرد على أسيادهم .

وهذا زنديق فاسد العقيدة زائع عن الدين السوى ، لا يقبل الاسلام ولا يبادر إلى الاعتراف بصحته وصدقه كما يفعل معاصروه ، ولا يفتأ في حلقات المناقشة التي يؤمها يثير فيه الشكوك والريب . ونحن لانستطيع أن نفرط في لومهم اذا لم يميزوا بين الشك والألحاد ، واذا لم يدركوا أنه ان لم يقبل الاسلام فهو أيضا لم يقبل المسيحية أو اليهودية أو المجوسية أو سواها من الأديان . ونتجنى عليهم أشد التجنى إذا انتظرنا منهم ان يدركوا أن بشارا لم يختار الشك عنادا وإنما اضطر إليه ، أو انتظرنا منهم أن يدركوا عذاب الشك وسعيه ، وان يحملهم هذا الإدراك على مساحته والثناء له لا على بغضه والسخط عليه .

وهذا رجل بذى اللسان مفحش اللفظ هجاء ولوع بالهجاء مقذع فيه، آذاهم بهجائه أذى طويلا، وكان في كثير من هجائه هذا ظالما مبتدئا.

وأخيرا هذا رجل برغم كل عيوبه السابقة الذكر يصر على ان يدعى لنفسه مركزا في المجتمع لا يفهمون له مبررا. قد يكون شاعرا مجيدا ولسكن أهذا وحده يؤهله لما يدعيه من المسكاة؟ ثم ما شعره هذا؟ أليس جزء عظيم منه هجاء شنيعا وجزء آخر دعاية لا تقل شناعة؟ وقد يكون مفكرا بارعا، ولسكن ما فكره هذا؟ أليس معظمه غمزا في الدين وتشكيكا في عقائده؟ أفهذا يريد أن يعاملوه معاملة الند، بل يزيد فيريد أن يعدوه عظيمامن عظمائهم وسيدا من ساداتهم، برغم مولويته وخساسة أصله وولادته على الرق؟

وصحيح أن العرب ظلموا الموالى ظلما مبيئا، وأنهم في ظلمهم هذا عصوا ما يأمرهم به دينهم من التسوية التامة بين أجناس الانسانية. ولسكن أيستطيع أحدنا أن يسرف في لوم العرب، في جهلهم وبداءتهم وشراسة طباعهم وبقائهم على كثير من صفاتهم الجاهلية التي لا يزالون قريبى عهد بها — أيستطيع أحدنا أن يسرف في لومهم وهو يرى الآن أما متحضرة عالية القدر في التهذيب والمدنية تعامل الشعوب المقهورة بإساءة لا تقل عن إساءة العرب ان لم تزد؟ هذا مع أن لها في ثقافتها وتحضرها، وفي خبرتها بعضات التاريخ ودروس الاجتماع، وفي بصرها بأصول السياسة وحقائق علم الاقتصاد، ما كان ينبغي ان يصونها من هذا التصرف الخاطيء الضار بها وبالحكمومين، حين لم يكن للعرب

شيء من هذا كله. ثم لا ينبغي ان ننسى في هذا كله أن العرب ان حرموا
الموالى العدل الاجتماعى ، فهم على الأقل قد حققوا لهم العدل القضائى ،
وهو عدل لم تظفر به كثير من الأجناس الملونة في عصرنا الحديث ،
ولم يتجاوزوا الأساءة إلى القتل ، وهو نصيب كثير من الزنوج
في أمريكا .

لا نستطيع إذن أن نسرف في لوم معاصريه ، كما اننا لا نستطيع
أن نسرف في لومه ، فالحق أن قضية بشار هي مثال آخر (١) للمأساة
الحقيقية الصادقة التى لا تفتأ تتكرر في تجارب البشرية ، والتى يصدر
فيها الأثم والعدوان وتصدر التعاسة والشقاء لاعن قصد عامد بل عن
نقائص تكمن في طبيعة البشر من حيث انهم بشر ، ثم يبتعثها فيهم
تصارع الشخصيات وتعارض الطباع ، أو عن قوى غلبة وظروف
قاهرة ليس في طوق فرد واحد أو مجتمع واحد تبديلها .

لا نستطيع أن نسرف في لوم معاصريه ، وكل محاولتى السابقة في
الاعتذار لعيوبه لم يكن القصد منها لومهم ، بل الذين نستطيع أن نلومهم
حقا هم نقادنا المعاصرون الذين ظلوا الرجل ظلما شديدا ، ورسومه
بصورة اتبعوا فيها ظن أهل عصره به وكرهتهم له وحزازتهم ضده .
هؤلاء النقاد المعاصرون هم الذين نستطيع أن نلومهم لوما عادلا ،
لسببين اثنين : أولهما أن ما أثاره بشار من العداوات والحزازات قد
ماتت بموته وانقضت معاصريه من ألف ومائتى سنة ، وفي إمكاننا

(١) درس المؤلف مثالا سابقا في كتابه « ثقافة الناقد الأدبى » .

الآن ان نقبل على دراسته ودراستهم متجردين عن الأغراض متزهين
عن الخصومة الشخصية . وثانيهما أننا نستطيع أن نكون أقدر على
الدراسة الأدبية الصحيحة والتقدير الشخصى العادل ، بما لنا من ثقافة
أنضج ، وفكر أحد ، ووسائل للتحقيق الأدبى والتحليل النفسى أ كمل
وأجود . فلا يكفيننا أن نقول : فلان داعر ، أو فلان متكبر ، أو فلان
زائع ، بل يجب أن نسأل : لم هو داعر أو متكبر أو زائع ؟ فلعلنا
لو تعمقنا أسباب عيوبه تلك لانتبهنا إلى مساحته ، بل لعلنا نتجاوز
المساحة إلى الشفقة به والدفاع عنه .

نواحيه الخيرة

أخطأ نقادنا المعاصرون دراسة نقائص بشار ، ولو حاولوا تفهمها
تفهما هادئاً واستطلاع أسبابها استطلاعاً محايداً لا تضح لهم أن معظمها
لم يكن شيئاً أصيلاً فيه ، بل هى نزعات سيئة وقوى شريرة أوجدها
فيه المجتمع الذى عاش فيه وما لقيه من هذا المجتمع من معاملة . والذى
كان منها فيه بالطبيعة إنما نماه ذلك المجتمع وتلك المعاملة فأوصله إلى
حدده المفرط . فبشار لم يكن شريراً من أصله ، بل شره صفة مكتسبة
ولدتها فيه بيئته .

ولكن خطأ نقادنا لم يقتصر على تجسيمهم لعيوبه ورفضهم تحرى
أسبابها ، فانهم فى انهماكهم فى تحقيق عيوبه قد أغفلوا الجانب الآخر
من المسألة : أغفلوا نواحيه الخيرة التى لاشك فيها .

أكان بشار كشكول نقائص ومجموع عيوب وردائل لا أثر فيها
لناحية خيرة؟ أكان صورة مظلمة حالكة الظلمة لا بصيص فيها من
نور؟ أكان شريراً أثمياً قاسياً غليظ القلب لا ميسر فيه من رقة ولا
نسمة من رحمة أو حنان؟ هذا ما نتخيله لو قبلنا فيه رأى معاصريه
ورأى نقادنا ، وهذا ما ننتهي إلى رفضه لو دققنا التأمل في شخصيته
كما تصورها روايات القدماء أنفسهم ، ولم يفسد تأملنا فكرة سابقة
مفروضة أو تعصب جنسى أو ديني .

والذي سأحاوله الآن هو أن أجلى للقارى نواحيه الخيرة المهمة،
نواحي أن أنعمنا النظر فيها وقدرناها حق قدرها صححت تلك الفكرة
الخاطئة الشائعة وأثبتت لنا بما لا يترك مجالاً للشك أنه لم يكن وحشاً
كما يدعون .

كان بشار على قدر عظيم من الحنان والرفقة ، كان باراً بأهله رفيقاً
بخدمه ، كريماً سخياً الكرم على أصدقائه وغير أصدقائه ، صديقاً صدوقاً
مخلصاً للرفاق مقدرًا للصدقة ، وكان على نصيب غير قليل من الصبر
والتسامح والعفو ، وكان ظريفاً حسن المجالسة بارع الفكاهة ، وكان على
درجة من الشجاعة الأدبية لا تستحق منا سوى الإعجاب مهما تخالفه
في آرائه . وإليك إثبات كل حكم من هذه الأحكام .

بار

أكان بشار وحشاً أغلق قلبه دون عواطف الإنسانية فلم تجمععه
بأحد أواصر التعاطف والرحمة؟ تأمل جيداً في القصة الآتية :

« كان برد أبو بشار طياناً حاذقاً بالتطمين . وولد له بشار وهو
أعمى ، فكان يقول : ما رأيت مولوداً أعظم بركة منه ، ولقد ولد لي
وما عندي درهم فما حال الحول حتى جمعت مائتي درهم . ولم يمت برد
حتى قال بشار الشعر . وكان لبشار أخوان يقال لأحدهما بشر وللآخر
بشير ، وكانا قصابين وكان بشار باراً بهما ، على أنه كان ضيق الصدر
متبرماً بالناس ، فكان يقول : اللهم إني قد تبرمت بنفسي وبالناس
جميعاً ، اللهم فأرحني منهم . وكان إخوته يستغيرون ثيابه فيوسخونها
وينتنون ريحها ، فاتخذ قميصاً له جيبان وحلف أن لا يعيرهم ثوباً من
ثيابه ، فكانوا يأخذونها بغير إذنه ، فاذا دعا بثوبه فلبسه فأنكر رائحته
فيقول إذا وجد رائحة كريهة من ثوبه : أينما أتوجه ألق سعداً ! (١) .
فاذا أعياه الأمر خرج إلى الناس في تلك الشياخ على تنهاتها ووسخها ،
فيقال له : ما هذا يا أبا معاذ ؟ فيقول : هذه ثمرة صلة الرحم ! قال :
وكان يقول الشعر وهو صغير ، فاذا هجا قوماً جاءوا إلى أبيه فشكوه
فيضربه ضرباً شديداً . فكانت أمه تقول : كم تضرب هذا الصبي
الضرير ، أما ترجمه ؟ فيقول : بلى والله إني لأرحمه ، ولكنه يتعرض
للناس فيشكونه إلى . فسمعه بشار فطمع فيه فقال له : يا أبت إن هذا
الذي يشكونه مني إليك هو قول الشعر ، وإني أن ألممت عليه أغنييتك
وسائر أهلي ، فإن شكوني إليك فقل لهم : أليس الله يقول ليس على
الأعمى حرج ؟ فلما عاودوه شكواه قال لهم برد ما قاله بشار ، فانصرفوا

(١) مثل يضرب لمن يلقى سوء المعاشرة في كل مكان .

وهم يقولون : فقه برد أعيظ لنا من شعر بشار ، .

يستطيع القارىء أن يستنبط من هذه القصة أشياء كثيرة ، ولكننا نخص باهتمامنا هنا عنصرين عظيمى الأثر فى نفسية بشار . أولهما نشأته التى كانت مليئة بالشقاء والتعاسة . لقي تعذيباً كثيراً من أبيه وإخوته . أما أبوه فكان صانعاً يدويا حاذقاً ولكن كان رجلاً جاهلاً على حظ كبير من الغباء وبلادة العقل . فهو لا يعرف ما الشعر وما النثر ، وعقله البليد يقبل كل ما يسمع ، تارة يقبل شكوى الناس من ابنه دون أن يتحرى من البادى بالتعدي فيضربه ضرباً شديداً ، وتارة يقبل سفسطة بشار دون مناقشة فيخرج إلى الناس يخاطبهم كما لقنه ابنه دون فهم ، حتى غاظهم ذلك منه فانصرفوا يقولون فقه أعيظ لنا من شعر ولده ، ومثل هذا الجاهل الغبي يستحيل أن يكون قدر ولده الممتاز حق قدره ، لم ينتبه إلى فرط حساسيته فعامله بفظاظة ، ولم ينتبه إلى مواهبه العقلية أو الفنية ، ونحن لا نريد فى هذا كله أن نلومه فما كان يستطيع مثله من رعاى البشر وحنالة الجمهور أن يقدر بشاراً فى إرهاف شعوره أو عقله أو شاعريته ، وهو لم يقس عليه لأنه عديم الرحمة بل لأن فظاظة المعاملة هى كل ما يعرفه وكل ما تعود عليه هو وأمثاله ، إنما غرضنا شرح مقدار الشقاء الذى يتلقاه مثل هذا الولد الممتاز من أب هذه حالة . ✓

وإخوته أيضاً لم يكونوا سوى اجلاف عاديين من سوقة البشر ، لم تههم الطبيعة شعرة مما وهبت أخاهم ، والرواية تقص علينا مثلاً

فعلياً بما آذوا به أخاهم ، ونستطيع أن نتصور أمثلة أخرى مما يؤدي به
الأخوة أخا لهم أعمى قاصراً عاجزاً ، وخصوصاً حين ينتهبون إلى
مقدار تأذيه وسهولة تأثره . والصبيان ليسوا كما تصور الفكرة
الرومانتيكية الشائعة ملائكة أبرياء ، بل هم حيوانات قاسية أنانية ،
وإلا فتأمل تألب صبية القرية على الأعمى ومقدار إيذائهم له وتأمل
إيذاء الطفل للحيوان وقسوته عليه ، حتى يأخذه أولو أمره باحسان
معاملته ويعلموه الرأفة بالحيوان الأعجم وبالضعاف من البشر .

والقصة تدل صراحة على تأذي بشار من أبيه وأخوته ، ولكنها
تدل ضمناً على تأذيه من سائر الناس أيضاً ، فلا يستشهد بهذا المثل
« أينما أتوجه ألق سعدا ، إلا فرد لقي الاساءة أنى ذهب ، فهذا بشار
يرهقه الناس خارج بيته فباوى إلى بيته يتلبس في حماء ملجأ وملاذا
فلا يجد إلا العنف والضر من أهله أيضاً . ومن هذا نفهم سر لجوئه إلى
الهجاء في هذه السن المبكرة ، فهو منذ حدثته بدأ يذوق اضطهاد
المجتمع .

أما العنصر الثانى الذى تريناه هذه الرواية فمبلغ صبر بشار وتحمله
إيذاء أهله ومساحته لهم ، فالرواية تنص صراحة على أن بشارا كان
برغم كل ما لقيه من أخوته باراً بهم ، ولو لم تنص على هذا لاستنبطناه
نحن من أسلوبها وروحها الشاملة ، فهو لا يبادلهم إساءة بإساءة ، وأقصى
ما يفعله حين يشتد ضيقه بهم أن يلجأ إلى هذه السخرية المريرة ، يسأله
الناس عن نتانة ثيابه فيقول : هذه ثمرة صلة الرحم !
وتأمل الآن فى هذه الرواية المشهورة ، يقول أحد معاصريه :

« قلت لبشار : انك لتجىء بالشئ الهجين المتفاوت . قال : وما ذاك ؟ قلت : بينما تقول شعرا تشير به النقع وتخلع به القلوب مثل قولك :

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو تظن الدما
إذا ما أعرنا سيذا من قبيلة ذرى منبر صلي علينا وسلمنا
تقول :

ربابة ربة البيت تصب الخل في الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت !

فقال : لكل وجه وموضع . فالقول الأول جد ، وهذا قلته في ربابة جاريتي . وأنا لا آكل البيض من السوق ، وربابة لها عشر دجاجات وديك فهي تجمع لي البيض وتحفظه عندها . فهذا عندها من قولي أحسن من « قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل ، عندك » .

هذه قصة مشهورة يتناقلها الناس . ولكن في أى مجال ؟ علام يستشهدون بها ؟ هم لا يروونها إلا في معرض النقد الأدبي ، كما يفهمون هذا النقد ، فيستدلون بها على أن بشارا كان له إلى جانب شعره الجيد المتين شعر ركيك سخي متساقط . ولكن أهذا كل ما تدل عليه القصة ؟ ألا ترى ناحية هامة في نفسية بشار ينبغي على دارسه أن يلتفت إليها ؟ بلى . هي تدل على مقدار بره بجاريته تلك ، وحنانه عليها . واعترافه باخلاصها في خدمته . وحرصه على أن يثيبها على ذلك .

فهذا بشار ، الشاعر العظيم المشهور ، ذو الشعر التقليدي الفخم ، وذو الشعر التجديدي الرائع ، يريد أن يرضى جاريته ويدخل على قلبها

السُرور ، فلا يستحى أن ينظم لها شعرا بسيطا بأسلوب دارج لا تأنق فيه ، لتشدده وتتغنى فيه فتشعر بغبطة وزهو ، وتفاسخ به جاراتها ورفيقاتها . لا يستحى من هذا ، ولا يهمه أن يستغرب الناس شعره الدارج هذا ، أو أن يعدوه عليه ركافة وتساقطا .

فان أردت أن تفهم هذا حق الفهم فضع بدل بشار شاعرا عظيما من شعرائنا المحدثين . ضع بدله شوقي عظيم شعراء عصرنا ، وتخيّل شوقي يشعر برأفة وامتنان نحو خادمة له عامية جاملة ، فينظم لها بضعة أبيات باللهجة الدارجة لتتغنى فيها وتفرح بها ، ولا يخجله أن يفعل هذا وهو أمير الشعراء ذو الصيت الذائع والمنزلة العالية .

هذان البيتان :

ربابة ربة البيت تصب الخل في الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

هما عندي من أحلى الشعر العربي وأعذبه وأحبه إلى النفس . وأوافق بشارا تمام الموافقة على أنهما في موضعهما لا يقلان عن معلقة امرئ القيس إشجاء للنفس البشرية . است أرى فيهما شعرا ساقطا متهافتا كما يدعون . بل أرى فيهما بلاغة بحد البلاغة الذي يضعه العرب أنفسهم : مطابقة مقتضى الحال . فليس الشعر الصحيح مقصورا على النوع الفخم الضخم السامي المترفع الذي يخاطب الآلهة على جبل الأوليب ، بل من الشعر الصحيح أيضا نوع بسيط يتناول مشاكلنا اليومية العادية التي لا امتياز فيها ولا فخامة ، وهذا يتجلى لك أن درست شعرا أوريبيا راقيا كالشعر الانجليزي ، فوجدت فيه النوعين ووجدت لكل منهما

فيه موضعاً ووجدت أهله يفخرون بهما معا . ولكن في هذا بعض خروج عن الموضوع ، فلسنا الآن في مجال النقد الفني لشعر بشار بل في مجال تعرف شخصيته الحققة ، والذي لا يعجب ببشار وما صدر منه في هذه القصة ، سواء أعجب ببيئته هذين أم استمجهما ، رجل لا يزال على قدر من صلابة القلب والعجز عن التعاطف البشرى .
والآن عد إلى رواية أخرى يكررونها كثيرا ، وقد نقلناها في هذا الكتاب مرتين :

« وأخرجت جنازته فما تبعها أحد إلا أمة له سوداء سندية عجماء ما تفصح ، رأيتها خلف جنازته تصيح : واسيداه ! واسيداه ! » .
هم يستدلون بها دائما على كراهية أهل عصره له وإجماعهم على بغضه وتنفسهم الصعداء حين مات ، وهذا الاستثناء الوارد في الرواية « الا أمة له » يستعملونه ليزيدوا دعواهم اثباتاً ، فهذه المخلوقة الخسيسة الحقيرة هي وحدها التي حزنتم لموته وتبعتم جنازته . ورنه الاستهزاء في هذه الجملة واضحة ، تأمل في حشدهم لصفات الذم فيها : أمة ، سوداء سندية ، عجماء ، ما تفصح ..

ولكن ما رأى القارىء إذا قلت : هذه المخلوقة الخسيسة الحقيرة لعل رأيها في بشار أصدق من رأى سائر معاصريه وأقرب إلى الانصاف ، ولعل شهادتها وحدها ترجح شهادة الآخرين جميعا . أقول هذا بهدوء تام ، لا يدفعني الأثر ولا تعمد المبالغة . فهذه الأمة ، السوداء ، السندية ، العجماء ، التي لا تفصح ، قد عرفت بشارا الحقيقي ، وخبرت نفسيته في أصالتها ، خبرته في داخل منزله ، حيث يتجلى الرجل على

حقيقته وينزع عن وجهه القناع الاجتماعى الذى يتخذه أمام الناس .

كم من رجل يلقاه الناس فيجدونه بشوشا لطيفا رقيق الحاشية ، فيعجبون به ويتحدثون عن لينه وطيبة قلبه ، وهو فى صميمه فظ قاس غليظ القلب لا يتخذ ذلك القناع مع الناس الا رياء ، فان أردت أن تعرفه على حقيقته فتتبعه إلى عقر داره ، وانظر جفاوته مع زوجته وشراسته على أولاده ، وفظاظته مع خدمه ، وأنانيته الكبرية فى معاملته لهم جميعا .

أما بشار فكان الضد النقيض . يلقى الناس فلا يريهم إلا الفظاظة والغلظة ، يفعل ذلك لا لأنه فى صميمه غليظ فظ ، بل لطول ما قاساه منهم وفرط ما ناله من ايذائهم واضطهادهم ، ولأنه استكشف بعد التجارب القاسية أن خير حماية له من تتبعهم إياه بالأذى هى أن يرتدى أمامهم هذا القناع المرعب المخيف . ولكنه يدخل إلى منزله فيلقى بهذا القناع جانبا فتتبدى نفسيته الحققة على أصالتها ، فإذا به رحيم بأهل بيته رفيق بهم حذب عليهم . فان كانت جنازته لم يتبعها أحد الا تلك الأمة السوداء السنديّة العجباء التى لا تفصح فهذا له شهادة كافية ، فما كانت لتفعل هذا متحدية رأى الناس جميعا وهى تعلم مقدار بغضهم له لولا أن هزتها دوافع قوية قاهرة من الامتنان الصادق والحزن الحقيقى الذى لا زيف فيه فأعطتها هذه الشجاعة النادرة .

حنان

أ كان قلب بشار صخرة لا تستجيب لعاطفة إنسانية ولا تتأثر بما يتأثر به سائر البشر من ألوان الاحساس الرقيق من رحمة أو حب أو حنان ؟ سنلتفت الآن إلى ناحية أخرى في بشار تقدم لنا معولا جديداً ننقض به هذه الفكرة الشائعة ، وهي حبه الشديد لأولاده وجزعه المربع حين ماتوا .

ولكن قبل أن أسوق إلى القارىء هذه الاستشهادات الجديدة لا بد أن أثبت له نصيبها من القوة . فإننى أخشى أن يقول : أو في هذا صحة استشهاد على رفته ؟ ألا يجب كل الناس أولادهم ويجزعون لموتهم ؟ أو في هذا إذن فضيلة تعد لبشار في سجل حسناته ؟

وجواب هذا السؤال هو بلا شك : أجل . فإن أنت قرأت بعض الدراسات التحليلية التي وضعها كبار الدارسين يتناولون فيها شخصية مجرم ذى وجود حقيقى فى التاريخ أو خلقه خيال أديب روائى أو تمثيلية عظيم ، فإنك واجد أن هؤلاء الدارسين فى إصدارهم حكمهم النهائى على شخصيته يدخلون فى حسابهم أية ناحية فيه تشهد بنوع من الحنان أو الحب كائناً ما كان . يعدون فضيلة له أنه أحب زوجته أو عشيقته وبر بها ، أو أنه أحب أولاده وحنأ عليهم . ويستعملون هذا فى تلطيف الصورة الشائعة عن نصيبه من الشر .

وسبب هذا بسيط : أنه ليس كل الناس يحبون أولادهم ، وليس كل الناس يرأفون بقلذات أ كبادهم . أما هذا الحكم الثانى : ليس كل الناس يرأفون بأولادهم ، فيسلم به كل قارىء دون مجادلة . فكل قارىء

لا شك يعرف أمثلة عديدة من آباء قسوا على أولادهم وأهدروا حقوقهم
البنوية وأفسدوا مستقبلهم وضيعوا فرصهم في الحياة ، عن عمد لا عن
جهل . ولكن كثيرين من القراء سيثشككون في قولي أن بعض الناس
لا يحبون أولادهم ، الفكرة الرومانتيكية الشائعة لديهم هي أن كل
والد فهو بالغريزة يحب ولده ، مهما يبد منه من أساءة أو ظلم متعمد .
وهذه الفكرة الشائعة ليست خاطئة كل الخطأ ، فهي الأمر العادي

المعهود ، ولكن لها استثناءات ، فهناك شواذ بشريون لا تتحقق فيهم
هذه الغريزة المألوفة ، فهم لا يحسون نحو أولادهم بحب أصلا ، بل هم
يكرهونهم كرها صادقا ، ولست أعني أنهم يكرهونهم كرها مكتسبا
ولده فيهم سوء خلق أبنائهم أو عقوقهم ، بل أعني أنهم يكرهونهم
كرها طبيعيا أصيلا لا سبب له سوى نقص بالطبيعة البشرية

- والحيوانية - التي تتحقق في معظم الناس ومعظم الحيوانات اللبونة .
وهذا الادعاء على غرابته هو ما تثبته دراسة العلم ، ودراسة التاريخ ،
ودراسة واقع الحياة ، ولعل القارئ لو فكر في تجارب حياته تفكيرا
كافيا لوجد فيمن عرفهم من الناس مثلا أو مثلين لهذا الوالد الشاذ .
وهو على أي حال يستطيع أن يجد أمثلة عديدة لهؤلاء الآباء والأمهات
في روائع الأدب الأوربي الروائي أو التمثيلي ، والحكم بهذا الأدب
مقبول لأنه مستمد من صميم الحياة الواقعة .

فان كان هذا صحيحا فمغزاه أننا في دراستنا لرجل يتحدث الناس
عن إجرامه وشبهه يصح لنا أن نستشهد في تخفيف الصورة الشائعة عنه
بتحقيق هذه الغريزة الأبوية فيه ، فان هذا يثبت أنه لم يكن شاذا تام
الشذوذ عن الطبيعة الإنسانية ، فليس من العدل اذن اخراجه عن نطاق

البشر ، بل لا بد أن نعطيه من التسامح والعفو ما نعطيه سائر الناس .
تأمل إذن في القصة الآتية :

« توفي ابن لبشار فجزع عليه . فقيل له : أجر قدمته ، وفرط
افتراطته ، وذخر أحرزته . فقال : ولد دفنته ، وثكل تعجلته ، وغيب
وعدته فانتظرته ، والله لئن لم أجزع للنقص لا أفرح الزيادة .
وقال يرثيه :

أجارتنا لا تجزعي وأنبي أتاني من الموت المطل نصيبي
بني على رغمي وسخطي رزنته وبدل أحجارا وجال قليب
وكان كريحان الغصون تخاله ذوى بعد إشواق يسرو طيب
أصيب بني حين أوراق غصنه وألق علىَّ الهم كل قريب
عجبت لأسراع المنية نحوه وما كان لو مُسأَّيته بعجيب

وهي أبيات تامة الصدق عظيمة الجوى شديدة التأثير .^(١) وستزداد
تقديرها لها ان قارنتها بدرة الشعر العربي في رثاء الولد ، أعنى مرثية ابن
الرومي لولده الأوسط ، فانك واجد كثيرا من الأفكار المشتركة بل
الصور الأدبية المشتركة .

وتأمل هذه القصة أيضاً :

« حضرنا جنازة ابن لبشار توفي ، فجزع عليه جزعاً شديداً ، وجعلنا
نعزيه ونسليه فما يغنى ذلك شيئاً . ثم التفت إلينا وقال : لله در جرير
حيث يقول وقد عَزَى بسوادة ابنه :

(١) تجد في الخالدين ص ٧١ أبياتاً أخرى من هذه القصيدة الجميلة .

قالوا نصيبك من أجر فقلت لهم كيف العزاء وقد فارقت أشبالي
ودعني حين كف الدهر من بصرى وحين صرت كعظم الرمة البالي
أودى سواده يجلو مقلتي لحم باز يصصر فوق المربأ العالى
إلا تكن لك بالديرين نائحة فرب نائحة بالرمل معوال

وقوة التأثير في هاتين القصتين رفض بشار للعزاء وجرأته على التعبير
الصادق عن حزنه الحقيقي وان تحدى آراء رجال الدين في وجوب
الاغتباط بكل مصيبة، وهو في هذا لا يزيد على أن يسطر تسطيرا مختصا
ما يحدث في نفس الوالد حقا من الغضب وعدم الرضى . ولكنه يفوق
أبياته الماضية إشجاء للنفس الأبيات الواردة في القصة الآتية:

« رأيت بشارا المرعث يرثى له بنية وهو يقول :

يا بنت من لم يك يهوى بنتا ما كنت إلا خمسة أو ستا
حتى حملت في الحشى وحتى فمت قلبي من جوى فانفتا
لأنت خير من غلام بتا يصبح سكران ويمسى بهتا^(١)

قلت أن هذه الأبيات تفوق الماضية استشارة للشجن ، وسر ذلك
أن بشارا يعترف فيها على نفسه ، يعترف بأنه حين ولدت له تلك الطفلة
كرها ونفر منها ، لأنه كان يفضل الابن . واعتراه هذا يؤكده صدقه
في دعواه الحزن اللاذع حين فقدها ، ويرينا من ناحية أخرى أنه لم يكن
قاسى القلب كما يدعى الناس ، فهو برغم كراهيته للأناث من الولد وخيبة

(١) بت : انقطع عن العمل ، وأقبل على السكر والحماقة ، بهت : مبهوت

شارد العقل .

أمله حين لم يولد له ابن ذكر أحب هذه البنية تدريجاً وازداد تعلقاً بها
حتى حلت في حشاه فتفتت قلبه حين ماتت. وكم من آباء أعرفهم ويعرفهم
كل قارىء لا يصيرون إلى الرضى بالأناث أبداً.
وقوة تأثير هذين البيتين :

لأنت خير من غلام بتا يصبح مسكران ويمسى بهتا
انهما يدلان على عكس ما يدعيه بشار ، يدلان على انه لا يزال
في صميمه يفضل أن يولد له الابن الذكور ، فان كان برغم اصراره على
تفضيل الذكور قد قبل تلك البنية ، ورضى بها وأحبها كل ذلك الحب
وجزع لموتها كل ذلك الجزع ففي هذا ما فيه من دلالة على قابليته لفتح
قلبه لدواعي الخنان .

كريم

العجب أن الناس في بغضهم لبشار لا يكتفون بتعداد رذائله
الحقيقية أو بالمبالغة في ضخامتها ، بل يفترون عليه عيوباً لم تكن به
قط . فهم مثلاً يرمونه بالبخل ، وهو مهما تسكن عيوبه الأخرى كان
أبعد الناس عن هذه الصفة . فقد كان سخياً جواداً بماله (١) ، فاتحاً بيته
للمعتفين ، عظيم العطف على المعوزين من أصحابه يساعدهم بأقصى
ما يستطيع . يروون أنه كان يعطي أبا الشمقمق في كل سنة مائتي درهم ،
وتعود عليها أبو الشمقمق حتى سماها « الجزية » ، هذا مع أنه لم ينل

(١) طه حسين يعترف له بالكرم ، ولكنها الفضيلة الوحيدة التي يسلم بها لبشار .

بشار منه شكرانا ولا اعترافا بالجميل . بل ناله الجحود والهجاء والتهديد .
ثم يروون القصة الآتية :

« جاء أبو الشمقمق إلى بشار يشكو إليه الضيقة ويخلف له أن
ما عنده شيء . فقال له بشار : والله ما عندي شيء . يغنيك ، ولكن قم
معي إلى عقبة بن سلم . فقام معه فذكر له أبا الشمقمق وقال : هو شاعر
وله شكر وثناء . فأمر له بخمسمائة درهم ، فقال له بشار :

يا واحد العرب الذي أمسى وليس له نظير
لو كان مثلك آخر ما كان في الدنيا فقير

فأمر ابشار بألفي درهم . فقال له أبو الشمقمق : نفعتنا ونفعتناك
يا أبا معاذ ! فجعل بشار يضحك . »

تأمل كرمه الأصيل في هذه القصة . يأتيه ذلك الشاعر المسكين
وليس عنده ما يكفيه ، وقد كان يستطيع أن يعتذر بضيقه ويكون
اعتذاره صحيحا واجب القبول . ولكنه يأبى إلا أن يأخذه إلى ولي
نعمته فيستجديه له . وتأمل أيضا سوء أدب أبي الشمقمق وقلة ذوقه ،
لا يشكر له ما بذله من أجله من جهد ، بل يقول نفعتنا ونفعتناك ! أي
يأبى أن يعترف له بفضل فيقول إن كنت نفعتني فقد نفعتك أيضا .
فلا يحتاج بشار على جحوده بل يضحك .

واقرا الآن مرة أخرى هذه القصة التي سبق أن رويناهما :

« بعض الشعراء قال : أتيت بشارا الأعمى وبين يديه مائتا دينار .
فقال لي : خذ منها ما شئت ، أو تدري ما سببها ؟ قلت : لا . قال :

جاءني فتى فقال لي : أنت بشار ؟ فقلت : نعم . فقال : إني آليت أن
أدفع إليك مائتي دينار ، وذلك أني عشقت امرأة فجئت إليها فكلمتها
فلم تلتفت إلي ، فهممت أن أتركها فذكرت قولك :

لا يؤيسنك من مخبأة قول تغلظه وإن جرحا
عسر النساء إلى مياسرة والصعب يمكن بعدما جمحا

فعدت إليها فلا زمتها حتى بلغت منها حاجتي .

يستشهدون بها على دعارته وإفساده للشبان في عصره ، وهي إن
دلت على هذا فإنها تدل بايقنا على شيء آخر ، على كرمه وجوده يماله .
يأتيه ذلك الرجل وبين يديه مائتا دينار (أو مائتا درهم في رواية أخرى)
فيقول له : خذ منها ما شئت .

وما كان بشار ليفخر بكرمه في الموطن الآتي لو لم يكن في فخره
هذا صادقا :

« أنشد بشار جعفر بن سليمان :

أقل فانا لاحقون وإنما يؤخرنا أنا يعد لنا عدا
وما كنت إلا كالأغراب جعفر رأى المال لا يبقى فأبقى به حمدا

فقال له جعفر بن سليمان : من ابن جعفر ؟ قال : الطيار في الجنة .
فقال : لقد ساميت غير مسامى ! فقال : والله ما يقعدني عن
شأوه بعد النسب ، لكن قلة النشب ، وإني لأجود بالقليل وإن لم يكن
عندي الكثير ، وما على من جاد بما يملك ألا يهب البدور . فقال له
جعفر : لقد هزرت أبا معاذ . ثم دعى له بكيس فدفعه إليه ، .

كان بشار حقا يحد بالقليل إن لم يكن عنده الكثير ، فان لم يكن
عنده قليل يحد به استجدى لمستجديه ، كما رأينا في القصة السالفة .
ولقد صدق أيضا في فخره :

نارى محرقة ويبقى واسع للعتفين ومجلسي معمور
وهو القائل حين افتقر :

لقد كنت لأرضى بأدنى معيشة ولا يشتكى بخلا على رفيق

خليلي أن المال ليس بنافع إذا لم ينل منه أخ وصديق
ولنا أن نسأل . أين كان هؤلاء الأصدقاء والرفاق الذين لم ينقطع
عنهم كرمه ، أين كانوا حين مات فلم يتبع جنازته منهم أحد ؟

سيسأل القارىء : إن كان هذا حقا فما باله يسأل الأغنياء فيلحف
في سؤالهم ، بل يهددهم بالهجوم إن لم يعطوه ، وينفذ تهديده هذا ؟
أليس في هذا جشع ولؤم طبع ؟

والجواب الصحيح لا شك أن ليس في هذا جشع أو لؤم طبع ،
فان بشارا كان يعتقد أنه ليس يسألهم منة إنما يطالبهم بحق له عليهم ،
هم أغنياء وهو شاعر فقير لا مكسب له إلا عن طريق اعتراف الناس
بقدره في الشعر ومكافأتهم إياه على هذه الموهبة . وخصوصا إذا تذكرنا
أنه أعمى لا يستطيع أن يحترف حرفة يكسب بها قوته . والقصة التي
رد فيها على الشيخ الذي سأله ما صناعته فقال : أثقب اللؤلؤ ، تدل على
أنه كان يعتبر شعره حرفته التي ينبغي أن يعطى أجرها . فان لمنا الشعراء
المبصرين الذين تكسبوا بشعرهم واعتقدوا أنه يستأهل لهم الرزق

فانه يكسب
مالا
البارود

المرى
لا طلع
الأرزاق
المرى

وحده دون أن يؤدوا للمجتمع خدمة عملية فأننا لا نستطيع أن نوجه
 هذا اللوم إلى شاعر كفيف. وإلا فإذا كنا ننتظر أن يفعل؟ يشق اللؤلؤ؟
 اعتقد بشار أنه يستحق المكافأة على شعره وحده ، وأنا أرى أنه
 كان في اعتقاده هذا محقا ، على أنه لا يهمننا أبداً أكان في اعتقاده
 مصيبا أم كان مخطئا ، لا يهمننا هذا في المجال الذي نحن فيه ، مجال الحكم
 الخلقى عليه ، فالهم هو أن الذى يظن هذا الظن لا يكون إلحاحه في سؤال
 الأغنياء صادراً عن جشع أو عن لؤم طبع . أضف إلى هذا أن بشارا
 كان سىء الظن في أغنياء عصره ، حتى قال حين ليم على كثرة الهجاء :
 إني وجدت الهجاء المؤلم آخذ بضبع الشاعر من المديح الرائع ،
 ومن أراد من الشعراء أن يكرم في دهر اللئام على المديح فليستعد
 للفقر وإلا فليبالغ في الهجاء ليخاف فيعطى . ولا يهمن - مرة أخرى -
 أن يكون محقا في سوء ظنه هذا أو غير محق ، فالحقيقة تبقى ، أن من
 لديه مثل هذا الظن السيء لا يكون إلحافه في المطالبة صادراً عن جشع
 أو لؤم ، بل أقصى ما يقال فيه أن يكون صادرا عن اعتقاد مخطيء ،
 وهذا لا يطعن في دوافعه الخلقية بل يطعن في صحته العقلية . ولبشار
 قصيدة رائعة لا تترك في هذا مجالا للشك ، هي القصيدة المشهورة التي
 قالها حين حرمه المهدي ولم يثبه على مديحه :

خليلى أن العسر سوف يفيق	وإن يساراً في غد خليك
ذرائى أشب همى براح فاني	أرى الدهر فيه فرجة ومضيق
وما كنت إلا كالزمان إذا صحا	صحوت وإن ما ق الزمان أموق
أأدما لا أستطيع في قلة الثرى	خزوزا وو شيا والقليل محيق

خذى من يدي ما قل ان زماننا شمس ومعروف الرجال رقيق
لقد كنت لا أرضى بأدنى معيشة ولا يشتكى بخلا على رفيق
خليلي أن المال ليس بنافع اذا لم ينل منه أخ وصديق
وكنت اذا ضاقت على محلة تيممت أخرى ما على تضيق
وما خاب بين الله والناس عامل له في التقى أو في المحامد سوق
ولا ضاق فضل الله عن متعفف ولكن أخلاق الرجال تضيق

فلا تفتقد
الخال يتفقد
المشاعر
فان غيبته
عراة

جمهور المتأدبين يعجبون كثيرا بهذه القصيدة ، ويكثرون الاستشهاد
بأبياتها يتمثلون بها ويعلمونها أولادهم ويرغمونها في موضوعات
الإنشاء على التمثيل بها ، وهم في هذا محقون ، فهي قصيدة جد بدیعة ،
ولكنهم لا يلتفتون في هذا كله الى دلالتها على شخصية قائلها ، كأن
أبياتها درر وجدت بالطبيعة دون منشيء ! فهذه قطعة شعرية تامة الصدق
حارة الأخلاص ، والذي يقول هذه الأبيات الفائقة ليس نظاما يظهر
براعته في نظم الحكم السوقية المبتذلة ، بل هو رجل آمن إيمانا عميقا
بلزوم الكرم وضرورة السخاء في المجتمع الانساني . فان أجاد
القارىء تفهم هذه القصيدة فانها تكشف له عن أشياء كثيرة .
سيرى أن بشارا ليس محزوننا لحرمانه فحسب ، بل الذي يهيج أعظم
حزنه هو صفة البخل في الممدوح وشيوع الشح بين الناس : « ومعروف
الرجال رقيق . » أخلاق الرجال تضيق . . هذا هو الذي يحزنه أشد
الحزن ، قلة الوفاء بين الرجال وانعدام الكرم الصادق الصادر عن سعة
الأخلاق ، فان كان هذا الشعور يصاحبه تحسر على حالته فليس تحسره
مقصورا على أنه هو حرم لذات وخيرات كان يستمتع بها ، بل يؤلمه

أيضا أنه في فقره هذا لن يستطيع أن يستمر فيما كان يألفه من التكرم على الرفاق، وهذا واضح في اعتذاره إلى صاحبه التي يسميها « ادماء » وفي تثنيته هذا الاعتذار إليها بذكرها بأنه حين كان ميسور الحال لم يكن بخيلا . وما كان يستطيع ان يقول هذا في هذا المجال لو كان بخيلا حقا .

ومعلوه الأدب ومتعلوه يعجبون أيضاً أكبر إعجاب بمدح بشار لعقبة بن سلم ، ويكثرون من روايته والاستشهاد به ، من مثل قوله :

إنما لذة الجواد ابن سلم في عطاء ومركب للقاء
ليس يعطيك للرجاء ولا الخوف ولكن يلذ طعم العطاء
يسقط الطير حيث ينتثر الحب وتُغشى منازل الكرماء

ولا ينتهون إلى أن السر الحقيقي في جودة هذا المديح هو أنه صادر عن إعجاب صادق بفضيلة الكرم ، شأنه في ذلك شأن مدائح المتنبي الرائعات التي نظمها فيمن استشاروا منه إعجاباً صادقاً .

وهم يعجبون كذلك بالقطعة الآتية في ذم بخيل ، ويحفظونها أولادهم ويختارونها في كتاب « المنتخب من أدب العرب » للدارس الثانوية :

ظل اليسار على العباس ممدود	وقلبه أبداً بالبخل معقود
ان الكريم ليخفي عنك عسرتة	حتى تراه غنياً وهو مجهود
وللبخيل على أمواله علل	زرق العيون عليها أوجه سود
إذا تكبرهت أن تعطى القليل ولم	تقدر على سعة لم يظهر الجود
أورق بخير ترجى للنوال فما	ترجى الثمار إذا لم يورق العود

بُثَّ النوال ولا تمنعك قلته فكل ماسد فقرا فهو محمود

ولا يلتفتون إلى أن قائل هذه الأبيات قد كره البخل كرها صادقا عميقاً^(١). ومن الهام أن نلاحظ هنا أن جزءاً عظيماً من هجاء بشار مصبوب على البخلاء .

على أن بشاراً لم يكن جواداً بماله وحده ، بل كان جواداً بما قد يكون أعز من هذا وأندر في أوساط الشعراء ورجال الأدب ، كان جواداً بنصحته وإرشاده لغيره من محترفي الشعر والأدب ، وبعضهم كان من منافسيه . يقصون عنه قصصاً كثيرة يستمتع فيها إلى شعرهم ويقرظه أو ينقده ويقترح فيه تحسينات ويتنبأ لهم بمقدار الإجازة التي سينالونها عليه . ويقول الأصمعي أن مروان بن أبي حفصة لم يكن في حياة بشار يقول شعراً حتى يصلحه له بشار ويقوِّمه . ومروان هذا كان من منافسيه وقد استمرت المفاضلة بين شعريهما عهداً طويلاً بعد وفاتهما . ولكن القارىء لا يدرك سخاء هذه المعونة الأدبية حق الإدراك إن ظن أن منافسيه أولئك لم يكونوا يهددونه إلا في الشهرة والمنزلة الشعرية . والحق أنهم كانوا ينافسونه لا في هذا الاعتبار المعنوي وحده بل في تحصيل الرزق والظفر ببلغة العيش ، فالشعر كان حرفتهم جميعاً ،

(١) وله أيضاً هذه الأبيات الصادقة :

قل للأمير إذا نزلت به	ان المباخل ذمها عجل
بش المروءة من ذوى حسب	جاعت قرابتهم وقد ثملوا
شبع الأمير وجوع صاحبه	غار الحياة فأطعموا وكلوا

وواضح فيها أنه لا يشكو بخل الأمير عليه بل بخله على أقاربه

والذى يجود بنصحه وإرشاده ومعونته على منافسيه فى اللقمة يكون كريماً حقاً ، فما بالك به إذا تذكرت أنه أعمى وهم مبصرون يستطيعون إلى الرزق سبيلاً هو عاجز عنها ؟

مُصادق

فضيلة أخرى عظيمة لاشك فى وجودها ببشار : أنه كان رجلاً عظيم التقدير للصدقة محتفظاً بأصدقائه ودوداً إليهم شديد الحرص عليهم .

صحيح أن أصدقاءه نالهم منه هجاء كثير ، ولكن هذا لا ينفى شغفه بهم وتمسكه بصدقاتهم وبذله كل جهد فى الاحتفاظ بها . والقدماء أنفسهم يؤكّدون لنا أن بعض هؤلاء الذين هجأهم كانوا من أعزهم عليه وأشدهم مكانة فى نفسه . ولا تنس أيضاً أنه هو قد ناله من أصدقائه — لا من أعدائه وحدهم — أذى كثير ، رأيت فى بعض القصص الماضية ، ورأيت كيف كان يقابله كثيراً بالعفو والصبر .

نريد أولاً أن ننبه القارئ إلى أن الصفة التى نحاول الآن إثباتها لبشار ليست مجرد كرمه وسخائه على أصدقائه ورفاقه ، فهذا شيء قد فرغنا منه فى الفصل الماضى ، إنما هى صفة أخرى أغلى وأندر ، هى إدراكه لقيمة الصدقة وحرصه عليها ، وهى صفة يؤسفى جداً أن أقول أنها قليلة الوجود فى المجتمع الشرقى ، لا فى عصر بشار فحسب ، بل فى عصرنا نحن أيضاً . ولست نحتاج فى إثبات هذه الصفة له إلى أكثر من أن نسوق له شعراً بديعاً فى هذا الموضوع .

يروون :

« كان لبشار خمسة ندماء ، فمات منهم أربعة وبقي واحد يقال له البراء ،
فركب في زورق يريد عبور دجلة العوراء فغرق ، وكان المهدي قد نهى
بشاراً عن ذكر النساء والعشق ، فكان بشار يقول : ما خير في الدنيا
بعد الأصدقاء . ثم رثى أصدقاءه بقوله ، قصيدة نكتفى منها الآن بهذه
الآيات :

كان لي صاحباً فأودى به الدهر — فقارقه عليه السلام
بقي الناس بعد هلك نداما — ووقعوا لم يشعروا ما الكلام
كجزور الأيسار لا كبد في — لها لباغ ولا عليها سنام
يأبن موسى فقد الحبيب على العي — ن قذاة وفي الفؤاد سقام
كيف يصفو لي النعيم وحيدا — والأخلاء في المقابر هام
نفسهم (١) على أم المنايا — فأنا متهمو بعنف — فناموا
لا يغيض انسجام عيني عليهم — إنما غاية الحزين السجام
الذي يقول هذه الآيات الصادقة الحزن كان يعز الصداقة حقاً .
وهو مخلص حين يقول : ما خير في الدنيا بعد الأصدقاء . تأمل جيداً
قوله : كيف يصفو لي النعيم وحيدا .

وحين يقول :

وأودعت عمراً بعض ما في جوانحي — وجرعته من مر ما اتجرع

(١) نفسهم : حسرتهم .

ولا بد من شكوى إلى ذي حفيظة إذا جعلت أسرار نفسى تطلع
يقطع كل شك في تقديره لقيمة الصداقة ، فهو يعترف بالحقيقة
الحاصلة ، فلو أنه ادعى أنه يريد الأصدقاء ليتكرم عليهم ويحسن إليهم
لعرفنا أنه كاذب في دعواه واستنتجنا أنه لا يقدر الصداقة تقديرًا صادقًا.
ولكنه لا يدعى شيئًا من هذا ، بل يعترف بأن غرضه الأول من
أصدقائه هو أن ينفس عن آلامه بالبوح بها إليهم ويخفف من كربه
ياشراكم فيه . والذي يعترف بهذا لا شك يعرف قيمة الصداقة الحققة .

أما حين يقول لصديق خانه :

لو كنت لي سيفاً غداة الوغى طبت به نفساً لأعدائي
أو كنت نفسي جمعت في يدي ألقيتها سمحاً بالقائي
لأرقات عين امرئ أنوك^(١) يبكي أخا ليس بكساء

فهو يثبت لنا هذه الصفة فيه بطريقة أخرى دون أن يدري . فهو في
هذه الأبيات هائج أشد الهياج على صديقه العاق هذا ، ويحمله هياجه
على أن يدعى أنه ليس محزوناً على خسارته ويدعى أنه سعيد بالتخلص
منه ، ولكنه في هذا كله يثبت — دون أن يدري — مكانة صديقه
هذا في نفسه ولوعته العظيمة على خسارته ، وإلا فهل كان يغضب هذا
هذا الغضب ويصيح هذه الصيحات لو كان الذي هجره رفيقاً لا يبالي
بهجرانه ؟ والذي يقول البيت الأخير رجل بكى فعلاً لخيانة صديقه ،
ثم غضب على نفسه لبكائه فهو يأخذ نفسه أخذاً شديداً ويحاول أن

(١) أنوك : أحق .

يرغم عينه على احتباس دمعها. وهذا مثل آخر يريك أن ادعاء الشخص
كثيراً ما يدل على عكس ما يريد أن يدعيه. فإن أردت أن تزاد بهذه
الآيات الجميلة فهما فتصور تجربة إنسانية أخرى مشابهة. تذكر مثلاً
حال أب يعقه ولده ويهجره، فيصيح: أتظنون أنى محزون لأنه عفى
وهجرني؟ لا والله العظيم أنا مسرور. فى داهية! لا أريد أن أرى وجهه
أبداً ما عشت... إلى آخر ما يقول مثل هذا الأب المجرع. فعلام
يدل كلامه؟ هو كلما بالغ فى ادعائه زادنا تثبتاً من مقدار حزنه والتياغه.
وبعد فبشار هو القائل:

إذا كنت فى كل الأمور معاتباً صديقك لم تلق الذى لاتعاتبه
فعش واحداً أوصل أخاك فانه مقارف ذنب مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى
ظمئت وأى الناس تصفو مشاربته

هذه أيضاً آيات صادقة فائقة الجمال والسمو، يعجب بها الناس
ويحفظونها ويرددونها ويعلمونها أولادهم، ولا ينتبهون هنا أيضاً إلى دلالتها
على نفسية قائلها، والذى يتأملها تأملاً صحيحاً يرى أنها تثبت إثباتاً
نهائياً أن قائلها مستحيل أن يكون كما يتصوره الناس خوفاً لئيم الطبع
غداراً، بل هو رجل فى فرط حفاظه على الصداقة يتحمل الكثير ويتجرع
الكثير. وقد قال أيضاً (١):

أحسن صحابتنا ولا تك جافياً فالدر يقطعه جفاء الحالب

وارجع كما رجع الحليم ولا تكن

كمقارف ذنبا وليس بتائب

والذى يقول هذين البيتين رجل يصل فى حرصه على استعادة اصدقائه
الذين جفوه حد التوسل وان يكن فى هذا إذلال له .

نعود فنسأل : أين كان هؤلاء الأصدقاء حين مات فلم يتبع جنازته
منهم احداً ؟ أقعد بهم الجبن فلم يجرؤوا على تحدى شعور الناس ؟ أم تراهم
ماتوا جميعاً قبل موته ؟ ذلك ما نرجوه فهو أكرم لهم .

سيقولون : فما بالهم جؤ أصدقاءه ورفاقه فى الزندقة ، فيرميهم بنفس
عيوبه من الزيغ وترك الصلاة والصوم والفسق ، كما ترى فى هجائه
لعبد الكريم بن أبى العوجاء وفى هجائه الطويل لحماة مجرد ؟ أليس هذا
أو ما وخيانة ؟

وجوابنا : ليس فى هذا لؤم أو خيانة . بل هو عجز نقادنا عن ان
ينظروا فى هذا الهجاء بالنظرة التاريخية الصحيحة ، فهم يحكمون عليه
بالاعتبار الذى يطبقونه لو صدر من شاعرين متهاجين فى عصرنا ،
والحق أن لم يكن فى ذلك الهجاء من النيل أو الأيلام ما يكون له لو قاله
احد شعرائنا المعاصرين يهجو به زميلا له ، ولقد كان يصدر عن شعراء
ذلك العصر بلا حقد ولا ضغن ، إنما هو فن يتبارون فيه ويحاول كل
منهم أن يزيد على الآخر براعة فى اشتقاق السباب . وهى ظاهرة
أدبية واجتماعية نشأت فى ذلك العصر وكانت امتداداً للنقائص التقليدية
فى صورة جديدة وشارك فيها كل الشعراء المجان الذين تنادىوا على

الخمر وتشاركوها في الاستهتار ، فكثيرا ما حولوا حلقات مجونهم إلى مباريات في التهاجي . وهو بعد فن ليس تام الغرابة علينا ، صحيح أنه لا يصدر الآن عن شعرائنا ، ولكن نقادنا لم يكونوا يحتاجون إلا إلى أن يتأملوا ظاهرة أخرى عندنا شديدة الشبه لسكي يدر كوا الطابع الحقيقي لتلك المهاجاة ، والظاهرة التي نغنيها هي حين يهب صديقان من العامة في مجلس منادمة أو حفلة زفاف أو ختان أو ما أشبهها من المناسبات فيتباريان فيما يسمى « الدخول في قافية » . يقول أحدهما : أبوك . فيقول الآخر : اشمعي . فيقول الأول : كذا وكذا . ثم يبدآن بينهما في ردقائلا : أمك : فيقول له زميله : اشمعي : فيقول : كيت وكيت . وليس أحدهما حائقا على زميله ولا هو يعتمد الأيذاء ولا هو يريد أن يسب أمه أو أباه وإنما يتنافسان في هذا الفن ويضحكان السامعين ويضحكانهما أيضاً وحين تنتهي المباراة يعودان إلى المصادقة والصفاء .

فيسمى نقادنا هذا خيانة وغدرا ، وينسون أن بشارا ان كان هجا الآخرين فقد هجوه أيضاً !

ولكن أعجب العجب ان يؤاخذ نقادنا بشارا على هجائه حماد بمجرد وأن يروا في رميه إياه بالزندقة خيانة . وهو ان كان هجا حماداً بالزندقة فقد هجاه حماد أيضاً ، وقد طال تهاجيهما فلم تبق وصمة إلا رمى كل منهما بها صاحبه . صحيح أن هذه المهاجاة حين طالت انتهت إلى قدر عظيم من المראה والتأذي ، ولكن منشأها لم يكن إلا ما شرحتناه من التباري في الهجاء ، والشأن فيها كالشأن في « الدخول في قافية » الذي لا يزال

نجدته في عصرنا ، حين يطول ينتهي أحيانا إلى المعاداة الحقيقية ان لم يسرع السامعون بفض الحلقة وإسكات المتنافسين ، فمن السخف البالغ أن ننحاز إلى صف حماد ضد بشار في هذه الخصومة التي استطارت وبلغت شناعة زائدة . على أنه ان استحق أحدهما أن نخفف من لومنا له فذلك بشار لا حماد ، ونقادنا حين يغفلون هذه الحقيقة يقدمون أعظم دليل على إصرارهم في التحامل على بشار ، فانه لا يمكننا أن نقول انهما تساويا في الخلاعة والاستهتار ، فحماد كما يبدو من سيرته كان أشد جوحا وأقل استحياء ، والثابت أنه كان به رذيلة خلا منها بشار خلوا تاما طول حياته وهي اللواط .

وبالأغاني (١) قصة تروى عن أبي نواس لو صحت لدلت على أن حمادا كان مجوسياً حقيقياً : اللواط (الموسر)

« أخبرني احمد بن عبيد الله بن عمار قال حدثني أبو إسحق الطلحي قال حدثني أبو سهل قال حدثني أبو نواس قال : كنت أتوهم ان حماد مجرد إنما يرمى بالزندقة لمجونه في شعره ، حتى حبست في حبس الزنادقة فاذا حماد مجرد إمام من أئمتهم ، وإذا له شعر مزوج يبتين يبتين يقر أونه في صلاتهم . »

وهي رواية متصلة الأسناد كما ترى ، ولا ندرى سبباً يحمل أبا نواس على افتراء هذه القصة ، ولم يرو أحد نظيرها عن بشار قط . ومهما يكن من الأمر ففي الأغاني (٢) قصة تدل على أن بشارا ظل في هجائه حمادا

(١) أغاني ساسي ٧١/١٣

(٢) أغاني ساسي ٨١/١٣

ممسكا لسانه عن أن يسرف في الأفحاش حتى بدأ به حماد فأطلق بشار
إذ ذاك للسانه حريره :

« قال أبو عبيدة : مازال بشار يهجو حماداً ولا يرفث في هجائه إياه
حتى قال حماد [أبياتاً نمسك عن روايتها] . . . فلما بلغت هذه الأبيات
بشاراً أطرق طويلاً ثم قال : جزى الله ابن نهي خيراً . فقليل له : علام
تجزيه الخير ؟ أعلى ما تسمع ؟ فقال : نعم والله ، لقد كنت أرد على
شيطان أشياء من هجائه إبقاء على المودة ، ولقد أطلق من لسانى ما كان
مقيداً عنه وأهدفتى عورة ممكنة منه . فلم يزل بعد ذلك يذكر أم حماد
في هجائه إياه ويذكر أباه أقبح ذكر . »

نعود فنكرر أن حماداً كان أعظم من صاحبه استهتاراً وتعمداً
للشناعة وتبذلاً . على أنهما لو تساويا - وهذا مالا تسلم به - لكان
لبشار في عاهته وما لقيه من اضطهاد الناس ما يجعلنا نسامحه بأسرع
مما نسامح حماداً ، فنحن لا نجد بحمد عاهة ولا هو ناله أذى الناس
واضطهادهم كما نال الآخر . ومن هذا كله يرى القارىء أننا لم نستعمل
تعبيراً زائداً الحدة حين قلنا أن من السخف البالغ أن ننحاز إلى حماد
في هذه الخصومة المستطيرة ، أو نسمى رعى بشار إياه بالزندقة خيانة .

صفوح

اعترفنا على بشار بالنزق وسرعة الغضب وضيق الصدر ، وبأنه
كثيراً ما بدأ خصومه - وأصدقائه أيضاً - بالهجاء دون ما استفزاز .

ولكننا نخطئ . خطأ شديداً ان ظننا أنه كان هكذا في كل حالاته .
فالحق أنه كثيراً ما صفح ، كثيراً ما تحمل الأذى وصبر عليه ، مختاراً
لامضطراً .

يروون عنه :

« وقف على بشار بعض المجان وهو ينشد شعراً ، فقال له : استر
شعرك هذا كما تستر عورتك . فصفق بشار بيديه وغضب وقال له :
من أنت ويملك ؟ قال : أنا أعزك الله رجل من باهلة ، وأخوالى سلول ،
واصهارى عكل ، واسمى كلب ، ومولدى بأضاح ، ومنزلى بنهر بلال !
فضحك بشار ثم قال : اذهب ويملك ! فأنت عتيق لؤمك ، قد علم الله
أنك استترت منى بحصون من حديد . »

قد يقول القارىء : ولكن هذا عفو مضطر وليس عفو مختار .
فبشار ما كان يستطيع أن يهجو مثل هذا الخسيس فينال منه شيئاً .
وهذا صحيح ، ولكن أما كان يستطيع على أقل تقدير أن يبادله
بسبابه سباباً نثرياً ؟ بلى ، ولكنه يمسك عن هذا فيهبه للؤم أصله ،
ولا يكتفى بهذا بل يضحك ، فيدلنا على صفة أخرى قيّمة فيه سنتعرفها
بعد قليل ، هي فكاهته .

وقد وردت قصة أخرى شبيهة بهذه روينها آنفاً ، يسب فيها
رجل من عكل بشاراً بعماه وقبح وجهه ، فيقول له بشار : اذهب بأبى
أنت في حفظ الله . وقد مر بالقارىء أيضاً القصة التى يتقل فيها على
بشار بعض أصدقائه ، يؤاخذونه على ادعائه النخافة فى بيته :

في حلتى جسم فتى ناحل لو هبت الريح به طاحا
 فيقولون : يا بن الزانية أتقول هذا وأنت كأنك فيل عرضك
 أكثر من طولك ! فيقول لهم : قوموا عني يا بنى الزناء فاني مشغول القلب
 لست أنشط اليوم لمشائتكم .

وأعد الآن قراءة هذه القصة :

« غضب بشار على سلم الخاسر وكان من تلامذته ورواته ، فاستشفع
 عليه بجماعة من اخوانه ، فجاءوه في أمره ، فقال لهم : كل حاجة لكم مقضية
 إلا سلما . قالوا : ما جئناك إلا في سلم ، ولا بد أن ترضى عنه لنا . فقال :
 أين هو الخبيث ؟ قالوا : ها هو ذا . فقام إليه سلم فقبل رأسه ومثل بين
 يديه وقال : يا أبا معاذ ، خريحك وأديبك . فقال : يا سلم ، من
 الذي يقول :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج
 قال : أنت يا أبا معاذ ، جعلني الله فداءك . فقال : فمن الذي يقول :

من راقب الناس مات غما وفاز باللذة الجسور
 قال : خريحك يقول ذلك — يعني نفسه — قال : أفتأخذ معاني
 التي قد عنيت بها وتعبت في استنباطها ، فتكسوها ألفاظاً أخف من
 ألفاظي حتى يروى ما تقول ويذهب شعري ؟ لا أرضى عنك أبداً .
 قال : فما زال يتضرع إليه ويشفع له القوم حتى رضى عنه . »

قد سقناها في معرض الاستدلال على خوف الناس منه . ولكن
 أهذا كل ما تدل عليه ؟ بل هي توضح شيئاً آخر ، توضح أن بشاراً

كان في صميمه طيب القلب ميالا إلى الصفح والمساملة . فهو في الحقيقة يريد أن يصلح سلبا ولا يصبر على استمرار خصومته ، ويتوسل كل الوسائل لإتمام هذا الصلح . يأتيه إخوانه هؤلاء فيبادرهم بأن يقول : كل حاجة لكم مقضية إلا سلبا . وما معنى هذا في الحقيقة ، وما الداعي إلى أن يبدأ هو بذكر سلم قبل أن يذكر وه ؟ لا سبب إلا أنه يرجو منهم أن يفتحوه في شأنه ويستشفعوا فيه . ثم تأمل جيدا قوله مباشرة : أين هو الحديث ؟ فهي جملة تفيض في صميمها حنانا وتهدج حبا . ثم تأمل في كل عتابه إياه تجده يترقق حبا ورغبة في التصالح . فان شئت أن تزدد بهذه القصة فهما فافعل ما فعلته في قصة سابقة ، ضع مكان بشار أباياني جيرانه وأصدقائه ليعيدوا الوفاق بينه وبين ولده العاق فيحدث كل هذا الحديث الذي لا يدل على شيء سوى حبه لولده ورغبته في عودة الحال بينهما إلى ما كانت عليه .

فكاهة

من أعظم الخطأ الذي يقعهم فيه تعصبهم على بشار رميهم إياه بثقل الظل وغلاظة الروح . وهو مثال غريب على أثر الأغراض في إفساد تقدير الرجال حتى يخطئوا حقائق نامة الوضوح . فالحقيقة التي تكاد تنطق بها كل صفحة من سيرته هي أنه كان على نصيب عظيم من المرح والخفة ورشاقة الروح وجودة النكتة وبراعة الفكاهة . كان فكها حقا ، كان عنده ما يسميه الإنجليز A sense of humour بكل معاني هذا التعبير .

أما معاصروه فلا نلومهم كثيرا إذا أغفلهم عن تبين هذا ما كانت فيه من صفات أخرى ذميمة ، وما نفرهم عنه من دمامة ، وما لقوه منه من إقذاع في الهجاء . فقد عجزوا عن أن يدركوا أن الرجل قد يكون قبيح الخلقة ويكون مع ذلك ظريفا لطيف المعاشرة ، وقد يكون غليظ الجسم ضخيم الجثة ويكون مع ذلك خفيف الروح ذا مقدرة أصيلة على الفكاهة الحقة . ولا نستطيع منصفين أن نبالغ في لومهم على عدم إعجابهم بنوادره الرائعة حين نرى أن معظمها كان نقدا لا ذعا لهم ، وخصوصا إذا تذكرنا أن العرب خلوا أو كادوا يخلون من روح الفكاهة الأصيلة التي تجعل المرء يقدر المزحة الباردة وإن كانت ضده . وأما نقادنا المعاصرون فكيف نسامحهم في مجاراتهم رأى عصره في رميه بغلاظ الظل وجهامة الروح ، وهذه سيرته تفيض بالفكاهات البديعة التي هي بلا شك من أجود الفكاهات في الأدب العربي . وليس بشار أمامهم حين ينفروا من دمامته ، ولا هم نالهم من ايذائه الشخصي ما يغفلهم عن براعة نكتته ، وليست هذه الفكاهات الجيدة موجهة إليهم حتى يضيّقوا بها وينسبهم لذهاب جودتها . فإن ساحننا معاصريه في ضحالة فكرهم وقلة تمييزهم حتى قرنوا بين غلاظة الجثة وغلاظة الروح فكيف نسامح نقادنا حين يغفلون عن أن كثيرا من البارعين في الفكاهة يكونون من السمان الثقيل الأجسام ، وأن من بين ثقال الروح غلاظ الدم رجالا نحافا هزيلين ؟

والقصص التي تروى عن بشار ترى أنه كان عنده ما نسميه في لغتنا بالنكتة أو المزاح ، ولكن تدل أيضاً على أنه كان عنده قدرة

أسمى من هذه بكثير، ليس في لغتنا اسم صحيح لها، يسميها الانجليز بالاسم الذي ذكرناه آنفاً، وهي لا تقتصر على استطاعة المازحة أو «خبط النكتة» بل تقوم على ملكة عميقة يستطيع بها صاحبها أن يرى مفارقات الحياة ومتناقضات الطبيعة البشرية . والقصاص التي سنرويها عنه ترى قدرة أخرى، ليس لها هي الأخرى اسم عربي صحيح، ويسميها الانجليز Satire، وهي لا يقتصر فعلها على الأضحاك أو التجريح الشخصي، بل تحمل في طياتها نقداً عميقاً فكرياً أو خلقياً . والعربية لا تضع لها اسماً لسبب بسيط : أنها ملكة لم توجد في العرب القدماء، لالعجز وراثي في جنسهم بل لحالة مجتمعاتهم ومستوى فكرهم وثقافتهم، فمعظم الهجاء في شعرهم لا يزيد على التجريح الشخصي، فإن أضحكنا فإنما يضحكننا بخفاوته وما فيه من قذارة تخاطب فينا حب الأفحاش البدائي الكامن في كل منا مهما يكن نصيبه من التهذب . أما الفكاهات التي سنرويها لبشار فهي لا تقتصر على هذا، بل في كل منها نقد عميق لظاهرة ما من ظواهر المجتمع البشري أو الطبيعة البشرية، فهي ليست منصبية على من قيلت فيه فحسب، بل لها مغزى عام يشمل البشر جميعاً .

فبشار حين مر بقاص بالبصرة يقول في قصصه : « من صام رجباً وشعبان ورمضان بنى الله له قصرًا في الجنة صحنه ألف فرسخ في مثلها وعلوه ألف فرسخ وكل باب من أبواب بيوته ومقاصره عشرة فراسخ في مثلها » ، فالتفت إلى قائده فقال . بنيت والله الدار هذه في كانون الثاني . حين قال بشار هذا فهو لم يرد أضحاك قائده فقط، ولم يعن بوخره هذا ذلك القاص بالذات، إنما أراد أن يعبر عن سخطه على

كل أولئك القصاص الكاذبين الجهلاء ، وعن برمه أيضا بسخافة
عقول العامة الذين يقبلون هذا السخف ، ولا يزال نقده قائما إلى
يومنا هذا .

وحين مر برجل قد رحمته بغلة وهو يقول : الحمد لله شكرا ، فقال
له : استزده يزدك ، إنما كان يعبر عن سخطه على هذا النفاق الاجتماعي
المرذول . فالشعرر الطبيعي المباشر إذا أصاب الانسان مثل هذا
الحادث أن يعبر للتو عن ألمه وتبرمه . فالذى يقول : الحمد لله شكرا ،
ليس يعبر - كما قد يظن متنطعوننا الدينيون الذين قد يعجبهم مثل هذا
الادعاء - عن رضى بقضاء الله وحمد له على المكروه ، فهذا الرضى قد
يصير إليه فيما بعد حين تهدأ نأثرته ويتعزى بالحكمة أو بالدين ، ولكن
مستحيل أن يكون شعوره الصادق المبادر ، فهو لا يظهر إلا نفاقا بغضا
لعله أكره شيء إلى الله والبشر جميعا ، وما نطق بذلك الحمد إلا لأن
بقره أناسا يسمعون به فيعجبون به ، ولو كان وحيدا لما كان هذا أول
ما ينطق به .

كذلك ما قاله في القصة الآتية :

« كان بشار جالسا في دار المهدي والناس ينتظرون الاذن . فقال
بعض موالى المهدي لمن حضر : ما عندكم في قول الله عز وجل « وأوحى
ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر » ؟ فقال له بشار :
النحل التي يعرفها الناس . قال : هيهات يا أبا معاذ ! النحل بنو هاشم ،
وقوله « يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس » يعني

العلم ! فقال له بشار : أراني الله طعامك وشرابك وشفاءك فيما يخرج من بطون بني هاشم ، فقد أوسعنا غناة .

لم يقل إلا ما يستحقه ذلك السخيف وأمثاله من المتنطعين الذين يكثررون بيننا إلى يومنا هذا . ولقد وافقه المهدى في حكمه هذا كما تروى بقية القصة : « فغضب وشم بشاراً ، وبلغ المهدى الخبر فدعا بهما فسألها عن القصة ، فحدثه بشار بها ، فضحك حتى أمسك على بطنه ، ثم قال للرجل : أجل ، فجعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بني هاشم . فانك بارد غث . »

كذلك لما سأله يزيد بن منصور عن صناعته وهو يرى شيخاً أعشى ينشد الخليفة شعراً ، فأجابه : أثقب اللؤلؤ — لم تكن مجرد نكتة مضحكة ، بل كانت نقداً لأمثال هؤلاء البشر الشديدي البله ، وللبصريين الذين لم ينقصهم بصرهم ذرة من غفلتهم وعمى قلوبهم . وانظر الآن رده البارع في القصة الآتية :

« قال أبو النضير الشاعر . أنشدت بشاراً قصيدة لى ، فقال لى ، أجيئك شعرك هذا كلها شئت أم هذا شيء يجيئك فى الفينة بعد الفينة إذا عملت له ؟ فقلت : بل هذا شعر يجيئنى كلها أردته . فقال لى : قل فانك شاعر . فقلت له : لعلك حاييتنى أباً معاذ وتحملت لى . فقال : أنت أبواق الله أهون على من ذلك . »

أترأه قال إلا ما يستحقه هذا المتشاعر الصغير الذى لا يكتفى بكل ذلك المديح السخى الذى ناله من أعظم الشعراء فى عصره حتى

يقول له في صفاقة وإلحاح : لعلك حابيتني أبا معاذ وتحملت لي ! ورد
بشار يذكرني بما يروى من الفكاهات الشخصية عن ساخر عصرنا
الاعظم برنارد شو . أما حين نقرأ هذه القصة :

« دخل بشار على عقبة بن سلم ، فأنشده بعض مدائحه فيه وعنده
عقبة بن ربيعة ينشده رجزاً يمدحه به . فسمعه بشار وجعل يستحسن
ما قاله الى أن فرغ ، ثم أقبل على بشار فقال : هذا طراز لا تحسنه أنت
يا أبا معاذ ! فقال له بشار : ألى يقال هذا ! أنا والله أرجز منك ومن
أبيك وجدك (١) . فقال له عقبة : أنا والله وأبى فتحنا للناس باب
الغريب وباب الرجز ، والله إنى لخليق أن أسده عليهم . فقال بشار :
ارحمهم رحمك الله ! فقال عقبة : أتستخف بي يا أبا معاذ وأنا شاعر
ابن شاعر ابن شاعر ! فقال له بشار : فأنت إذا من أهل البيت الذين
أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا . »

فنقرأ « خرج من عنده عقبة مغضباً ، فليس من العدل أن نتتظر
من عقبة ألا يغضب أو أن يعجب بهذا التهكم القارص عليه . ولكن
ما شأن نقادنا يغمطون مثل هذه الردود البارة حقها من جودة التهكم
وحضور البديهة وسرعة الخاطر ، فيقول أحدهم (٢) : « كل ما حفظ
لنا عن بشار لا يحبه إلينا ولا يعطفنا عليه ، فهو ثقیل حتى حين يضحك
وهو ثقیل حتى حين يريد أن يضحك ويرضيك ، وهو مر في جميع

(١) جده هو العجاج الراجز المشهور .

(٢) طه حسين . حديث الأربعاء طبعة ١٩٢٥ ص ٢٤٥ .

مواقفه ، يأتي بالنادرة المضحكة ولكنك لا تضحك ضحكا صريحا خالياً
من كل شائبة وإنما تضحك وأنت مستشعر شيئاً من الآلم محس شيئاً
من المرارة . صحيح أن تهكم بشار مر مؤلم ، ولكن الذنب في مرارته
وإيلامه ليس ذنبه هو بل ذنبنا نحن بما فينا من نقائص يأخذها هذا
الساخر أخذاً لا ذعاً . وهل قال بشار لعقبة إلا ما استحقه ذلك الجلف
السيء الأدب ، يمدح بشار رجزه ويستحسنه طويلاً ، فلا يكون
منه إلا أن يقول له : هذا طراز لا نحسنه أنت يا أبا معاذ ! ونحن أن
اقتصرنا في الفكاهة على النوع الذي يضحكننا ويرضينا فإننا نهدم أجودها
وأعظمها فائدة لنا في الآداب الإنسانية ، وهو النوع الذي يضحكننا
ويخزنا حتى يرغمنا على تأمل عيوبنا فلعلنا نحاول إصلاحها .

أو ترى خلف بن أبي عمرو بن العلاء استحق غير هذا البيت اللاذع
يوجهه إليه بشار في قصة (١) :

« وقال له خلف بن أبي عمرو يمازحه : لو كان عُلّانة ولدك يا أبا معاذ
لفعلتُ كما فعل أخى ، ولكنك مولى . فمد بشار يده فضرب بها فخذه
خلف فقال :

أرفق بعمر و إذا حركت نسبته فإنه عربي من قوارير
فقال له : أفعلتها يا أبا معاذ ! وكان أبو عمرو يغمز في نسبه .
وما أصدق هذا البيت إلى عصرنا هذا على نفر من المحكومين

(١) اقرأها كاملة في أغاني دار الكتب ٣/ ١٩٠

المغلوبين على أمرهم يأبون إلا التمسح والاتصاق بساداتهم الحاكمين .

وليس أدل من تحامل معاصريه عليه من هذه القصة :

« قال دماذ قال لي أبو عبيدة : قال رجل يوماً لبشار في المسجد الجامع يعابشه : يا أبا معاذ ، أيعجبك الغلام الجادل ؟ فقال غير محتشم ولا مكترث : لا ، ولكن تعجبني أمه . »

انظر إلى أبي عبيدة يأخذ على بشار رده فيقول : « فقال غير محتشم ولا مكترث . » ولا يلتفت إلى أن بشاراً كان يرد ولم يكن البادى .
أما كان البادى بهذا الحديث القذر في حرم المسجد أولى بالذم ؟
أما كان ينبغي على أبي عبيدة أن يرويها هكذا : جاء إلى بشار وهو قار آمن في المسجد الجامع مقبل على شأنه الخاص رجل لم يراع حرمة المسجد بل سأله غير محتشم ولا مكترث : أيعجبك الغلام الجادل ؟
فرد عليه بشار بما يستحقه هو وأمثاله من السفهاء : لا ولكن تعجبني أمه . . .

ولم تقتصر فكاكة بشار على ردوده النثرية ، بل وجدت في شعره أيضاً ، كما سنرى حين ندرسه ، ولكن نكتفي هنا بإيراد هذه الأبيات ذات الفكاكة الحلوة :

« جاءنا بشار يوماً فقلنا له : مالك مغتما ؟ فقال : مات حمارى فرأيت في النوم فقلت له : لم مت ؟ ألم أكن أحسن إليك ؟ فقال :

سیدی خذ بی اتانا عند باب الاصبهانی
تیمتی بینان وبدل قد شجانی

تيمتى يوم رحنا بثناياها الحسان
وبغنج ودلال سلّ جسمى وبرانى
ولها خمد أسيل مثل خمد الشيفران
فلذا مت ولو عشّت إذا طال هوانى

وهى بعد فكاهة خفيفة حلوة لا تؤذى أحداً ، فالذى ينكر دعايتها الجميلة رجل قد صمم على ألا يرى ببشار خيراً ، هذا إن لم يكن رجلاً لا استعداد عنده لتقدير الفكاهة ، ومن هذا الصنف كان الرجل الذى روى هذه القصة ، لأنه لم يفهم أن « الشيفران » لفظ لا أصل له اخترعه بشار لمجرد الدعابة ، فراح يسأله ما معناه ، فاستحق بيلادته جواب بشار اللاذع :

« فقلت له : ما الشيفران ؟ قال : ما يدرينى ! هذا شىء من غريب الحمار فإذا لقيته فأسأله ! »

ما أبعد هذه الشخصية عما رسمون له من الغلاظة والثقل والتبغيض . لا يسعنا بعد هذه القصص وأمثالها إلا أن نسارع بقبول حكم ابن المعتز له بالظرف وحسن المسامرة وكثرة الملمح فى قوله :

« كان شاعراً مجيداً مفلحاً ظريفاً محسناً خدّم الملوك وحضر مجالس الخلفاء وأخذ فوائدهم وكان يمدح المهدي ويحضر مجلسه وكان يأنس به ويدنيه ويجزل له فى العطايا وكان صاحب صوت حسن ومنادمة وكان إذا حضر المهدي فى مجلس مع جواريه بعث إليه لأجل المسامرة والمحادثة . . . ولما توفى تذكره المهدي وحسن معاشرته له وكان أنيس

مجلسه وقد كان معجباً به وبشعره وكان يدنيه . . . وحكى أن المهدي لما قتل بشار ندم على قتله ،

أعد قراءة هذه العبارات بإمعان وتأمل جيداً في كل جملة من جملها تتبدل لك أشياء كثيرة ، منها أن المهدي لم يكن يعجب بشعره وحده بل كان يعجب به ، بشخصه هو ، ولا تدرك مبلغ دلالة هذه العبارات على ظرف بشار وخفة شخصه ان لم تتذكر فظاعة عماله وشناعة وجهه المجذور وجسمه الضخم الغليظ ، فالذي يتغلب ظرفه على هذه النقائص المنفرة حتى يصير نديماً محبوباً ومسامراً مقر بآرتاح المهدي إلى وجوده في أخص جلساته وأكثرها هناءة وصفاء لا بد أن يكون ظرفه عظيماً . لا غرو أن يحزن المهدي ويندم على قتله حين يفقد حسن معاشرته وبهجة حديثه ومنادمته ، ولكن هذه قصة سنرويها بعد قليل . . .

ويتضح لك أيضاً أن فكاهة بشار لم تكن مقتصرة على ذلك النوع اللاذع الممض الذي رأيناه فيما رويناه من نوادره ، بل كان يستطيع ، إذا صفاه له المجلس ودنا الأصدقاء الموادون وتخلص من إرهاق خصومه واضطهادهم ، أن تفيض روحه بالدعابات الحلوة الطريفة والمسامرة الرقيقة المحببة . وهذا من ابن المعتز تقرير سنجد له أكثر من دليل في شعره إن أقبلنا على دراسته بحياء نزيه ، ولكننا نروى هنا من فكاهاته قصة يقصها ابن المعتز :

« ودخل المهدي أيام خلافته على جماعة من جواريه وهن مجتمعات في حجرة بعضهن فجلس عندهن يشرب فقلن له لو أذنت لبشار في

الدخول علينا للمسامرة ونحادثه وكان من أحسن الناس حديثاً وأظرفهم مجلساً وأكثرهم ملحاً فأمر به فأحضر واجتمعن عليه فحدثهن وجعل يسرد عليهن من نوادره وملحه وينشدهن عيون شعره فسررن بذلك سروراً شديداً وقلن له يا بشار ليتك أبانا فلا نفارقك أبداً ، قال نعم وأنا على دين كسرى ! فضحك منه المهدي وأمر له بجائزة .

وهي فكاهة بارعة ، والقصة نفسها تدليل لا مزيد بعده على ما يريد أن تثبته لبشار من رشاقة الشخصية وبهجة المؤانسة ، أنظر كيف يكرر ابن المعتز أنه « كان من أحسن الناس حديثاً وأظرفهم مجلساً وأكثرهم ملحاً » ، وكيف يعجب به جوارى المهدي حتى يتمنين ألا يفارقه أبداً على قبحه وبشاعته ، وكيف يضحك المهدي من مزحته ويثبته . ولكن هذا لم يرض أعداء بشار حتى حوروا خاتمة القصة فجعلوها تقرر أن المهدي غضب منه وحرم عليه مسامرة جواريه بعدها ! والدليل السهل على أن هذه خاتمة كاذبة مخترعة هو أن القصة تشرح بدء بشار في مسامرة حرم المهدي ، ونحن نعرف أن هذه المسامرة تكرر واستمرت زمناً ، فلو كان صحيحاً أن المهدي غضب وأقصاه عن مجالسة الجوارى بعد ما صدر منه في مجلسه الأول معهن لما وجدنا ابن المعتز يقول : « وكان إذا حضر المهدي في مجلس مع جواريه بعث إليه لأجل المسامرة والمحادثة » . تأمل صيغة الاستمرار : « وكان إذا حضر بعث إليه » .

شجاع الرأي

على أن أعظم السخف الذي يقع فيه نقادنا في كراهيتهم له هو

رميهم اياه بالجبن ، وعلام يبنون هذا الاتهام ؟ يبنونه على قصة تروى عن ذعره حين أقسم روح بن حاتم يمينا مغلظة لا استثناء فيها ليضربه ضربة بالسيف ولو أنه بين يدي الخليفة ، ومبادرته إلى المهدى يحتمى به ، وتأفقه حين ضربه روح ضربة بعرض السيف . ويبنونه على تأفقه من وقع السوط حين ضرب سبعين سوطا مات بعدها ، فكان إذا أوجعه السوط يقول حس .

اعترف للقارىء بتحيرى الشديد وعجزى التام عن استكشاف ما كان ينتظر نقادنا منه فى هذين الموقفين . أكانوا ينتظرون من بشار أن يستل سيفاً فيمضى إلى روح فيصيح به متحدياً إياه إلى الطعن والنزال ؟ أم كانوا يريدون أن يصبر حتى يلقاه روح فيضربه بالسيف دون ما وسيلة يدافع بها عن نفسه ، مكثفياً بأن يدعو الله ألا تكون ضربة قاتلة ؟

وهل رأوا شاباً مكتمل الشباب موفور القوة يضرب عشرة أسواط ، دعك من شيخ بلغ السبعين يضرب سبعين سوطاً ؟ وهل يدركون إدراكاً صحيحاً مقدار إيلام السوط للجسم الإنسانى ، بل مقدار نجوعه فى ترويض الأسود والنور وسائر الوحوش الضارية ؟ أم تراهم رأوا فى أفلام هوليوود السينمائية أبطالا يضربون بالسوط فلا يتفوهون ببنت شفة ولا تصدر عنهم آهة واحدة فهم ينتظرون من بشار أن يكون بطلا من هذا النوع الذى لا وجود له إلا فى خيالات الشاشة البيضاء ؟

لست أريد أن أنفى أن بشارا فى القصة الأولى أبدى فرقا ، ولا

أنا أريد أن أناقشهم في تسميتهم هذا الفرق بالجبن ، فليسموه جبنا أن
أحبوا ، ولكن أيننا لا يجبن حين يتهده الموت ، أعني حين يتهده
تهدا حقيقيا ؟ فان كان منا من لا يجبنون فكم عددهم ؟ أو لا ينبغي
علينا في هذا كله أن نقدر أثر عماه في زيادة خوفه وتضخيم روعه ؟

ولكن دعك من هذا كله . فلنسلم بأن بشارا كان جبانا ، وبأن
جبنة كان من نوع شديد لا عذر له ولا يستحق المسامحة ، فأى رجل
كان ؟ أكان جنديا أو قائدا حربيا ، أو وزيرا أو حاكما أو خفيرا ،
أو غير هذا من الحرف التي يتطلب محترفا شجاعة جسمانية ، والتي لنا
أن نعيب محترفا أشد العيب أن أقفر من الشجاعة الجسمانية ؟ بل كان
أديبا شاعرا ، وقد يحق لنا قد في معرض تحليل شخصيته أن يسجل
عليه الجبن إن رأى فيه جبنا كعنصر من عناصر شخصيته لا بد من تسجيله ،
أما إن ألح في تأكيد هذه النقيصة ، وراح يكررها ويضخمها ويهول
من شأنها ، فانه قد شط عن النقد الأدبي القويم والتحليل النفساني المتزن
إلى التجريح الشخصي المذموم .

والعجيب أن نقادنا في إلحاحهم في الحديث عن جبن بشار ، وعن
خوفه من السيف وخوفه من السوط (كأن أحدا لا يخاف سيفا أو
سوطا !) قد أصروا على إغفال فضيلة عظيمة فيه ، فضيلة لا تستحق
منا إلا الإعجاب التام الذي لا استثناء فيه ، مهما يكن رأينا في شخصيته
أو في شعره ، ومهما يكن نفورنا عن عقائده أو سلوكه . أعني شجاعته
الأدبية النادرة المثال بين بني البشر .

مهما يكن ذمنا لردائله ، وسخطنا على زندقته ، وتقبيحنا لشعوبيته

وتأذينا من دعارته ، ونفورنا من هجائه ، ومهما نسب أباه وانفته
 غطرسه وجبروتا ، ونلبه على عمي ودمامة لاذنب له فيهما ، ونقرن
 بين غلاظة جسمه وغلاظة روحه ، ونسكرك عليه ظرفه وبراعة فكاهته ،
 فانه يبقى علينا بعد هذا كله ، إن كنا مفكرين نزيهين منصفين ، أن
 نعترف له بفضيلة عظيمة الشأن ، نادرة الوجود في المجتمع البشرى ،
 ونادرة الوجود فينا بنوع خاص ، وهي الجرأة الأدبية ، فان اعترفنا
 له بها فهي وحدها الشجاعة التي نطلبها في المفكر والأديب .

فان كنت لا تزال مترددا في وصفه بهذه الصفة فتدبر حياته مرة
 أخرى ، وانظر كيف تحدى الناس في كل شيء ، وكيف جهر بمعارضته
 ولم يلجأ إلى تقية ، تحدى إذلال العرب للموالى وإساءتهم معاملتهم ،
 وجهر به — ذا التحدى في حديثه وفي شعره ، وأصر على الاحتفاظ
 بكرامته البشرية ، وبقي على هذا الأصرار حتى أمام المهدي . وتحدى
 ابتخاس علماء العربية لمنزلة الموالى في الأدب العربى ، واستمر في هذا
 التحدى حتى اضطرهم إلى الإفراج بمنزلته الأدبية ، وتحدى احتقار
 جمهور المبصرين للآسمى واستغلاطهم لضعفه وقلة حيلته ، فلما لم ينفع
 معهم عتاب لجأ إلى التخويف والأرهاب بلسانه ، سلاحه الوحيد .
 وعجز خلاصا عن الاقتناع بمذهب دينى واحد ، فأعلن شكوكه وكان
 أسهل شيء عليه أن يكتمها كما كتمها الكثيرون من مفكرى عصره
 وما تلا عصره . وظل طول حياته ناقداً لمجتمعه لا تأخذه في نقده
 هوادة ولا خوف ، ينقد جهل معاصريه وغباءهم وسخف عقولهم
 وتصديقهم للخرافات ، ومراماتهم ونفاقهم الاجتماعى الذميم ، وجفاوتهم

وسوء أدبهم وغرورهم وجبروتهم على الضعيف ، وتذللهم وخنوعهم
أمام القوى ، وهما هنتهم للسلطان ، والتصاقهم بالعزیز من الأنساب .
وكل صفة من هذه الصفات تجد لبشار عليها نقدا لاذعا في شعره أو
في نوادره الساخرة .

شجاعة أدبية بالغة أبداها بشار في كل حياته ، بل هي التي أوردته
موارد التلطف كما سنرى بعد قليل ، فان كان ببشار عيب في هذه الناحية
فليس الجبن أو النفاق بل التزید المسرف في تحدى شعور الناس بداع
وبغير داع ، في الموقف الذى يلزم فيه التحدى وفي الموقف الذى
يستحسن فيه الصمت ، ولكنها رذيلة الأفراط لا رذيلة التفريط ،
وهي هي التي دفنته إلى ما أسرف فيه من المجاهرة بالفسق والدعوة إلى
التحلل الجنسى ، وهو سلوك لا نحاول أن نجيزه ولا أن نبرره ،
ولكن الذى لا يلتمس له الأعذار المخففة في كل ما قاساه من قسوة
الطبيعة وقسوة المجتمع رجل لا يريد أن يغفر لآى إنسان أية نقيصة .
ومثل هذا الرجل ينبغى له أن يفارق عشرة الناس إلى عشرة الملائكة
فهو أظهر من أن يعيش بين البشر :

هذى طباع الناس معروضة فخالطوا العالم أو فارقوا

مقتله الأشنع

فان بقى لدينا شيء من الضغن على بشار فانه لا شك يتبدد جميعه
حين تتأمل مقتله البشع المفرط القسوة ، فهو مقتل لا يستحقه هو ولا

يستحقه إنسان مهما تسكن سيئاته ، وهو وحده كفيل بأن يجعلنا نرث له أعظم الرثاء ونغفر له مساوئه جميعا .

قتل بشار ضربا بالسياط . ويقولون أنه ضرب سبعين سوطاً قبل أن يبدو فيه الموت . ويروون : « فكان إذا أوجعه السوط يقول حس ، وهي كلمة يقولها العرب للشيء إذا أوجع . فقال له بعضهم : انظر إلى زندقته يا أمير المؤمنين ! يقول حس ولا يقول باسم الله ! فقال : ويلك ! أطعام هو فأسمى الله عليه ! فقال له الآخر : أفلا قلت الحمد لله ! قال : أو نعمة هي حتى أحمد الله عليها ! ، فلما ضرب سبعين سوطاً بان الموت فيه ، فألقى في سفينته حتى مات ، ثم ألقيت جثته في موضع يعرف بالحرارة ^(١) ، فحمله الماء فأخرجه إلى دجلة البصرة فأخذ فأتى به أهله فدفنوه . »

أرجو ألا يكون أحد من قرأني في حاجة إلى أن أبين له فظاعة هذه الميعة وقسوتها الوحشية ، والذي يزيدنا على بشار تحسرا هو أن نراه احتفظ بفكاهته ونسكته الباردة حتى حين كانت روحه تفيض في ألم

(١) فيقول أحد أدبائنا الغلاظ القلوب شامتا فيه « وبذلك ختمت حياة بشار وكانت نهايتها أن ألقى في (الحرارة) » . وتغله شماتته عن أن اللفظ مشتق من خرب الماء لا من المعنى الذي يظنه . وليس العجيب أن تلك القتلة القاسية لا تثير فيه ذرة من الرثاء أو الامتناع ، بل العجيب أنه — وهو مسلم — ينسى أن الإسلام يحرم التمثيل بالجثث ، حتى جثث المشركين في بدر أمر الرسول بأن يحفر لها قليب دفنت فيه دفنا كريما ، فبشار على زندقته ما كان يستحق أن ترمى جثته كما ترمى جثة الكلب أو الحمار . انظر تعليقات كتاب وفيات الأعيان ، طبعة دار المأمون . الجزء الثالث ، هامش .

لا يفوقه ألم . ثم انظر ما تراه هذه القصة من جرأته وشجاعته الأدبية ومقته للنفاق وقارنها بنفاق أذئاب المهدي ورياء حاشيته . ولست أدري لو كان أحدهم في موضع بشار هل كان يحمدا لله حقاً أو يسمى باسمه . على أن الشناعة تزداد أضعافاً حين نسأل : لم قتله المهدي ؟

يدعون أن المهدي قتله السبئين ، لفسقه وأخاشه في شعره ، ولزندقته . وليس أحد السبئين صحيحاً . والصحيح أن المهدي قتله خوفاً من لوم أهل عصره ، أو بصريح العبارة قتله جنباً أدبياً أمام رأى الجمهور ، وهذا مانحن الآن بسبيل إثباته .

فلنتأمل أولاً في السبئين اللذين يدعونهما . يقولون أن المهدي أغضبه ذكر بشار للنساء في شعره ، وتحريضه شباب عصره على الفسوق ، ويقولون أن المهدي كان من أشد الناس غيرة (يعنون الغيرة الجنسية) فنهاه عن الغزل ، فلما لم يمتثل قتله .

أنهنا صحيح ؟ ولكن بشار آ كان قد عمر سبعين عاماً ، أنفق منها ما لا يقل عن خمسين في غزله ذاك وذكره للنساء ، أفلم يسمع به المهدي إلا أخيراً ؟ وأين كانت غيرته منذ شب فسمع شعر بشار وفهمه ، أو منذ اعتلى العرش فكان في قدرته أن يبطش به ، أين كانت غيرته في هذه السنوات التسع ؟

هذا تعليل لا تتردد في رفضه ، ويزيدنا تأكداً من استحالة أن بشار لم يكن غريباً على المهدي ، فإنه كان يعرفه ، بل كان من خاصة جلسائه وأقرب ندمائه . وقد سمعت ما يقوله ابن المعتز في صحبتهما ، نسكرره هنا :

« وكان يمدح المهدي ويحضر مجلسه ، وكان يأنس به ويدنيه ويجزل له في العطايا ، وكان صاحب صوت حسن ومنادمة ، وكان إذا حضر المهدي في مجلس مع جواريه بعث إليه لأجل المسامرة والمحادثة ... ولما توفي تذكره المهدي وحسن معاشرته له وكان أنيس مجلسه وقد كان معجباً به وبشعره وكان يدنيه . »

ليس بعد هذا النص تدليل على أن المهدي كان يعرف بشاراً معرفة جيدة ، وكان يعرف شعره كذلك معرفة جيدة ، وكان يقربه إليه ويستحلي منادمته ومسامرته ويعجب بحديثه وظرفه وملحه . فكيف كان بشار يتادم المهدي ويسامره يا ترى ؟ وأي شيء كان ذلك الحديث وتلك الملح ؟ أكان يحادثه في أمور التقي والورع وأخبار الزهاد والعباد ؟ أم كان يقصر سمره وملحه على الأحاديث البريئة والأخبار العفيفة والقصص ذات المغزى الأخلاقى الصالح ؟ القارىء الذى يعرف معنى المنادمة فى ذلك العصر ، وما كان يدور بين الخلفاء وشعرائهم الندمان ، ليس يحتاج إلى جواب .

فإن احتاج إلى جواب قلنا له : ليس هذا مجرد استنباط نظرى أو مجرد قياس قد يخطئ وقد يصيب . فإليك القصة الآتية تريك مثلاً عما كان المهدي يستمع إليه من بشار ، بل يتطلبه من بشار . وهى قصة أعتمد على القارىء فى اضطرارى إلى سوقها كاملة بلا حذف ، ولستكن لا مناص منها فى التدليل فى هذا الموضوع الهام ، ولا يحتاج القارىء بعدها إلى تدليل :

« دخل المهدي إلى بعض حجر الحرم ، فنظر إلى جارية منهم

تغتسل ، فلما رأته حشرت ووضع يدها على فرجها ، فأنشأ يقول :

« نظرت عيني لحيني »

ثم أرتج عليه . فقال : من بالباب من الشعراء ؟ قالوا : بشار .
فأذن له فدخل . فقال له : أجز :

« نظرت عيني لحيني »

فقال بشار :

نظرت عيني لحيني نظراً وافق شيني
سترت لما رأني دونه بالراحتين
فضلت منه فضول تحت طي العكنتين

فقال له المهدي : قبحك الله ويحك ! أ كنت ثالثنا ! ثم ماذا ؟ فقال :

فتمنيت وقلبي للهوى في زفرتين
أنتى كنت عليه ساعة أو ساعتين

فضحك المهدي وأمر له بجائزة . فقال : يا أمير المؤمنين أقنعت
من هذه الصفة بساعة أو ساعتين . فقال : اخرج عني قبحك الله !
فخرج بالجائزة .

انتبه جيداً إلى قول المهدي « ثم ماذا ؟ » يستزيده من مثل هذا
الشعر . وإلى الرواية « فضحك المهدي وأمر له بجائزة . » وليس فيما
نعرفه من شعر بشار ما يفوق هذه الأبيات تصريحاً ، بل ليس فيه
ما يقاربها تصريحاً . على أن جملة بشار الأخيرة لا تقل عن الشعر دعارة

ومع ذلك لم يعاقبه المهدي عليها بأكثر من أن قال: أخرج عني قبحك
الله . وهي جملة أن تأملتها وجدتها لما لا يحرق بشار أو غيره على قوله
للمهدي لو لم يكن بينهما من قبل مفا كهات كثيرة من هذا النوع .

فأين كانت غيرة المهدي وسخطه على ذكر بشار للنساء في هذا الخبر ؟
أم تراه صحبا فجأة من غفلته بعد سنوات تسع فأدرك شناعة هذا
الشعر وأمثاله مما ظل بشار يقول طول حياته ؟

أضف إلى هذا كله أن هذا التعليل يقوم على دعوى أن بشارا
عصى المهدي وظل ينظم الشعر الغزلي فعاقبه المهدي على عصيانه بالقتل ،
وهي دعوى غير صحيحة ، فقد أطاعه بشار وترك الغزل . وهذا
ما سنثبتته حين ندرس شعره .

وأما ادعاؤهم أنه قتله لزندقته فهو أيضا يتثبت امام التفكير
دقيقة واحدة ، فأين كان المهدي طول هذه السنوات التي اشتهر فيها
بشار بشكوكه ؟ أم تراه لم يسمع بزيغه إلا أخيرا ! ولكن بشارا
ما اخفى تشككه قط ، وقد ظل العلماء يحملون عليه سنوات عديدات
بل الحق الواضح الذي لا جدال فيه ان المهدي لم يقتله لأحد
السببين ، لا لفسقه ولا لزندقته ، إنما لجأ إلى قتله حين اشتد به لوم
الناس ونقدهم ووصل درجة لم يعد يستطيع تحملها . فقد ازداد ببشار
عداء اهل عصره ، واشتدت حملتهم على زندقته ودعارته ، والح في
مهاجمته بعض كبار رجال الدين من أمثال واصل بن عطاء و سوار
ابن عبد الله الأكبر و مالك بن دينار واخذوا يعنفون في لوم المهدي

على صحبته بشاراً وتقريبه إياه واصطفائه مسامرا وندياً وإعطائه المنح والجوائز . فخاتته شجاعته الأدبية ولم يستطع الاستمرار في تجاهل تقدم ، وكان عداؤهم من نوع لا يخمد إلا قتل بشار ، ولقد صرحوا بهذا في خطبهم التي حرضوا فيها الناس على البطش به ، فتمس المهدى عذرا يقتل به بشارا إرضاء لهم وتخلصا من وطأة التقرير .

ولو كان هذا منا استنباطا لكان من الاستنباط القوى الذي يبلغ مرتبة اليقين ، فهذا يكون التعليل الوحيد المقبول لتحول المهدى على بشار وانقلابه ضده بعد طول التقريب والاصطفاء . على أنه ليس محض استنباط ، تأمل في القصة الآتية :

« أبو غسان دماذ قال : سألت أبا عبيدة عن السبب الذي من أجله نهى المهدى بشارا عن ذكر النساء . قال : كان أول ذلك استهتار نساء البصرة وشبانها بشعره ، حتى قال سوار بن عبد الله الأكبر ومالك بن دينار : ما شيء أدعى لأهل هذه المدينة إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى ، وما زالا يعظانه ، وكان واصل بن عطاء يقول : ان من أخدع حبايل الشيطان وأغواها لكلمات هذا الأعمى المالحد . فلما كثر ذلك وانتهى خبره من وجوه كثيرة إلى المهدى ، وأنشد المهدى ما مدحه به ، نهاه عن ذكر النساء وقول التشبيب ، وكان المهدى من أشد الناس غيرة . »

أما الجملة الأخيرة فقد رأيت فيها رأينا ، فغيرة المهدى الشديدة هذه لم تمنعه سنوات طويلات من تقريبه في مجلسه والاستماع إلى شعره وفكاهته — وقد رأيت منهما مثالا — ولا هي منعه من إدخاله على

حرمه ، وقد سمعت له نادرة معهن أمام المهدي . ولكن تأمل الآن القصة كلها ، تجد أن المهدي لم يلجأ إلى معاقبة بشار حين استهتر نساء البصرة وشبانها بشعره ، وإنما لجأ إليها حين اشتد رجال الدين في مهاجمته ، وكثرت هذه المهاجمة ، وانتهى خبرها من وجوه كثيرة إلى المهدي . تأمل « كثر ذلك » ، وتأمل « من وجوه كثيرة » .

لو أنه اكتفى بإبعاده عن مجلسه ، أو نفيه من بغداد قصبة الملك لما انناه أبدا . فثله في مثل مركزه لا بد أن يعير الرأي العام أذنا صاغية ، وليست حياته الشخصية ملاكاً له وحده ، بل سلوكه محدود حداً شديداً بمستلزمات منصبه . ومثل بشار في زيغته ومجاهرته بالشك وفي شهوانيته ومصارحته بالدعارة ليس ممن يرضى الجمهور بتقريبه إلى أمير المؤمنين وخليفة المسلمين . وربما كان يستطيع أن يظل في تقريبه إليه ما دامت صحبتهما سرا أو لا يعرفها إلا القليلون من الخاصة ، أما حين افتضحت واستحرج هجوم قادة الشعب على بشار فانه لم يكن للمهدي مهرب من أقصائه عنه . ولكن أن يلجأ في محاولته إرضاء الشعور العام إلى قتله ، ثم لا يكتفى حتى يأمر بقتله تلك القتل الوحشية وهو شيخ في السبعين ، هذا ما لا نسامحه فيه أبداً ، فانه يخرج تصرفه عن حد الاحترام المشروع للرأي العام ويدخله في حد الجبن الخلقى المردول .

ويزداد تصرفه قبحا حين نعرف السبب المباشر الذي دفعه أخيراً بعد طول التسامح إلى التماس العذر لقتله . وهو أن بشاراً هجاء هجاء مفحشاً لما حرمه المهدي عطاياه وأبى أن يثيبه على مداخحه مع أنه استمع إلى نبيه فترك الغزل في شعره . وهذه هي القصة :

ثم أنشده ما مدحه به بلا تشبيب ، فخرمه ولم يعطه شيئا . . . ثم
أنشده قصيدته التي أولها : تجاللت عن فهر وعن جارتى فهر ، ووصف
بها تركه التشبيب ، ومدحه . . . فلم يحظ منه أيضاً بشيء ، فهجاء فقال
في قصيدته :

خليفة يزني بعماته يلعب بالدبوق والصولجان
أبدلنا الله به غيره (١) ودس موسى في حمار الخيزران
وأنشدها في حلقة يونس النحوي ، فسعى به إلى يعقوب بن داود ،
وكان بشار قد هجاء فقال :

بنى أمية هبوا طال نومكمو ان خليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتسوا خليفة الله بين الزرق والعود

فدخل يعقوب على المهدي فقال له : يا أمير المؤمنين ، ان هذا
الاعشى الملحد الزنديق قد هجأك . فقال : بأى شيء ؟ فقال : بما لا ينطق
به لسانى ولا يتوهمه فكرى . فقال له : بحياتى إلا أنشدتنى ! فقال : والله
لو خيرتني بين انشادى إياه وبين ضرب عنقى لا اخترت ضرب عنقى .
فخلف عليه المهدي بالآيمان التي لا فسحة فيها أن يخبره فقال : أما لفظا
فلا ، ولسكن أكتب ذلك . فكتبه ودفعه إليه ، فكاد ينشق غيظا ، وعمد
على الانحدار إلى البصرة للنظر في أمرها وما وكده غير بشار . فاحذر
فلما بلغ إلى البطيحة سمع أذانا في ضحى النهار ، فقال : انظروا ما هذا
الأذان . فاذا بشار يؤذن مسكران . فقال له يا زنديق يا عاض ... أمه !

عجبت أن يكون هذا غيرك . أتلهو بالأذان في غير وقت صلاة وأنت
سكران ! ثم دعا بابن نهيك فأمره بضربه بالسوط ، فضربه بين يديه
على صدر الحراقة سبعين سوطاً أألفه فيها .

تأمل هذه الحيل الدنيئة يحتالها يعقوب كي يزيد من تشوق المهدي
والحاحه في الاستماع إلى هجاء بشار ، وليس الذي يدفعه هو غيرته
على المهدي أن يهجي هذا الهجاء البذيء ، بل ان بشار آ قد هجاء هو .
ثم انظر المهدي يذهب إلى البصرة متصنعاً أنه يريد النظر في شؤونها
وليس قصده إلا أن يعثر ببشار ، ومن سخرية القدر العجيبة أنها واثمة
بعذر وجيه ليقتل بشارا .

فليدرك القاريء أني لا ألوم المهدي في قتله بشارا على هذا الهجاء
القيح ، فقوانين عصره كانت تبيح له أن يقتله لمثل الهجاء بل لأهون
منه ، ولو أن شاعرا في عصرنا هجا ملكا بهجاء مماثل لربما لا يكون
مصيره القتل ، ولكن يكون مصيره دوني شك أشد عقاب يستطيعه
القانون دون القتل . ولستنا نستطيع أن نحكم على المهدي بغير قوانين
عصره . إنما الذي نأخذه عليه هو أنه لم يصرح بالسبب الذي حمله على
قتله ، لم يقل : أنت قد هجوتني هجاء شنيعا ولذلك أقتلك ، فتمحل سببا
آخر ، وادعى أنه إنما يقتله غضبا من خلاعته واستهتاره .

ولو أنه كان قد غضب حقا من استهتار بشار بالأذان وهو سكران
فكان هذا الغضب هو الذي حمله على قتله لما اشتد دنا في لومه . ولكنه
في حياته الطويلة لا بد أن قد عرف لبشار حوادث من الاستهتار
لا تقل عن هذه . فالحقيقة الساطعة هي أنه لم يقتله لأذانه وهو سكران

ولا هو قتله بسبب هجائه وحده، إنما كان هذا الهجاء هو الشرر الذي
أضرم نيبته المختزنة التي طال حبسه لها، وكان الأذان هو العلة المنتهزة
التي تعطل بها، أما السبب الدفين فهو ضعفه أمام الناس جمهورهم وعلماهم
لما اشتدوا في لومهم إياه على مصادقته بشار أو إغضائه العين على عيوبه.
ولا أدل على ما ندعيه من أن نقرأ القصة التي يرويها القدماء عن
ندمه على قتله. هذه رواية ابن المعتز لها:

«وحكى أن المهدي لما قتل بشار ندم على قتله وأحب أن يجد شيئا
يتعلق به، فبعث إلى كتبه فأحضرها وأمر بتفتيشها طمعا في أن يجد
فيها شيئا مما ضربه عليه، فلم يجد من ذلك شيئا. ومر بطومار (١) محتوم
فظن أن فيه شيئا، فأمر بنشره، فاذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، أنى
أردت أن أهجو آل سليمان بن علي بن عبد الله العباس، فذكرت
قرايتهم من رسول الله صلى الله عليه وآله، فمنعني ذلك من هجوهم،
ووهبت جرمهم لله عز وجل، وقد قلت بيتين لم أذكر فيهما عرضا ولم
أقدح في دين، وهما:

دينار آل سليمان ودرهمهم كالبا بليين شدا بالعفاريت
لا يوجدان ولا يرجي لقاؤهما كما سمعت بهاروت وماروت
فقال [أى المهدي] الآن والله صح الندم.

لا يعنينا الآن ما في هذه القصة من دليل جديد على أن بشارا لم ينته
قط إلى الكفر أو الإلحاد، إنما الذي يهمنا جملتها الأولى: ندم على قتله

وأحب أن يجد شيئا يتعلق به - ثم جملتها الأخيرة : فقال الآن والله
 صبح الندم . ما مغزى هذا الندم ؟ مغزاه بلا شك أن غضب المهدي
 من هجاء بشار إياه لم يكن بالقوة الكافية لأن يدفعه إلى قتله ، وإلا لما
 ندم بعد أن نفذ القتل ، ومغزاه أيضا أن المهدي لم يكن مقتنعا قط
 بما قيل له عن كفر بشار ، وإلا لما حاول أن يعثر على دليل يؤيد هذه
 التهمة ، فهو إذن لم يقتله لهجائه في الحقيقة ، ولا قتله لأنه كان مقتنعا
 بكفره . فالحق أن المهدي في قصة مقتل بشار يبدو لنا في صورة رديئة
 جدا ، لا يخففها بعض الشيء إلا هذا الندم الذي يروى عنه ، ولكن
 لات حين ندم ، فان سلوكه يزداد قبحا حين نعرف أن بشارا لم يعصه
 حين نهاه عن الغزل ، بل أطاعه وانقطع عن نظم قصائده الغزلية ، ولم
 يفعل ذلك خوفا بل رعاية لصداقته القديمة وإدرا كالحرج موقف المهدي ،
 مع ما في هذا الامتناع عن الغزل من إرهاب بالغ لطبيعته الفنية وحد
 عظيم لحرية الشعرية كان تأثيره عليه شديد الايلاام ، كما سنرى حين
 ندرس شعره .

الحق أن هناك كلمتين اثنتين تصفان سلوك المهدي أصدق وصف :
خيانة وجبن .

على أننا ينبغي ألا نخص المهدي باستنكارنا ، فهناك شخص آخر
 كان سلوكه في هذه الواقعة المحزنة رديئا ، وهو واصل بن عطاء ، وهو
 أيضا كان في الأصل صديقا لبشار ، زامله فترة في المناقشة والدرس ،
 فلما انتهى بشار إلى الخروج على المدرسة المعتزلية لم يكن هذا الخروج
 ناشئا عن شيء سوى عجزه الصادق عن أن يجد في فلسفتها الشرح المقنع

الكافي لشكوكه وأسئلته ، فسرعان ما انقلب عليه صديقه القديم انقلابا لاشك أن سببه هو غضبه من خروج بشار عليه وإعلانه عدم اكتفائه بهذه المدرسة . ثم دفعه هذا الغضب إلى الحملة عليه والتشهير به في كل مجال ورميه بالاحاد وتحريض العامة عليه تحريضا طويلا مستمرا . وواضح من رواية الأغاني أن بشارا لم يلجأ إلى هجاء واصل إلا بعد أن عمد واصل إلى هذا الاتهام والتحريض . وهذه هي الرواية : « وبلغه عن أبي حذيفة إنكار لقوله وهتف به ، فقال يهجو به ، بيتيه اللذين يوضحان أن سبب خروج بشار على المعتزلة هو ضيقهم المذهبي الشديد وتكفيرهم من يخالفهم من المسلمين في آراء معينة :

مالي أشايح غزالا له عنق كنعنق الدوإن ولي وإن مثلا
عنق الزرافة ما بالي وبالكمو تكفرون رجالا كفروا رجلا

شهادة

حين نصف بشارا بأنه شهيد فأنما نقرر حقيقة واقعة . سواء أحببناها أم كرهناها ، وسواء أوافقناه على آرائه أم خالفناه فيها ، وسواء أمدحنا سلوكه أم ذمناه . فالشهيد هو الذي يقتل لنفسه برأى يظنه الصواب ، أو لإصراره على رفض رأى لم يقتنع بصحته ، مهما يكن رأيه خاطئا ورأى الآخرين صائبا . فلسنا نعني من هذه التسمية معناها الديني ، وإنما نقصد معناها الفكري . أما وقد اتضح أن بشارا لم يقتله إلا إغضابه الناس بن دقته وإباحيته ، فهو شهيد .

ولكني لا أريد أن أبالغ فأرقيه إلى الصف الأول من شهداء
الفكر . فلا شك أن استشهاده لم يكن ضرورة واجبة ، ولا شك أنه
بعناده الزائد وإسرافه في تحدى شعور الناس وتبغيضهم فيه قد اضطرهم
إلى قتله ، والمحتمل أنه لو خفف من إسرافه هذا لتركوه حتى يموت
ميتة طبيعية . ولكن كل هذا لا يغير الحقيقة الباقية : أنه لم يقتل
لجريمة عادية ، وإنما قتل لنزوعه في تفكيره منزعا خاصاً لم يرض
معاصريه .

لا يستطيع بشار أن يرتقى إلى الصف الأول من شهداء الفكر ،
فيلحق بسقراط مثلاً . فإنه لم يقتل على زيغه الديني والفكري وحده ،
بل قتل على فسقه ودعارته كذلك . ولكن تحلله الخلق هذا لم يكن
وحده ليؤدى إلى قتله ، فلو أنه كان مؤمناً خالص الإيمان لتحمل الناس
إباحيته ، وهم قد تحملوا نظيرها وأشد منها من معاصرين له ، بل كانوا
يتحملونها لو أخفى شكوكه ولاذ بالتقية . فمقتله يعزى في جانب كبير منه
إلى حرية تفكيره ، وهو إلى هذا الحد يستحق أن يسمى استشهاداً .

ثم أن استشهاد هذا ، وإن لم يكن ضرورة لا محيد عنها أو يكن
استشهاداً فكرياً خالصاً ، حدث بكيفية أبدت شجاعة فائقة ، لا مفر
من أن تكسبه روعة . وهذه حقيقة لم أر أحداً ألقت إليها قط ، مع
أنها لا تحتاج إلا إلى تفكير يسير . فإن القدماء فيما يروونه عن مقتله
لا يذكرون أنه بكى وأعول ، أو أنه لجأ إلى التوسل والضراعة
والإتهال أن يعفى عنه . بل يتضح أنه قبل الحكم رابط الجأش ساخراً
متحدياً . فلما جلدوه سوطاً بعد سوط ، وهو شيخ في السبعين ، لم يبالغ

في الصراخ والنحيب ، ولا أُلجأه ألمه إلى استعطاف أو استغفار ، بل اكتفى - فيما يرويه القدماء - بكلمة حَسَّ ينفس بها عن ألمه الهائل ، وحتى هذه الكلمة لأمه عليها معاصروه ، ويلومه عليها نقادنا واحتفظ في ذلك كله بفكاهته الباردة وتهكمه الحاد ، كما رأينا في رده على أولئك المنتطعين الذين طالبوه بأن يقول بسم الله والحمد لله .

والحقيقة الأخيرة التي يجب أن ندركها عن استشهاده ، هي أنه وإن لم يكن ضرورة واجبة ، فإن من الخطأ أن نظن أنه ذهب هباء . فإن بشاراً بأصراره على حرية فكره طول حياته ، وبتقبله الموت في سبيلها ، مهد الطريق لمن تلوه من المفكرين والأدباء الأحرار في تاريخ الإسلام . فقد كسب في حياته لحرية الفكر معارك كثيرة ، وعود الجمهور في سنيهِ السبعين على أن يسمعو آراء لا تعجبهم ، وأرغم رجال الدين على أن ينصتوا لشكوك الشاكين فبدأوا يعيرونها اهتمامهم ونشأ بعد قليل العلم الذي يناقشها ويفندھا بالجدل ولم يعودوا يكتفون بالسباب والالتهام وتحريض العامة ، وضرب مثلاً ربيعاً للأمانة الفكرية بأصراره على إعلان شكوكه حين عجز مخلصاً عن الاقتناع ، ورفض أن يلوذ بالتقية ، وضرب مثلاً نادر الوجود حين حملته أمانته الفكرية هذه على أن يخرج عن مدرسة الاعتزال حين لم تعد تكفيه ، مع أنه كان من كبار رجالها وعظام قادتها . بل كان في نظري ^(١) من روادها الأوائل

(١) يوافقني زميلي الأستاذ عبد الحميد عابدين على هذا الحكم ، ويضيف : « تأثر المعتزلة بعقيدة بشار في التجربة والعيان وكان بشار يقول لأعراف إلاما عاينته أو عاينت مثله =

ومؤسسى منهجها الفلسفى ، فخروجه على هذه المدرسة التى شارك فى تأسيسها وخط نهجها لا بد أن اقتضى منه نزاعاً عاطفياً شديداً تغلبت فيه النزاهة الفكرية على الوشائج العاطفية ، وليس هذا بالأمر اليسير .

ولا شك أن معارضته القوية لاستبداد العرب كانت عاملاً هاماً فى تقويض هذا الاستبداد ، وأن دعوته للموالى أن يعتزوا بكرامتهم البشرية كانت ذات أثر قوى فى إنهاضهم من ذلهم واستكانتهم وتشجيع ضعاف القلوب منهم ، حتى زالت تلك الوصمة من صفحة الدولة الإسلامية وتحققت المساواة الجنسية التى أقرها الإسلام من بدايته . ولا شك أيضاً أنه باعتراده بشعره وإصراره على مكانته الحققة فى الأدب العربى برغم أصله الأعجمى ، قد اضطر علماء العرب ونقادهم إلى الالتفات إلى هذه الظاهرة الجديدة : أن الأدب العربى لم يعد وفقاً على العرب الأقحاح وأن الأعاجم قد يتقنونه إتقاناً لا يقل عن إتقان أهله ، ثم بلغ الأمر أن صار عظام هذا الأدب من الموالى لا من العرب ، وصار حملة العلم فى الإسلام أكثرهم من العجم .

بشار هو الشهيد الأول فى تاريخ الفكر الإسلامى . فليفكر القارىء فى هذا الحكم ملياً ...

== وقد تلاه النظام — أستاذ الجاحظ — فقال: لا تشفىنى إلا العناية وكان لهذا أثر كبير جداً فى اهتمام المعتزلة بالعلوم الطبيعية ، وخير شاهد على ذلك عناية الجاحظ بتأليف كتاب الحيوان . وأن تكن مدرسة الاعتزال قد آلت إلى الاندحار فقد تركت آثارها العظيمة فى شتى فروع الثقافة الإسلامية .

جوهر
البيئة

البيئة وشخصية الأديب

لم نرد بكل هذا التعداد لمحاسنه أن ننكر عيوبه أو نغطي عليها ،
فعيوبه لا تزال ظاهرة ولا تزال كثيرة . وبعضها جوهرى ، إنما كان
هدفنا أن نستتم تعرف شخصيته في كل جوانبها حتى نستطيع اتخاذها
مثالا على القضية التي نعرضها في كتابنا هذا ، وهي مبلغ تأثير البيئة في
شخصية الأديب .

فهذا بشار ، ليس هناك أوضح منه في شرح الأهمية التي قد تكون
لعوامل البيئة في تكوين الشخصية . وخير طريقة يفهم بها القارىء هذا
الحكم أن يتصور وجوده في بيئة مختلفة .

لو وجد بشار في بيئة مختلفة لظلت فيه برغم ذلك عوامل ثلاثة
طبيعية لا نستطيع إنكار أهميتها . هذه العوامل هي عماه ، ودماته
وحده الشعورية والجنسية . فهما تسكن البيئة التي يعيش فيها فلا بد
من أن يتعذب قدرا مامن العذاب بسبب حرمانه نعمة البصر ، وبسبب
قبح منظره ، ولا بد أن تلجئه حده الشعورية والجنسية إلى نشاط جنسى
أعظم مما يكتفى به الرجل العادى .

ولسكن تصور الآن أنه وجد في يومنا هذا في بيئة معاصرة مذبذبة
تتحاشى الإشارة إلى دماته ، ولا تأخذ عليه عماه جريرة . وافرض أنه
لم يكن في هذه البيئة أجنبيا غريبا ، بل كان أحد أفراد الجنس السائد .
فإذا كانت حاله تكون ؟

ما ان يفكر القارىء في هذا الفرض حتى تتضح له الحقيقة في شخصية
بشار . ففي مثل هذه البيئة لم يكن بشار ليتعذب كل ذلك العذاب الذى
لقيه . لم يكن ليجد من الناس اضطهادا أو إيذاء أو احتقارا . ونتيجة
هذا أن تكون نفسيته أعظم هدوما ، ورضى ، وسعادة ، وان تحقق له
عبقريته الشعرية ما كان يريد من التقدير والاحترام ومن المكانة
المرموقة في المجتمع . فتزول معظم الأسباب التى جعلته شقيا ، سنا خطا ،
ناقما على مجتمعه ، شديد الإيذاء له والانتقام منه ، ولا ينتهى إلى
ما انتهى إليه من السكره للبشرية .

صحيح أنه في مثل هذه البيئة يظل بسبب شهوانيته خارجا إلى حد
عما يالفه المجتمع ، ولكن مثل هذه البيئة تغتفر لعظماؤها - وخاصة رجال
الفن والأدب منهم - هذا الإفراط الجنسى وتغمض عينها عنه ، فيكون
نتيجة هذا أن هذه الحدة نفسها لا تزيد فتطغى إلى الحد الذى رأيناه في
بشار . فقد وجدنا طغيانها فيه يرجع معظمه إلى محاولته التعويض عما
لقيه من مجتمعه من الاحتقار والبغض والإيذاء ، محاولة دفعته إلى
الأسراف عنادا ومكيدة وانتقاما .

وصحيح أن عماه كان يسبب له حسرة دائمة ، ولكن كثيرين من
العميان عاشوا برغم عاهتهم عيشة سعيدة وتمتعوا بمنزلة محترمة عالية
في المجتمع ، وانتهوا إلى كبت حسرتهم تلك حتى لا تظهر إلا بين الفينة
والفينة . والذى عذب بشارا أشد العذاب لم يكن عماه في حد ذاته ، بل
ما جرّه عليه من الإهانة والإيذاء .

وصحيح أن دمايته كانت تسبب له كثيرا من المضايقة والألم ، ولكن

ما أظنه كبيرا ، فما أكثر الرجال الناجحين السعداء ممن اشتهروا بالدمامة
الفضيعة ، وخير دليل على هذا أن بشاراً نفسه ، في نفس البيئة التي عاش
فيها ، تحقق له برغم قبحه نصيب عظيم من النجاح ، إن لم يكن مع رجال
مجتمعه فمع نساءهم . وهو لو عاش في عصرنا لاستطاع أن يتخذ نظارة
سوداء تخفي أشنع جانب من دمايته . بل في عصره هو استطاع نفر من
خاصة أصدقائه ومسامريه أن يتناسوا قبحه في ظرف حديثه وحسن
مناديته .

وصحيح أنه كان يظل لاذع النسيطة ، فيسبب لنفسه بهذا خصوما
كثيرين . ولكن إن يزيد الأمر فيه عن كثيرين آخرين من العظام
ذوى الخصوم ، فخصومه هؤلاء ما كانوا يلجأوا إلى الاضطهاد المسرف ،
إذ هو واحد منهم فلا يضطهدونه لأجنبيته ، وكذلك لا يضطهدونه
لعماه أو دمايته فقد بلغوا من التفكير والمستوى الخلقى ^{درجة} ترأ بها
بهم عن هذا . فحين لا يلقى منهم اضطهادا يكون لهذا أثره في التخفيف
من وخز ردوده ، فلا تصل ذلك الحد من الإيلام والتسمم ، فقد
رأينا أنها إنما بلغت لفرط ملاقاه من إساءة الناس . وبعد فهذا برناردشو
له في رواياته ومقدماته وفي مقالاته النقدية ونوادره الاجتماعية ردود
لا تقل لذعا عن ردود بشار ، ألم بها رجال مجتمعه إيلا ما عظيما
ولكنهم اغتفروها له بل انتهوا إلى تقبلها منه راضين بها مدركين
لاستحقاقهم إياها .

لو وجد بشار في مثل هذه البيئة أذن لزال معظم العوامل التي
نغصت عليه حياته ، فيزول بزوالها معظم نواحي الشر في شخصيته ، فقد

أتضح الآن أن معظم هذه النواحي لم يكن فيه أصيلا بطبيعة التكوين بل كان مكتسبا من آثار البيئة . فحين تزول معظم نواحيه الشريرة ينفصح المجال أمام نواحيه الخيرة الأصيلة التي رأيناها فيه ، فيتاح لها ميدان عظيم للنمو والزيادة والغلبة .

وهنا أنبه القارىء إلى الأهمية الحقة لفضائله تلك . فأهميتها الحقة ليست أنها وجدت فيه ، بل أنها بقيت فيه إلى ذلك الحد الكبير الذى رأيناه رغم كل ما قامى ، فلنتصور الآن ماذا كانت تصير لو لقي حياة أسعد وتقديرا أعدل . إلام كانت تصل طيبة قلبه ، وبره بأهله ، ورقته وحنانه ، وكرمه وسخاؤه ، ووفاءه للأصدقاء وإعرازه لصداقتهم ، وفكاهته وظرفه وحسن حديثه ، وماذا كانت تنمو فيه من محاسن أخرى كثيرة . . .

أى رجل مختلف كان حينئذ يصير ! ولكن لا داعى إلى تخيل وجوده فى بيئة حديثة ، بل كان يكفى فى إصلاح معظم عيوبه لو تأخر به الزمن جيلا واحدا أو جيلين على أكثر تقدير ، فعاش لا فى الوقت الذى كان يضطهد فيه العرب الموالى ، بل فى الوقت الذى انحدر فيه الجنس العربى وزال سلطانه على الامبراطورية الإسلامية ، فتحققت المساواة بين الأجناس المختلفة التى عاشت فيها ، مع نوع من الغلبة للجنس الفارسى ، وفى الوقت الذى كان فيه الناس أرحب صدرا بخلاعة أهل الخلاعة وتشكك ذوى الشكوك .

بشار أذن شخصية تكونت معظم خصائصها بتأثير عوامل البيئة لا

بارغام عوامل التكوين الطبيعي . فان شاء القارىء أن يزداد لهذا تقديرا
فليقارنه بشاعر صح عليه الحكم النقيض ، بابن الرومى .

فابن الرومى كانت معظم أسباب فشله ودواعى ألمه وشقائه من
تكوينه الجسمانى والنفسانى ، لأمن تأثير بيئته ، ولو تصورنا وجود
ابن الرومى فى مثل تلك البيئة المعاصرة المهذبة التى تخيلناها لبشار ،
لوفر عليه هذا كثيرا من أسباب ألمه دون شك ، ولكن أكثرها كان
يبقى : من اعتلال صحته وضعف بدنه منذ الولادة ، وكثرة اختلالاته
العصبية والجنسية والغدية ، وشدة مخاوفه وإفراط طيرته ، وشذوذ
تصرفاته وغبابة أطواره ، وكثرة عقده الباطنة وصراعاته النفسية .

كل هذه العوامل التى وجدت بالطبيعة فى ابن الرومى تعذب
صاحبها عذابا حقيقيا مهما تكن بيئته ، وتبقى مضطربا شاذا عن
مجتمعه شديد الشذوذ طول حياته ، فان عدت على ضوءها الى بشار
وجدت أن ما عذبه من عوامل التكوين الطبيعى كان هينا بالمقارنة .

فى سنة ١٩٤٠ كنت أعرف زوجين من جزر الهند الغربية يعيشان
فى كمبردج ، لهما غلام فى التاسعة من عمره . وكان هذا الغلام آية فى
الذكاء وتوقد الفهم ، وكان ظريفا خفيف الروح ، وكان أيضا رشيقا
ومسيم الوجه جذاب الملامح ، وكان الناس يعجبون بملاحة وظرفه
وذكائه ، فخیل لى أن مستقبله قد تم تحديده ، وأنه صائر إلى النجاح
والفوز بحب الناس وتقديرهم طول حياته .

وفي صيف سنة ١٩٥٠ قابلته صدفة بأحد أندية لندن ، فأقبل على هاشاً محبباً ، وذكري به ، وتأملت به فإذا به يحتفظ بسابق وسامته ، وجلست أتحدث إليه فإذا به على عهدي به حلو الكلام أوفاً مصادقاً ، فقلت ها تنبؤى قد تحقق .

ثم دعوته إلى تناول الغذاء معي فقبل شاكرًا مهللاً ، ولكن ما أن ذكرت له اسم المطعم الذي اخترته حتى بدا على وجهه تغير عجيب لم أفهم سببه ، وخيل إلى لحظة أنه سيرفض ، ولكن سرعان ما علت وجهه ابتسامته المعهودة ، وهب من كرسيه بعزيمة ونشاط ، وصحبني إلى الطعم المختار .

وكان عهدي بخدم ذلك المطعم مخلصين في الخدمة ، مسرعين إلى التلبية ، حريصين على راحة الزوار ورضاهم . فخالطني شيء من الحيرة حين وجدتهم في هذه المرة على غير عهدهم من التحية الهاشة والاحتفاء والتلبية العاجلة . ولكن قلت في نفسي : هم اليوم شديداً الانشغال ، والمكان زائد الازدحام ، ونسيت المسألة برمتها ، وأقبلت على ضيفي متحدثاً محبباً .

وفجأة أدركت أن الخادم قد تغيب إلى حد غير معقول ، فابتسمت لضيقي واعتذرت له ، وقلت أنه يبدو أننا اخترنا يوماً شديداً الازدحام . وما كدت أتم اعتذاري حتى دهشت أعظم الدهشة للتغيير التام الذي طرأ على وجهه ، فقد تلاشى ذلك الوجه السمج المتهلل ، وتلك البسمة الحلوة المتوددة ، وحل محلها وجه كالح مربد ، وابتسامة قاسية متعسكة ، فلما نطق كذبت أذني ، إذ سمعت ، بدل الصوت المرح

السعيد الذى أعرفه ، صوتا خشنا أجش شديد الفاظظة . قال لى
بسخرية مؤلمة : أنظن أن السبب هو ازدحام المكان ؟ ما أطيب قلبك !
بل السبب أنهم يحتقرونى للونى ، ويتعمدون التباطؤ وإساءة الخدمة
حتى لا أزورهم مرة أخرى ، فهذا مطعم راق لا يرحبون فيه بالسود
وإن كان القانون لا يسمح لهم باغلاق أبوابهم دونهم .

ولما أجمت مستنكرا ، قاطعنى بحدة قائلا : إن أردت أن أقنعك فاسمح
لى بأن أطلب من الخادم شيئا ، وانظر كيف يجيبنى . وكنت حتى ذلك
الوقت أعطى الأوامر لآتى الداعى ، ولكنى لم أجد بدا من إجابة رجائه .
فنادى خادما واقفا إلى المائدة المجاورة ، فتصنع الخادم أنه لا يسمع ،
ولكن صديقى ألح حتى اضطر الخادم إلى الاقبال ، فجاء وعلى وجهه
علائم من الكراهية والغضب لم أستطع أن أخطئهما ، فبادر صديقى
قائلا بسوء أدب شنيع : لست الموكل بمائدتك ، فانتظر حتى يحضر
سفرجيك !

فالتفت إلى صديقى وقد انفرجت شفته بابتسامة شيطانية مرة
وقال : أرأيت !

ثم أقبل على يحدثنى بتجاربه ، ويقص على أخباره منذ فارقه من
سنوات عشر ، وطال بنا الحديث فعدنا إلى نادينا لنتمه ، وما حل
المساء حتى كنت قد عرفت القصة بكمالها .

فذلك الصبي الظريف الخفيف الروح ، المرح الباش ذو المودة
والرغبة فى مصادقة الناس جميعا ، قد صار شابا حاقدا عظيم المرارة ،

قاسى القلب ساخرا ، لا يشغل فكره سوى تدبير المساكيد التى يغىظ بها البيض ويوقع بهم الضر دون أن يقع تحت طائلة القانون . وينتظر بنفاد صبر ذلك اليوم الذى سيتم فيه تعليمه فيندمج فى الحياة السياسية ، ولا حاجة بي إلى أن أذكر أنه لم يجد مذهبا يرضى تعطشه إلى الانتقام سوى الشيوعية الهدامة .

واستنكرت ماصار إليه ، وصارحته باستنكارى ، وبدأت أحاول مناقشته بالحجج المقنعة ، ولكنى سرعان ما أقلعت عن هذه المحاولة ، إذ تبدى لى من حرارته وانفجاره أنه غير مستعد للمناقشة والاقناع .

ورحت أفكر فيه وفيما قال ، فما استطعت أن ألومه . فهذا فى يقبل على العالم متوددا باسماء يود أن يصادق الجميع ، فلا يلقي إلا الاعراض بعد الاعراض ، والاهانة تلى الاهانة ، ويمتد به العمر سنة بعد سنة ، وهو كلما أدبر عن صباه وتوغل فى شبابه ازداد الناس عنه ازورا وله مقاطعة ، فتفتر بالتدريج عزيمته فى محاولة اكتساب الأصدقاء ، ويزداد خيبة أمل ، حتى يبلغ اليأس التام ، ثم ينقلب إلى ذلك الحاقد القاسى الذى رأيت . والله وحده يعلم ماذا سيكون منه من الشر حين يستكمل رجولته ويستتم مقدرته على الإيذاء والانتقام ، وحين يعود إلى بلاده بعد انتهاء تعليمه فينخرط فى حياتها السياسية .

هذا مع أنه قضى فترة مراهقته فى إنجلترا ، وهى بلاد قد يكره أهلها الأجانب جميعا ويحتقرونهم ، ولكنهم فى العادة يكتمون هذا الكره والاحتقار فى صميم قلوبهم ، يأخذون أنفسهم فى معاملتهم

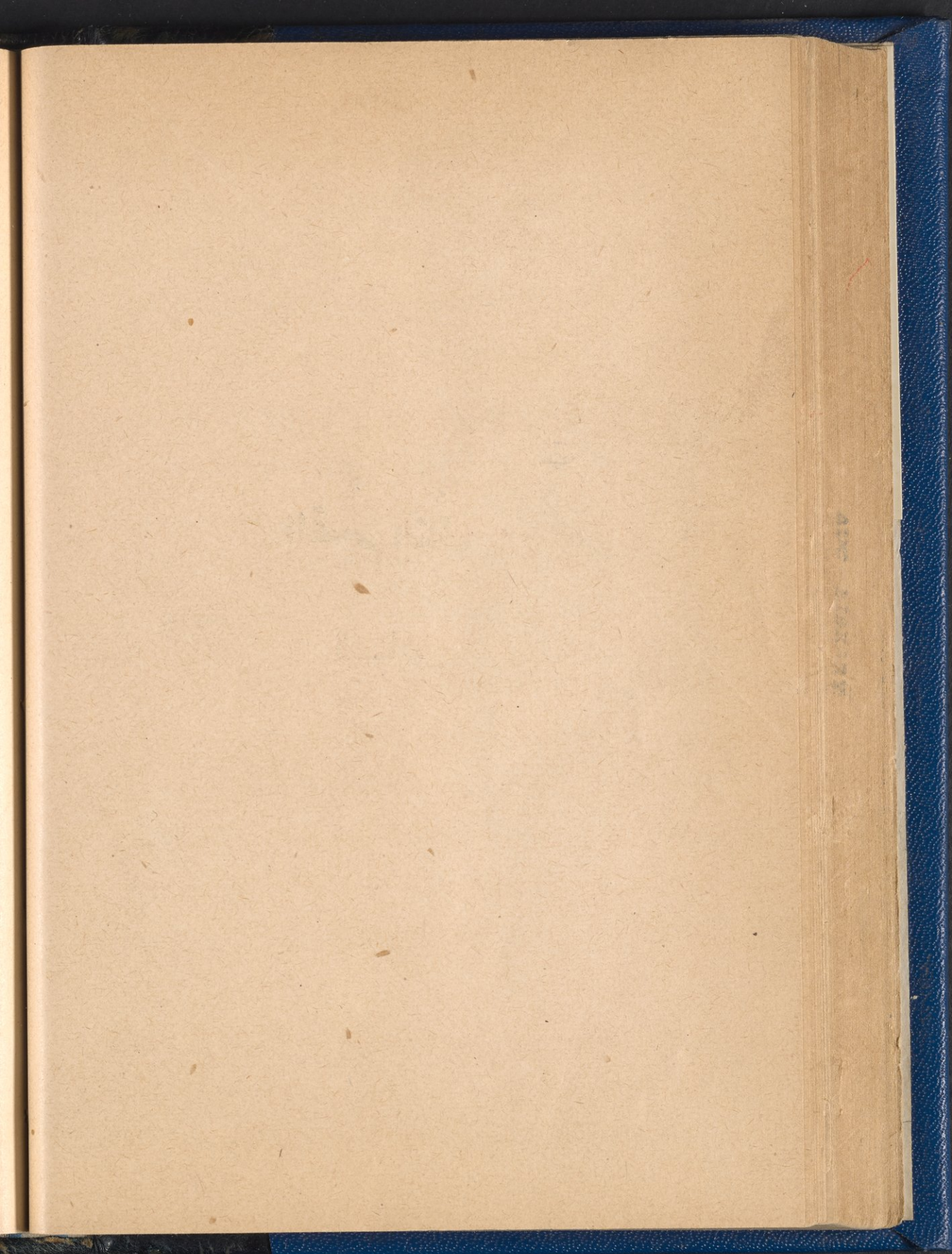
ما المون
قاسى القلب

بالآداب التقليدية ، فان ظهر منهم شيء فهو في الغالب لا يزيد على قدر
من الجفاء والعبوس ، أو هذا على الأقل هو تصرف متعلّمين
وأهل الطبقة الوسطى منهم ، فان عرض للاجنبي في بلادهم إهانة فهي
لا تصدر إلا من رعايهم وجهالهم ، فهو يستطيع أن يغض النظر عنها
ويرفع بكبريائه عن الاهتمام بها .

فماذا كانت حالته تصير لو أنه عاش في بلاد كأمريكا أو جنوب
أفريقيا ، يحتقر فيها السود احتقارا صريحا لا خفاء فيه ، ويؤذون إيذاء
فعليا ، ويلقون اضطهادا مدبرا مسموحا به من طبقات الأمة كافة ،
اضطهادا يقره العرف ، ويغضى عنه القانون ، أو يحلله تحليلا رسميا ؟
إن تأمل القارئ في هذه القصة فسيذكر عاملا واحدا من العوامل
البيئية التي صاغت شخصية بشار .

القسم الثاني

الشاعر



الجانب الأول : ظلم

نقادنا وشعر بشار

لم يكن مناص من أن يمثل شعر بشار كلا الجانبين في شخصيته ،
 جانب الظلام وجانب النور ، أما أولهما فيتجلى في جزء من غزله نجده
 مفحشاً . وأما ثانيهما فيتجلى في سائر غزله ، ونجد فيه قدراً عظيماً من
 الرقة والحنان .

وليس العجيب أن نجد كلا الجانبين في شعره ، بل العجيب أن
 نجد نقادنا يسمحون لنفورهم من شخصيته بأن يفسد تقديرهم الفنى لشعره ،
 حتى لم يروا فيه سوى ما يؤذى ويبغض ، فإن رأوا في بعضه إجادة فهي
 إجادة صناعية ليس إلا ، وهم في ذلك قدار تكبوا الخطأ الأول الذي يجب
 أن يتحاشاه الناقد الفنى ، وهو أن يدع رأيه الشخصى في أخلاق
 الأديب يؤثر في تقديره الفنى لأدبه ، وأقوالهم في شعر بشار خير
 مثال أجده في نقدنا الحديث على ضرر هذا الخطأ وجوب حذر الدارس
 من الوقوع فيه .

فالشرط الأول في النقد الفنى هو أنه مهما يكن رأيك في الأديب
 كرجل ، وفي شخصيته كفرد إنسانى ، ومهما يكن نفورك عنه وذمك
 لأخلاقه ، ومهما يكن امتعاضك من سلوكه في حياته واسترذالك

لتصرفاته ، فانه ينبغي عليك حين تأتى إلى أدبه الذى أنتجه أن تبذل أقصى جهدك فى تناسي رأيك وشعورك هذين ، والأقبال على أدبه بذهن مفتوح ونفس سريحة مستعدة لتقدير الجمال الحقيقى فيه ان وجدت فيه جمالا .

وسر هذا الشرط أن الفنان مهما يكن فى شخصه مردولا مبهضاً فقد تكون فى فنه الملمح قطع تسمو على نقائص شخصيته ورذائل حياته وتلقى الألهام الجمالى من منابع الفن الصافية التى لم تسكرها مرارة ولم يفسدها ما تلوثت به حياته من أقدار الأرض ومصائب الدنيا وخصومات المجتمع ، صحيح أنه لا بد أن يكون فى فنه جانب يرى تأثيره بهذه التجارب ، ولكن قد يكون فيه أيضا ذلك الجانب الذى وصفناه والذى يسمو على تجاربه الأرضية المحدودة ويتصل بالروح الجمالية الخالصة يهتز بها ويستمد منها وحيه الفنى .

أضف إلى ذلك أنه مهما تكثر عيوبه وتعدد رذائله فاننا لا نستطيع أن نصدق أنه كان وحشا أو شيطانا ، بل لا بد أن كانت به محاسن من نوع ما مهما تكن قليلة العدد أو ضعيفة الأثر فى سيرته البشرية ، فهذه المحاسن ربما تنطلق فى بعض فنه وتستكمل أقصى حريتها ويتفسح لها المجال حراً لا قيود فيه فتتجلى على أتمها وأروعها .

فالناقد الذى يسمح ببخضه الشخصى أن يؤثر فى تقديره الفنى قد يعقل هذا الجمال فى فنه إذ ينخلق أمامه قلبه فيقل من حدة حسه الفنى ويسمم ذوقه الجمالى . وان كان العطف لازما فى فهم الشخصية فهو أعظم لزوما فى تذوق الفن .

ولقد تحقق هذا الشرط النقدي البدائي في كتاب « مع المتنبى »
فوجدنا مؤلفه برغم كراهيته للشاعر الذى يدرسه واستثقاله لظله
ونفوره من دعواه العريضة واحتقاره التام له كرجل ، ينسى هذه
الخصومة الشخصية نسيانا تاما حين يأتى إلى شعره فيقدر مابه من جمال
خير تقدير ويوفيه حقه الكامل من الإعجاب والاستجابة العاطفية بل
ينجح فى أن يكتب عن المتنبى أصح تقدير فى نجدته عنه فى نقدنا الحديث .

ولكن ما استطاعه طه حسين حين درس المتنبى لم يستطعه حين
درس بشارا ، ولم يستطعه ناقدانا الآخرون العظميان العقاد والمازنى .
فاستمع الآن إلى بعض ما يقوله ثلاثتهم عن فنه الشعرى .

يقول طه حسين :

« كان شعره كله [لاحظ قوله كله] اغراء بالفجور وحثا على
الفسوق وإفسادا حتى لأشد النساء حرصا على الشرف وأوفرهن حظا
من الإحصان . . . وأحسب أن صوت نفس بشار ليس بالرقيم ولا
بالرقيق ، كما أنه ليس بهذا الصوت الضخم الذى لا يخلو على ضخامته
من حلاوة ولين ، وإنما هو صوت لاحظ له من الحلاوة ، ولعله يخيفك
أكثر مما يستهويك ، ولعله ينفرك أكثر مما يرغبك ، ومهما تكن
لبشار الأشعار الجياد البارة فأنا لا أحبه ولا أميل إليه . والغريب أن
كل ما حفظ لنا عن بشار لا يحبه إلينا ولا يعطفنا عايمه ، فهو ثقیل حتى
حين يضحك ، وهو ثقیل حتى حين يريد أن يضحك ويرضيك . . . »

خلطه بين الحكم الشخصي والحكم الفنى واضح فى هذه السطور
وضوحا لا يحتاج إلى تنبيه ، وستجد هذا الخلط فى سائر أحكامه وأحكام
زميليه . فهو يقول أيضا :

« أخبار بشار تمثله منافقا فى سيرته يدارى الناس ويتقيهم ليعيش
ثم يذرهم ويخيفهم لينعم بعيشته ثم يسخر منهم متى أتيح له ذلك . وأذن
فهو أقل الناس حظا من صدق اللمجة والعاطفة ، وإذا قرأت شعر
بشار فلا ينبغي أن تبحث فيه عن شعوره وعواطفه ولا عما يحس أو
يؤمل فيما بينه وبين نفسه وإنما ينبغي أن تبحث فيه عما يريد أن يظهر
أو عما يريد أن يتسكف للناس من العواطف والشعور والميل . ليس
شعره شفافا كشعر أنى نواس والحسين بن الضحاك ومطيع وحماد عجرد ،
وإنما هو شعر ككثيف صفيق لا يدل من نفس صاحبه على شيء ،
وهو كاذب أبدا لا يحفل بالكذب . . . »

رأيت كيف يحكم على شعره بحياته . يقول : كان فى سيرته منافقا
كاذبا . إذن كان فى شعره منافقا كاذبا كذلك ! بل يدعوك إلى ألا
تحاول أن تجد فى شعره عاطفة صادقة أو لهجة صادقة ، فدلنا بهذا على
أنه هو لم يحاول ، وجوابنا هو : لا غرابة إذن أن لم يعثر فى شعره على
صدق شعور أو عاطفة ، فالذى يقبل على شعر شاعر بهذا اليقين السابق
أنه لن يجد فيه خيرا فهو بالطبع لن يجد فيه خيرا .
ويقول أيضا :

« هو إذن [لاحظ إذن هذه] ليس بالشاعر المخلص ولا الصادق
حين يمدح ولا حين يتغزل ولا حين يرثى ، . ثم يعترف له بالصدق
فى موضوعين اثنين لا غير ، فى الهجاء ، وفى شكوى سوء مكانه من

الناس وحرمانهم إياه وبخلهم عليه بما كان ينتظر ، ثم يقول عن غزله :
 « بين يدي غزل لبشار ليس بالكثير ولكنه ليس بالقليل أيضا
 وهو سواء كان قليلا أم كثيرا لا يمثل عاطفة ولا شعورا صادقا .
 وإنما يمثل أمرين اثنين ، يمثل تهالكا على اللذة وإخاشاً في هذا التهالك
 وافتناناً فيه أيضا دون أن يراقب الشاعر في ذلك خلقاً أو أدباً أو ديناً
 ويكفي أن تعلم [لاحظ قوله يكفي أن تعلم] أن علماء البصرة من أهل
 الدين والوعظ والكلام ومن بينهم واصل بن عطاء والحسن البصري
 ومالك بن دينار جميعاً قد هتفوا به وشكوه بعد أن وعظوه ونصحوا له ،
 ويمثل رغبة في الفساد وإذاعة السوء . ثم يتبع ذلك بالاستشهاد برأيته
 المفحشة ، ولكنه لا يتدبر سائر غزله . ثم يقول :

« هل أحب بشار حبا صادقا ؟ هذا سؤال أحاول أن ألتبس الجواب
 عليه في شعر بشار فلا أجد إلى ذلك سبيلا ، فقد قلت لك أن شعره
 كشيء ضفيق لا يدل على عاطفة وأن الكذب فيه كثير والتكاف فيه
 لا حذله ، أريد تكلف المعاني . » ثم يستشهد بشعره في عبدة ، وهو
 شعر لا شك أن معظمه متكلف ، ولكنه ليس كل غزل بشار ، ثم
 يأتي بأعظم الأمثلة تدليلا لنا على إفساد حكمه الشخصي لنوقه الفن ،
 وذلك حين يعرض لقصيدة بشار الرائعة : « أيها الساقيان صبا شرابي ،
 وسأ نقل للقاريء كلامه عنها كاملا . يقول :

« وله أبيات زعموا أن الوليد بن يزيد بكى لها وهي لا تخلو من
 جودة ، وأنا أرويهما لأن قصتها لا تخلو من عجب .

أيها الساقيان صبا شرابي واسقياني من ريق بيضاء رود
 ان دائي الظما وان دوائى شربة من رضاء ثغر برود
 ولها مضحك كغر الأقا حى وحديث كالوشى وشى البرود
 نزات في السواد من حبة القلا ب ونالت زيادة المستزيد
 ثم قالت فلنلقاك بعد ليال والى الى يبلين كل جديد
 عندها الصبر عن لقائى وعندى
 زفرات يا كلن قلب الحديد

« قالوا فطرب الوليد وقال من لى بمزاج كأسى هذه من ريق سلى
 فيروى ظمأى وتطفأ غلى ، ثم بكى حتى مزج كأسه بدمعه وقال ان فاتنا
 ذاك فهذا .

« فى هذا الشعر متانة وجودة ورقة ولكنى لا أحب أوله وربما
 استسحقته ، ولست أدرى كيف يستطيع الساقيان أن يسقيا بشاراً
 من ريق صاحبه ؟ . . وأحسب أن هذه ليست صناعة السقا . وإذا
 كانت هذه القصة صحيحة ، فهى إنما تمثل رقة هذا الشاعر الذى أحبه
 وأعطف عليه وهو الوليد بن يزيد الذى فاته ريق سلى فمزج كأسه
 بالدمع يسفحه البكا عليها . »

والطريف فى هذه السطور أن هذه الأبيات من أروع الشعر العربى
 وأرقه وأعظمه هزا للنفس وأعنفه تأثيراً فى القلب ، يأتى إليها ناقد
 لا شك فى إرهاف حسه الفنى وسلامة ذوقه الجمالى وشدة تأثره بالشعر
 الصادق الجمال ، ولكنه لا يحب قائلها ولا يعطف عليه ، ولا يريد أن

يرى في شعره جمالا ، ولكن ذوقه الفني الصافي يعصيه ويتمرد عليه
ويحاول خلسة أن يتأثر بهذه الآيات الفائقة ويطرب لها ، ولكنه يشتد
عليه ويقهره ويرغمه على النفور منها واستسخافها ، وهذه المعركة الطريفة
واضحة في السطور الماضية ان تأملت فيها بضغ دقائق ، فانك تجده
يعترف مرغا مكرها بأنها « لا تخلو من جودة » ، وبأن فيها « متانة
وجودة ورقة » ، ثم يكاد يقول بصريح العبارة : ولكنى لا أحب قائلها
ولا أعطف عليه ، إذن فلا ينبغي أن أتأثر بها وأطرب لها ، فلا فتش
إذن عن شيء قبيح فيها ، فيجد هذا الشيء في بيتها الأولين . فيها جمها
مهاجمة ليس أبعد منها عن النقد الفني الصحيح ، والذي يستخف حديث
بشار إلى الساقين بهذه الطريقة يستطيع أن يستخف معظم ما يستعمله
الشعراء من الأقوال المجازية والأكيلة الشعرية ، وليس يحكم على أمنيته
العاطفية باستحالتها المادية ، وإلا فماذا كان يقول طه حسين لو قرأ بيتاً
لشاعر انجليزى شديد الشبه ببيت بشار هذا ويفوقه استحالة تحقيق ،
يقول فيه الشاعر محبوبته : اشربى نخبى بعينيك ! ثم تواجهه مشكلة ،
وهى أن الوليد بن يزيد طرب لهذه الآيات وبكى لها . وهو من
هو سليقة شعرية وبصيرة فنية ، فيخلص منها بأن يقول : هذا يدل على
رقة الوليد — فأنا أحبه وأعطف عليه — لا على رقة بشار !

وأخيرا يأتى طه حسين إلى قصيدتين لبشار يستطيع أن يستجدهما
استجادة تامة وأن يسلم بصدق عاطفته فيهما ، ولكن ما هما ؟
هما الميمية :

أبا جعفر ما طول عيش بدائم ولا سالم عما قليل بسالم
والبائية التي يقول فيها :

إذا الملك الجبار صعر خده مشينا إليه بالسيوف نعاتبه

وتخصيصه هاتين القصيدتين بالاعجاب الخالص هو من أعاجيب
نقدنا الحديث، فليس فيهما شيء إلا متانة الصياغة ووطننة اللفظ، وهذا
عنصر من عناصر اللذة الفنية لا شك، لكنه من أهونها وأصغرها
قيمة وأشدّها سطحية، ونحن نساح مشايخنا ذوى الأذواق البدائية
والنظرات السطحية حين لا يروهم في شعر بشار سوى هاتين القصيدتين
الريختين وأما لهما من شعره ذى الفخامة اللفظية الفارغة، فهذا وحده
هو نوع الجمال الذى يستطيعون تقديره في شعر بشار أو شعر المتنبي
أو سائر الشعر العربى. ولكن تأمل أعظم نقادنا المحدثين وأعمقهم
ذوقاً وأصفاهم سليقة يرغمه بغضه لبشار على الانصراف عن شعره
الصادق الجمال حتى يشارك مشايخنا في تخصيصهم شعره الطنان بالاعجاب!
وما فعله طه حسين هو ما فعله العقاد والمازنى أيضاً، لم يريا في شعره
سوى رصانة اللفظ، وجودة الصياغة. فالعقاد يقول :

« أما شعره فرصين صحيح في الأكثر الأعم بما وصل إلينا منه،
وهو يقسمه قسمين بدوى تغلب فيه الجزالة والجفوة وحضرى تغلب
فيه الرقة والنعومة . . . وروح شعره هو الروح الذى يعرف به أمثاله
من ذوى الطبيعة الحيوية والمزاج الديوى الذى يتخيل الأشياء كما يحسها
في عالم الواقع القريب ويراهما كما تبدوا في صور المعيشة المعهودة وحقائق
البيت والسوق، فلا الهام في شعره ولا حنين ولا أشواق ولا بدوات

ولا خيال، ولكنها تجربة الدنيا تملئ عليه ما ينظم من الحكمة والوصف
والغزل والهجاء فلا يمتاز فيها عن سواد الناس بغير اللسان اللبق والقدرة
على النظم والتعبير . . . ولا ينتظر القارئ أن يسمع من غزل بشار
تلك النغمة الساحرة التي ترتفع بالنفس إلى عالم الأحلام والأشواق
وتسبح بها في فراديس الأفراح والأشجان، ولا يرج أن يطالع منه
وصفا للحب كأوصاف أولئك الشعراء الكمالين الذين يجعلون المرأة
المحبوبة أقنوما مائلا للعيان يجمعون فيه كل ما خامر نفوسهم من المعاني
الخفية والآمال الممنوعة والمحاسن التي لا أسماء لها في لغة اللسان والمواجد
العطشى إلى غير مورد . فكل أولئك غريب عن طبعه بعيد من مشربه
كما قلنا في الفصل السابق . وإنما كان غزل بشار وصفا للذات الحس التي
يماشرها أو يشترك إليها، وكان حبه حبا « للنساء » لا حبا « للمرأة » أو
هو كان حبا للأنثى التي يراها واحدة في كل امرأة على اختلاف الصفات
وتعدد الأسماء، فليس يحتاج الشاعر إلا لأن يكون « حيوانا » ذكيا
لينظم مثل ذلك الغزل ويجيد فيه أحسن الأجادة . . . فهو يفهم « الأنثى
الجسد » ذلك الفهم الخلق بطبيعته الحيوانية ولذاته الحسية ولكنها
لا تقرأ له بيتا واحدا [بيتا واحدا !] يسمو به إلى إدراك « النفس »
الآتوية وما فيها من حلاوة صافية ورحمة سماوية وكنوز عطف تغذى
بها وجدان الرجل وترضعه بها روح الحياة طفلا كبيرا كما أرضعته من
قبل وهو طفل صغير .

وهذا المازني الذي بذل جهداً يشكر عليه في إنصاف شخصيته
نوعاً ما من الإنصاف، يأتي إلى شعره فلا يرى فيه إلا ما رأى زميلاه،

بل يكرر أحكامهما بنفس لفظهما أحيانا ، فيدلنا على أنه إن كان حاول أن يقبل على شخصية بشار بذهن مفتوح ، فهو لم يفعل هذا حين أقبل على شعره ولم يحاول أن يدرسه دراسة جديدة بل رأى فيه نفس الفكرة السابقة واكتفى بترديدها :

فما كانت المرأة عند بشار إلا أنثى يصبو جسد الرجل إلى جسدها ، وأداة يرضى بها غريزته ، وندر أن يرتقى إحساسه بها إلى المعاني النفسية ... وكل غزله حسي واقعي لا يرتقى فيه عن هذه المرتبة ولا يجاوز وصف المحاسن الملموسة أو ما يتخيله وراء اللبس أو السمع مما فاته بذهاب بصره ، ولكنه لا يرتفع إلا في النادر - وعلى سبيل التقليد والمحاكاة - عن نطاق الحس ... ولم يكن يعنى بالصدق في الأعراب عن عاطفته ، وإنما كان معنيا بسيرورة الشعر وشهرته ... وليس لبشار في غزله صدق يعرف من كذب ، فقد كان الشعر عنده صناعة وكان همه أن يقوله في أغراضه وأن يقال أحسن وأجاد ، لا أن يكون صادق السريرة فيه ... فلم تكن مزية بشار سمو المعنى ، وقوة الخيال ، أو صدق العاطفة ، أو إخلاص السريرة ، أو نفاذ البصيرة ، وإنما كانت قدرته على الأداء الجيد الموافق للمعنى الذي يعالجه والغرض الذي يقول فيه .

انتقام

فما نصيب هذه الأحكام من الصحة ؟

إن كان نقادنا الثلاثة قد شطوا في مهاجمة بشار فيجب أن نحذر من

أن نشط في الدفاع عنه . فهناك حقيقتان لابد أن نسلم بهما . أولاهما أنه لا شك كان على قدر عظيم من الشهوانية والشبق ، وثانيتهما أن جزءاً من شعره لاشك داعر في ذاته ويحرض على الدعارة معاصريه .
ولسكن هذا كل ما نسلم به — أما أن يصلوا بشهوانيته إلى حد « الحيوانية » فإسراف ، وأما أن يصفوا جميع شعره بما لا يصح إلا على جزء منه فتجاوز لا يعذرون فيه .

فبشار لم يكن في شبقة وحشا هائجا بشعاً ، لا ولم يكن في نظراته إلى المرأة وفيما يتطلبه منها محبوساً على ناحيتها الجسمية المحضنة ، بل قد استطاع أن يرى في المرأة جمالاً آخر يعلو على الجمال الجسمي وإن كان يبدأ منه ، وأن يستمتع منها بالمتعة الرقيقة المهدبة التي لا إلفاش فيها ولا غلاظة . وشعره الداعر الحاض على الفجور ليس كل شعره ، ولا هو معظم شعره ، بل هو لا يتجاوز قصيدة واحدة وعدداً من الأبيات المتفرقة لا يزيد على العشرين ، أما سائر غزله فعذب النغمة سلس ذو حلاوة صافية وحنان بالغ الرقة .

والذي صرف نقادنا عن إدراك هذه الحقائق هو أنهم أقبلوا على شعره بفكرة سابقة تم تحديدها من فهمهم لشخصيته وحكمهم على سيرته ، فلم يروا في شعره إلا ذلك الجزء الذي بدا مؤيداً لفكرتهم السابقة المحددة ، فاختفى عنهم سائر شعره وراء الظل الأسود الغليظ الذي ألقاه عليه شعره المفحش .

وسنبداً في اثبات رأينا بعد قليل ، ولكننا لن نتغافل عن شعره

المفحش بحجة أن الآخرين قد وفوه دراسة وأشبعوه نقداً ، بل سنبداً
مناقشتنا بالتأمل فيه ، تأملا لا يحاول التهوين من شناعته .

هذا الشعر يشمل ، كما قلنا ، أبياتا متناثرة من مثل قوله :

قاس الأمور تنل بها نجحا والليل أن وراه صبحا

لا يؤيسنك من مخبأة قول تغلظه وان جرحا

عسر النساء إلى مياسرة والصعب يمكن بعد ما جمحا

وقوله :

قالوا حرام تلاقينا فقلت لهم ما في التلاقي ولا في قبلة حرج

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهب

وتأثير أمثال هذه الأبيات في إغراء فتيان عصره وفتياته كان

شديداً ، وخبثها الحقيقي أنها على نصيب عظيم من الصحة ، كما تشهد

تجارب الحياة إلى يومنا هذا ، نضطر إلى تقرير هذا كارهين . لا ندعى

أن كل مخبأة تنتهي إلى المياسرة كما ادعى بشار ، ولا أن الفاتك اللهب

يفوز بغرضه في كل حالة ، ولكن يؤسفنا أن نعترف بأن ما يدعيه

ينطبق على حالات كثيرة جداً ، لا يغفل عن كثرتها إلا من يريد أن

يغشى على عينيه ويصم أذنيه عن وقائع الحياة السكرية .

ولكن هذه الأبيات الواضحة المعنى السافرة الدعوة ليست شيئاً

إذا قورنت برأيتيه : « قد لامني في خيلتي عمر » . ولكن الذي يدرس

هذه الرائية دراسة متأنية سيستكشف منها حقيقة هامة : أن بشاراً لم يلجأ

إلى نظم مثل هذا الشعر لمجرد شهوانية منه أو دعارة ، بل بدافع الانتقام .

فهو قد وجد فيه متنفساً عظيماً لما ابتغته مغاصروه في نفسه من الحقد

ينتقم من رجالهم باستباحة نسائهم ، وينتقم من شيوخهم بإفساد شبابهم .

فان أردت أن تتبين مدى سخطة وحقده فادرس رائيته هذه ،
ولو أننى سئلت أن أختار أشد الشعر العربى تشبعا بروح الانتقام لما
اخترت لامية تأبط شرا أو سواها من القصائد الجاهلية التى تهدد أعداء
القبيلة أو تشفى فيهم ، بل لاخترت هذه الرائية . ولو أننى سئلت عن
أعنف الشعر العربى سخطا على الناس وكرهية للبشر لما اخترت
قول المتنبي :

ومن عرف الأيام معرفتى بها وبالناس روى رحمه غير راحم
أو ما يشا كل هذا من الشعر ، بل لاخترت رائية بشار . فشعر
الجاهليين أو شعر المتنبي لا يزيد إذا قورن بها عن أن يكون غضب
صبيان ورعونة أطفال . ولو أننى سئلت عن أوغل الشعر العربى
إفحاشا لذكرتها ولم أعمد إلى النقائص أو أمثالها من المهاجيات التى تصرح
بأسماء الأعضاء المستورة أو تصف الاتصال الجنى وصفاء مكشوفاً ،
فهذه القصائد لا تزيد على بذاة الرعاع فى الشارع والسوق ، بذاة
قد تؤذى الأذن ولا يمكن لا يتغلغل ايذاؤها إلى أعماق من مركز السمع .
وهذه هى الرائية . فليتأملها القارىء وليدرسها على مهل .

- ١ قد لامنى فى خليلتى عمر واللوم فى غير كنهه ضجر
- ٢ قال أفق ، قلت لا ، فقال بلى قد شاع فى الناس منكما الخبر
- ٣ قلت : وإذ شاع ، ما اعتذاك مما ليس لى فيه عندهم عذر
- ٤ ماذا عليهم وما لهم ، خرسوا ! لو أنهم فى عيوبهم نظروا
- ٥ أعشق وحدى ويؤخذون به ! كالترك تغزو فتؤخذ الخرز
- ٦ يا . عجبا للخلاف يا عجبا بفى الذى لام فى الهوى الحجر

- حسبي وحسب الذي كلفت به ٧
 ٨ أو قبلة في خلال ذاك وما
 ٩ أو عضة في ذراعها ، ولها
 ١٠ أو لمسة دون مرطها يدي
 ١١ والساق براقعة مخلخلها
 ١٢ واسترخت الكف للعراك وعا
 ١٣ انهض ! فما أنت كالذي زعموا
 ١٤ قد غابت اليوم عنك حاضتي
 ١٥ يارب خذني فقد ترى ضرعي
 ١٦ أهوى إلى معضدي فرضضه
 ١٧ ألصق بي لحية له خشمنت
 ١٨ حتى علاني ! وأسرتي غيب
 ١٩ أقسم بالله لا نجوت بها
 ٢٠ كيف بأمي إذا رأت شفتي
 ٢١ قد كنت أخشى الذي ابتليت به
 ٢٢ قلت لها عند ذاك : يا سكني
 ٢٣ قولي لهم : بقية لها ظفر
- منى ومنه الحديث والنظر
 بأس إذا لم تحل لي الأزر
 فوق ذراعي من عضها أثر
 والباب قد حال دونه الستر
 أو مص ريق وقد علا البهر
 لت إيه غنى أو الدمع منحدر
 أنت ورب مغازل أشر
 والله لي منك فيك ينتصر
 من فاسق جاء ما به سكر
 ذو قوة ما يطاق مقتدر
 ذات سواد كأنها الأبر
 ويل عليهم لو أنهم حضروا !
 فاذهب فأنت المساور الظفر
 أم كيف إن شاع منك ذا الخبر
 منك فماذا أقول ، يا عبر
 لا بأس ، إني مجرب خبر
 إن كان في البق ماله ظفر

بعض قرائها قد يتعجبون من تلك الأحكام التي أصدرناها عنها ،
 تارة نصفها بأنها أقسى قصيدة في الشعر العربي ، وطورا نصفها بأنها

أخش قصيدة ، وهم لا يرون فيها قسوة ولا خشايسةطيعون أن يضعوا
عليهما أيديهم ، والسكن هذا هو خبث هذه القصيدة ، أن قسوتها وخشها
ليسا ظاهرين مكشوفين كحديث الصبيان أو رفث الرعاع ، بل هما
كامنان كمن السم الزعاف في الحلوى المسمومة أو الحية الزاهية الألوان .
فقد احتاط بشار أعظم الاحتياط وتخبر لفظه ، حتى لو أن قاضيا أراد
أن يحاكمه عليها لما وجد إلى إدانته سبيلا .

تتألف هذه الرائية من أقسام أربعة . فقسمها الأول بمشابة تمهيد
للقصة وإعداد للجو ، وهو أبياتها الستة الأولى . وقسمها الثاني يصف
الخطوات التدريجية التي اتخذها لإغراء الفتاة ، وهو الآيات الستة التالية .
وقسمها الثالث ، وهو باقى القصيدة ما عدا بيتيها الأخيرين ، يتحدث
عن حزن الفتاة وجزعها لما أصابها ، وبيتها الأخيران يعطيان رد
بشار عليها .

أما قسمها الأول فحوار يدعى بشار حدوثه بينه وبين صديق له ،
يعاتبه هذا الصديق على إسرافه فى حياة اللهو ، ويذكره بتأفف الناس
من سلوكه وسخطهم على حياته الداعرة ، فيتصنع بشار الغضب ويقول
ما لهم ومالى ! لم لا يتركونى فى شأنى وينصرفون إلى شأنهم .

قلنا إن بشاراً يتصنع الغضب . وهذا بالضبط هو المفتاح الذى
يقودك إلى حل العاطفة الحقيقية للرائية . فبشار حين نظمها لم يكن
غاضبا ولا حزينا ، بل كان فرحا عظيم الجذل ، إذ قد استطاع أن يغرى
فتاة عفيفة ، وهو بهذا يفرح فرحا خبيثا أن أتيح له الانتقام من الناس

باغتصاب فتاة من نسائهم العفيفات . فالغضب الذي يظهره بشار في هذه الأبيات غضب متصنع ، حاول إذن أن تتصور هذا الموقف الشعوري المعقد ، فليس الأدب بالبساطة التي يظنها الكثيرون ، ليس مجرد شاعر فرح يصف فرحه ، أو شاعر حزين يصف حزنه ، بل تصور الآن رجلاً هو في صميمه فرح شديد المرح والاعتباط ، ولكنه لسبب ما يتصنع الغضب والحنق ، وتخيل صوته المتهدج المضطرب بين العاطفتين ، العاطفة الحقيقية من السرور ، والعاطفة المدعاة من الغضب ، وهاك مثلاً : أبا يصيح بطفله الصغير متصنعاً الغضب ، لأن طفله هذا صب دواة الخبر على ضيف له ، ولكن الأب في حقيقةه يريد لو ينفجر ضحكاً وجذلاً ، لأن منظر الضيف مضحك جداً ، ولأنه في صميمه معجب بهذا الفصل ، الخبيث من طفله الصغير . فتذكر كيف يتقطع صوته إذ تنازعه العاطفتان ، وكيف تتشنج أسارير وجهه بين الجذل المكظوم والسخط المتكلف ، ثم اقرأ الأبيات الستة الأولى وحاول أن تستمع فيها إلى هذا الصوت المتهدج .

ثم انتبه في قراءتك لهذه الأبيات إلى الوزن الذي اختاره بشار لها ، اختار لها بحر المنسرح ، وهو بحر شديد التقطع والاضطراب ، وهو بهذا يلائم ما يريد بشار أن يمزجه من انفعالين متناقضين ، وبلائم شيئاً آخر ، هو الخلاعة المسرفة التي يريد أن يعبر عنها ، فهو بتقطعه وتدافع مقاطعه بين طول وقصر ، وتمهل ثم قفز ، وتحرك ببطء ثم تحرك متتابع مهتز ، يمثل بشاراً يتخلع ويهتز اهتزازاً متخنياً يقلد فيه امرأة داعرة تسكلف الحياء ، وهذا لا يتبدى لنا إلا إذا قرأنا الأبيات ببطء شديد

ثم بقفز مفاجيء ، وفصلنا بين مقاطعها مقطعا مقطعا ، واهتزنا نحن أيضا في قراءة كل مقطع :

ولكنه لم يكتف بالوزن ، بل انظر الآن إلى إجادة تقطيعه لعباراته والفاظه تقطيعا يحكى تخلعه وتثنيه حكاية تامة .

قد لامنى في خيليتى عمر واللوم في غير كنهه ضجير

قال : أفق ! قلت : لا ! فقال : بلى

قد شاع في الناس منكما الخبر

ثم تأمل في أسلوبه ، يأتى بالمعنى المألوف الذى تعاوره الشعراء من صديق يلوم صاحبه العاشق ويقول له أفق ، وصاحبه يرفض الاستماع إلى ملامته ، يأتى به بأسلوبه الخاص الشديد التخلع . (قال : أفق !) . وهو لا ينطق بهذا الأمر فى حزم ورجولة بل بتخنث عظيم كما تقول المرأة الخليعة « اصحى يا راجل ! » . (قلت : لا !) . وهو أيضا لا ينطق بكلمة النقي هذه بشدة وحزم ، بل كما تنطق بها نفس المرأة « لا ياخويه ! » . (فقال : بلى !) أو بأسلوبنا العامى : « الله بقى عليك ! » (١)

(١) لابد أن الكثيرين من القراء سيدهشون من طريقي هذه فى ترجمة الشعر إلى لغتنا العامية ، وقد ينفرون منها أو يرون أننى أسرفت فى استعمالها ، ولكنى أعتقد أنها لازمة لزوما تاما إذا أردنا تمثل هذا الشعر تمثلا صحيحا ، فهذا شعر عامى كان شديد العامية فى عصره ، فلا نفهمه حق الفهم إذا اكتفين بترجمته إلى أسلوبنا الكتابى الحديث ، بل لامناس من أن نترجم الموقف كله إلى موقف شبيه به فى حياتنا المعاصرة ثم نتذكر ما يصدر عن الأشخاص فيه من حوار باللهجة الدارجة ، ولست أظن انزعاج بعض القراء من استعمال هذا الأسلوب العامى فى دراسة هذه القصيدة والقصائد القادمة إلا ناشئا عن عدم تعودهم لمثل هذه الطريقة فى نقدنا الحديث ، فرجائى أن تضع الغرابة شيئا فشيئا كلما مضوا فى هذا الكتاب قدما .

ثم يرد على صديقه ردا ماهرا ، يقلب عليه حجته حين قال :
« قد شاع في الناس منك الخبر » . يقول : إذا كان خبرنا قد شاع كما
تدعى فما فائدة اقلاعى عن هوى وقد حدث ما تخشى منه وانفضح الأمر
وليسوا بعد بعاذرى ؟ ولكن انظر كيف يصوغ هذا المعنى :

قلت : وإذ شاع ! ما اعتذاك مما ليس لى فيه عندهم عذر ؟
تأمل قوله : وإذ شاع ! يلتفت بها إلى صاحبه مفاجئا كما نقول :
امسك ! قفشتك ! ثم تأمل الخلاعة الزائدة فى استعماله هذه الكلمات
القصيرة المتتالية : ليس - لى - فيه - عند - هم - ويختتمها بكلمة ذات
مقاطع ثلاثة متدافعة : عُدُرُ . وهو فى نطقه ليسكل منها يأتى بهزة جسمية
شفيعة تذكركنا بالنساء « البلدى » اللاتى نراهن فى الأحياء الوطنية أو فى
الأفلام المصرية الهزلية واحداهن « تروح » الأخرى أو تتخنج أمام
الرجل . واستعماله لحروف الجر والظروف لى - فيه - عندهم ، لابد أن
كان له فى عصره تأثير أشد مما قد يكون له فيما إذ كان لا يزال جديدا
ظريفا عجميا ، أما نحن فقد طال تعودنا لعبث الشعراء بحروف الجر ،
سواء منهم المتظرفون الخلاء والمتصوفة حين يقولون « منه له فيه »
وأمثالها .

ويستمر فى تخلعه ، وفى غضبه المتصنع ، وفى جذله الخفى ، فى
البيت التالى :

ماذا عليهم ، وما لهم ، خرسوا ! لو أنهم فى عيوبهم نظروا
وتقسيم الشطر الأول لا يحتاج إلى تحليل ، وهو ينطق بسبابه

« خرسوا ! » كما تنطقها المرأة التي « تروح » محرقة يديها مهتزة بكشحيها غامزة بعينها . أما البيت القادم فهو أقرب الأبيات إلى إظهار السرور الخفي الذي يحاول كتمه ويتصنع بدله الغضب :

أعشق وحدى ، ويؤخذون به كالترك تغزو ، فتؤخذ الخزر
يدعى الشكوى من تصرفهم ، ولكن تشبيهه الذي يأتي به يكشف
عن غبطته وجدله وشماته ، يشمت فيهم لأنه هو يتمتع بلذة العشق وهم
ينالهم أذاه ، فهو كالترك تغزو المسلمين وتؤذيهم وتقتل منهم ، ولكن
لا ينالهم العقاب بل يقع على جيرانهم الخزر .
أما البيت القادم فخلاعه تامة الوضوح :

يا عجباً للخلاف يا عجباً بفي الذي لام في الهوى الحجر
اقرأ الشطر الأول ببطء وتطويل شديد وبأقصى ما تستطيع من
التثني في خلال مقاطع « يا عجباً » ، ثم قارنه بازدهام الشطر الثاني
بكلمات قصيرة تمثل بتتابعها ضربة بعد ضربة ما يريد تصويره من
التخلع : بفي - ال - لدى - لام - في - ال - هوى - ال - حجر -

هذا هو القسم الأول ، ومهما يكن رأينا فيه من الناحية الخلقية
فنحن مضطرون إلى الاعتراف بمهارته الفائقة في تصوير المعاني التي
يريدها تصويرا يكاد يكون حسيا مجسما .

أما الأبيات التالية فيذكر فيها الخطوات التي اتخذها بحكمة وتدرج
حتى نجح في إغراء الفتاة . فأولاهها :

حسبي وحسب الذي كلفت به مني ومنه الحديث والنظر
أنه حين بدأ مجلسها لم يتسرع تسرع الغر الأرعن ، بل تصنع أن
كل ما يريد منها هو أن يستمتع معها بلذة الحديث البريء والمؤانسة
الشريفة ، فحادثها في مختلف الموضوعات وفاقها بالنوادرو والآخبار
حتى هدأت وأفرخ روعها وبدأت تطمئن وتحس بالأمن . فلما تم
له ذلك :

أو قبلة في خلال ذاك ، وما بأس إذا لم تحل لي الأزر
بدأ يتجراً على « قبلة في خلال ذاك » . فحين تم هدوء الفتاة
واطمئنانها وبدأت تجاذبه أطراف الأحاديث وتضحك لمراحه الذي
لا يزال بريئاً ، بل بدأت تبادله مزاحاً بمزاح ، تجراً على أن « يخطف »
منها قبلة سريعة عارضة ، « على الهامش » كما نقول ، ولم يقدم على
تقبيلها بشدة وإطالة وإلا عاد إلى إزعاجها وإخافتها ، فلم تسكد تحس
الفتاة بقبلته حتى كانت قد انتهت فلم تدع لها مجالاً للاحتجاج الشديد .
ولكنه كرر هذه القبلات الخفيفات وهو مسترسل في حديثه ومفاكهته
فلم تشعر الفتاة بأن قبلاته أخذت تسكتر وتطول ، ولم تدرك إلا وهي
تقابله قبلة بقبلة ، ولكنه في باقى البيت يذكر نفسه بضرورة الاستمرار
في الحذر والتدرج وعدم اللجوء إلى عمل طائش وإلا أفسد كل
ما ظفر به .

فلما دام ذلك مدة كافية انتهيا إلى هذا الطور :

أو عضة في ذراعها ولها فوق ذراعى من عضها أثر
طالت إذن القبلة واشتدت حتى تحولت إلى عضة ، وأخذت الفتاة

تجاوبه في هذا أيضا دون أن تدرك المرحلة التي صارت إليها ، وهي دون شك تجد في هذا التقييل والعص متعة كبيرة . ولكن بشارا في تودته واحتياطه لم يتسرع بل اتخذ خطوات أخرى :

أولسة دون مرطها بيدي والباب قد حال دونه الستر ولكنها لا تزيد في مبدئها عن أن تكون « لمسة » خفيفة سريعة سرعان ما سحب بعدها يده ورأى رد فعلها ، ويظهر أن رد فعلها هذا طمأنه فابتدأ يثق بنجاحه النهائي ، ولذلك يتأكد من أن الباب يستترهما وألا رقيب أو زائر يقطع عليهما حبل المغازلة .

والساق براقة مخلصها أو مص ريق وقد علا البهر انتهت المسكنة الغريزة دون أن تدرى إلى المرحلة الأخيرة التي لن تستطيع بعدها ارتدادا ، فأخذت تبتدى مفاتن جسمها وطالت القبلة فصارت مص ريق طويل شديدا لاثارة وعلت أنفاسها المتقطعة المتهدجة بالشهوة وهو الدليل الذي لا يخطئ على أنها قد اكتملت استشارتها ولم يبق إلا التسليم الكامل :

واستترخت الكف للعراك . . .

كل هذا بدأ بجلسة بريئة وبقبلة هينة خفيفة لم تر الفتاة فيها بأسا ، ولم تدرك — في جهلها بحيل الرجال — النار التي ستأجج من ذلك الشرر الصغير^(١) . وهذا كثيرا ما يكون مصير مثيلاتها من الجاهلات اللاتي

(١) من العجب أن نجد أحدى نقادنا الكبار لا يدرك المعنى الحقيقي لهذا القسم من القصيدة =

ظن أولياء أمورهن أن ابقاءهن جاهلات بحقائق الحياة يكفى لحفظ شرفهن .

ولكن انظر الآن دهاء بشار واحتياطه في نظم القصة . فبعد أن يقول : « واسترخت الكف للعراك » يقفز قفزا شديدا فيأبى أن يصف ما حدث ويثب مباشرة إلى نهاية الحادثة فيصف ما قالت الفتاة حين ثابت الفتاة من نشوتها وأدركت فداحة ما حدث لها . ولو أن هذا البيت يكتب بلغة أوربية تتخذ علامات الترقيم لكتبوه هكذا ، يضمون نقطة موضع الجزء الذى وثبه الشاعر :

واسترخت الكف للعراك
وقا لت : ليه عنى ! والدمع منحدر

== فيفعل عن هذه الخطوات المأكرة المتدرجة التى اتخذها بشار حتى نجح فى اغراء الفتاة الشريفة ، ويظنها جاءت إليه عارفة بما سيحدث ولقيته فى بيت من بيوت الدعارة ، فالمازنى يقول عن هذه القصيدة (ص ٧٦) : « والمرء يقرأها فيخيل إليه أن هذا بيت من بيوت الدعارة السرية . والصورة كلها صورة فتاة « بنت عشرين بكر » — فقد كان بشار يحبهن صغيرات — بضعة لينة من حوريات الأمصار المستراد لأمثالهن يغازلها ويلاعبها ويقارصها ويهم بها رجل قوى متين الأسر خشن الشعر وهى ذليلة مطواع بين يديه ، تقر له ، وتعترف بقوته ويلذ لها — وان كانت عينها تدرى الدمع — أن تلهج باقتداره عليها ، ومساورتها لها ، وظفره بها ، ولا يحيرها إلا غصة بشفتها لا تدرى كيف تخفى أثرها عن أهلها حين يعودون » . وبذلك يظلم هذه المسكينة البريئة الجاهلة أشنع ظلم حين يقول أنها ذليلة مطواع بين يديه تقر له ويلذ لها اللهج باقتداره عليها ، وسيرى القارىء أن شكواها من بشار شكوى خالصة لا تلذذ فيها ولا لهج ، وإنما هو دهاء بشار خدع باقدنا الكبير للأسف الشديد .

وبشار يريد بذلك ألا يدع لأحد مجالا لمؤاخذته أو معاقبته . ولو أن لائما لأمه لتصنع الدهشة وقال : ولكن أى شيء فى هذا يقارب ما تقبلونه من نقائص جرير والفرزدق وأراجيز الرجاز وشعر غيرهم مما يغص بالوصف المكشوف والألفاظ الصريحة ! أفقبلون ذلك وتحفظونه وتروونه ثم تعيرون على هذا الكلام الهين البسيط الذى ليس فيه لفظ واحد مرفث ؟

وتأمل الآن فى القسوة البالغة التى تكمن فى هذا القسم من القصيدة . فبشار يريد الآن أن يصف جزع الفتاة ورعبها حين تفيق من شهوتها الوقتية فترى ما حدث لها وتدرك فرط الايذاء الذى وقع بها . وظاهر هذا القسم أن بشار لا يزيد عن حكاية ما حدث ، ولكن حقيقة أنه فى وصفه لجزعها ولوعتها ساخر بها هازى . منها شامت بما حل بهامتش فى فيها ، وهذه هى الشناعة الحقيقية لهذه الأبيات ، يتصنع أنه يحكى حزنها ونحيبها ، ولكنه يحكى بصوته هو ، هذا ما يجب أن يتنبه إليه القارىء . لسنا فى هذه الأبيات نسمع صوت الفتاة تتفجع على ما حدث لها ، ولكن نسمع صوت بشار يقلد تحسرها متهكما ساخرآ ، ويقلد صوتها الأثوى فى خلاعة مسرفة . فإن شئت أن تفهم هذا الصوت المزدوج فهما صحيحا فتصور موقفا شبيها به . افرض أنى ضربت شابا ضعيفا منكسرا فبكى وصاح متألما شاكيا ، ثم جئت لك فحكيت لك ما حدث وأخذت أقلد صياحه وشكواه فى صوت يتلوى سخرية واحتقارآ وشماتة . هذا ما يفعله بشار فى هذه الأبيات :

... .. وقا لت : ايه عنى اوالدمع منحدر

انهض! فما أنت كالذي زعموا أنت وربى مغازل أشرف

نقف هنا لنأمل هذا اللفظ الماكر : انهض! يصور به بشار
موقفهما تصويراً غير مباشر، فهو لم يصرح في أى بيت سابق بأنه اعتلاها،
ولو آخذه مؤاخذه على انهض، لقال أنه إنما يحكى ما قالت حكاية
صادقة ولا يقصد أكثر من هذا. و الذي زعموا، يدلنا على أنه كان
قد احتال عليها بنفر من الرسل الذين امتلأ بهم ذلك العصر رجالا
ونساء، أكدوا لها شرف مقصده وعفة ضميره حتى قبلت أن تلقاه.
ثم يتجلى من الشطر الأول من البيت التالى:

قد غابت اليوم عنك حاضنتى والله لى منك فيك ينتصر
دهاء بشار إذ أحسن اختيار اليوم لمغامرته، فاختر يوم ما كانت فيه
وحيدة غابت عنها الأمة المكلفة بمحاربتها، أو لعله هو الذى تخلص
منها بوسيلة ماكرة. أما الشطر الثانى فليس بعده فى التخلع والتثنى.
تأمل فى تتابع حروف الجر: لى - منك - فيك - وتصورا هتزاز بشار
مع كل واحد منها. ولكننا ان قبلنا خلاعته فى القسم الأول من القصيدة
حيث كان لا يتحدث إلا عن نفسه، فإننا لا نستطيع أبداً قبولها هنا،
فهو هنا يقلد تفجعها الأثوى فى قسوة شنيعة لا تثير فينا سوى الكراهية
والسخط.

يارب خذ لى! فقد ترى ضرعى من فاسق جاء ما به تنكر

ولا بد أن هذا حدث فعلا، لا بد أن هذه المسكينة المخدوعة المغلوبة
على أمرها قد توجهت إلى الله فى ضعفها وعجزها بالشكوى وطلب

الانتقام ، ولكن شناعة البيت أن بشاراً هو الذى ينطق هنا مقلدا دعاءها وتضرعها فى سخرية فظيعة .

أما البيتان القادمان فربما كان لهما غرض بعيد :

أهوى إلى معضدى فرضضه ذو قوة ما يطاق مقتدر
ألصق بى حية له خشنت ذات سواد كأنها الأبر
تذكر مرة أخرى أن المتحدث ليس الفتاة ولكن هو بشار على لسان الفتاة ، فهو هنا ينسب إليها كلاما ظاهره الشكوى من قوته وخشونته وباطنه الإعجاب والشفغف بهذه القوة الذكورية الحشنة ، يريد أن يصور شعوراً أنشويا لاشك فى صدقه ، امتزاج ألم المرأة من خشونة الرجل بما تجده من لذة عجيبة مقترنة بهذا الألم بل لعلها صادرة عنه . فهذا الموقف هو أتم مثال فى التجارب الانسانية على اقتراب اللذة والألم إذا بلغا غايتيهما . ولكن لعل بشاراً لا يقصد بهذين البيتين مجرد حكاية ما حدث ، بل يرى إلى تشويق سائر النساء فى عصره إلى أن يتذوقن منه مذاقته تلك الفتاة من عنف الرجولة .

حتى علانى ! وأسرتى غيب ويل عليهم لو أنهم حضروا !
حين يقول ، حتى علانى ، فهو يقترب من التصريح إلى أقصى حد يسمح به لنفسه ، ولكن لا يزال فى استطاعته أن يحتج بأنه لا يقول هو شيئاً إنما ينقل ما قالته الفتاة . أما باقى البيت فشمانة ليس فيها خفاء ، ولا يحتاج القارىء إلى أن أنهه أن الذى يتحدث هنا هو بشار لا الفتاة ، فبشار نفسه هو الذى يسخر ويتشفى قائلاً : ويل عليهم - أى ويل بشار - لو أنهم شهدوا ما حدث لفتاتهم . فوجهه هنا ينفجر فجأة

بالجذل الشديد يكاد لا يستطيع كبحه حين يتخيل رعب أهلها وسخطهم
القتال حين يعرفون ما ألم بها .

أما البيت التالي فلعله أشدها إثارة لحزننا وحسرتنا عليها :

أقسم بالله لا نجوت بها ! فاذهب فأنت المساور الظفر

شظرا هذا البيت مختلفان في النبذة اختلافا تاما . ففي الشطر الأول
تتحول الفتاة من الجزع والنواح إلى الغضب الشديد على بشار فتهده
بأنه لن ينجو من مغبة جريمته . ولكن ما أن يخرج هذا التهديد من
فمها حتى تدرك سخافته واستحالة تحقيقه ، إذ تدرك عجزها التام عن
الانتقام . فكيف تستطيع المسكينة أن تعاقبه ؟ هل تشكوه إلى أبيها
أو أخيها ؟ لو فعلت لعاقبوها قبل أن يعاقبوه ، فحين تدرك عجزها
التام عن الانتقام تعود إلى الأذعان لسوء حظها الذي لا تستطيع له
تغيرا : فاذهب فأنت المساور الظفر ، تنطق به مخذولة يائسة مستكينة
راضخة لسوء حظها ، فتذهب نفسنا عليها حسرات ، ثم يزيد من إيلاام
البيت أن بشارا هو الذي ينطق به هازئا من توعددها شامتا باعترافها
بعجزها مقلدا لاستكائتها بتخنت شنيع .

والآن وقد نفست الفتاة عن فجيعتها بعض الشيء ، وأدركت
عجزها عن الانتقام وانتهت إلى أخذ نفسها بالأذعان للمصائب والرضوخ
لطاوع المنحوس ، تلتفت إلى الناحية العملية من مشكلتها فتحاول أن
تفكر في مخلص منها . أما الضرر البليغ الذي حل بها فلا علاج له إلى
الأبد ، ولكن ألا تستطيع على الأقل أن تخفي أثر هذه العضة التي
تورمت لها شفتها ؟

كيف بأى إذا رأيت شفتى أم كيف إن شاع منك ذا الخبر؟
 ما قصد بشار من حكاية هذا البيت؟ قصده أن يحملنا على الضحك
 والسخرية بهذه الفتاة التى حدث لها ما حدث من الأذى البليغ ولكن
 لا يهمها سوى ما حدث لشفقتها من الجرح والورم. ولكن هل ينجح
 فى قصده؟ لا أظن. فنحن لا نضحك منها ولا نسخر بها بل نزداد لها
 رثاء وعليه سخطا. فشككتها مشكلة حقيقية، فان ما حدث لها من
 الضرر تستطيع إخفاه عن أهلها، أو ذلك ما ترجوه، ولكن لها
 الحق كل الحق أن تجزع من هذا الأثر الواضح البادى لكل من ينظر إليها.
 أما فى الشطر الثانى فهى تعبر عن خوفها من أن يلجأ بشار إلى
 فضيحتها افتخارا وشماتة، وهو تخوف لا يحاول بشار فى بقية القصيدة
 أن يريحها منه، لا يتعهد لها بأنه لن ييوح بسرهما.

قد كنت أخشى الذى ابتليت به منك، فماذا أقول، يا عبر
 فى دراستنا لهذه القصيدة حتى الآن صبينا كل سخطنا واستشناعنا
 الخلق على بشار. ولكن واجب العدل يقضى بالألا نخل الفتاة من
 بعض المسئولية. فان صدق ما ينسبه بشار إليها فى هذا البيت — وما
 أظنه إلا صادقا — فصحيح أنها حين زارته لم تكن تقصد أن تمكث
 من نفسها وكانت تعتقد أنها ستكون مجرد جلسة بريئة، ولكنها لم
 تكن جاهلة تمام الجهل بالخطر الذى يجبهها. فان كانت قبل أن تلقاه
 قد خشيت شيئا من هذا فقد كان واجب الحكمة والاحتراس يقضى
 عليها بأن ترفض دعوته. فهى حين لبثت دعوته آملة ألا يحدث ما تخشى
 إنما كانت تلعب بالنار. لست من الذين يوقعون معظم اللوم فى مثل

هذه الحادثة بالمرأة ، قائلين أنها هي التي ستخسر فهي إذن الطرف الذي يقع عليه العبء الأكبر من التحفظ والاحتراس . لست أوافق على هذا الحكم الخلقى الشائع الذي يصدره الناس دائماً في كل بيئة وكل عصر ، فهو حكم مغرض يضعه الرجال انتصاراً لجنسهم ويرغمون النساء على قبوله ، فترى المجتمع يخص المرأة في مثل هذا الموقف بمعظم اللوم وبكل العقاب ، وينسى في هذا ضعفها وقوة الرجل ، ولكني لا أريد أن أُلجأ إلى المبالغة في الناحية المضادة فأخلي المرأة من كل مسؤولية .

أما الكلمة الأخيرة من هذا البيت : « يا عُبْر » ، فليس من معانيها التي تعطيها القواميس ما يوافق هذا الموضع . ففي القاموس المحيط « ناقة عُبْر أسفار مثلمة قوية تشق ما مرت به وكذا رجل ، العبرة المحجب واعتبر منه تعجب » ، وليس في هذا معنى يصح هنا .

ولكن المفتاح إلى فهمها هو أن يتذكر القارئ أن المتحدث بشار لا الفتاة . فهذه كلمة ينسبها بشار إليها ولم تنطق هي بها . ويريد بها المبالغة في التهمك والخلاعة ، فالظاهر أنها كلمة سوقية شديدة العامية كانت شائعة بين النساء في عصره وتعبّر بها النسوة عن نظير ما تعبّر عنه نساؤنا حين يقلن : يا دلعدى ! أو : يا عمر ! أو نظيرها أو ما هو أخف منها من الكلمات الأثوية التي تنطق بها النساء خلاعة وينطق بها الرجال تخشاً . ولا بد أن بشاراً في نطقه إياها بلغ أقصى اسرافه في التثني والتخلع ، ولا بد أن مستمعيه من رفاقه ضحكوا لها ضحكا شديداً .

فكيف يرد بشار على سؤالها؟ ثم ينصحها للخلاص من ورطتها؟
كيف يهدي جزعها؟

قلت لها عند ذاك: يا سكنى لا بأس، أنى مجرب خبر
تسمع الفتاة هذا الكلام فيسكن روعها بعض الشيء، ويشع في
وجهها بريق من الأمل، وتقبل عليه مبتسمة من خلال دموعها تنظر
منه حلا عمليا ينجيها من المأزق حقا. واسكن ماذا تسمع؟
قولى لهم: بقعة لها ظفر! إن كان للبقر ماله ظفر

ليس في الشعر العربي كله بيت يقارب هذا البيت قسوة وحقدا،
ينفس به بشار تنفيسا كاملا عن كراهيته للبشر وتشفيه منهم وعدم
مبالاته بمصائبهم، تزيد فيه السخرية إلى الحد الكريه السام الذى يسميه
الانجليز Cynicism.

تصور أولا خيمة أمل المسكينة وانها تفتاؤها حين تسمع رده
وعودتها إلى التفجع والنحيب بأشد مما كانت عليه. فليس في اقتراحه
حل عملي، إذ ليس من البق ماله ظفر، ومثل هذه العضة مستحيل أن
تصدر عن بقعة، واسكن بشارا يريد بهذا البيت أن يقول: اغربى عنى
لعنة الله عليك وعلى أمك وعلى أهلك وعلى البشر أجمعين. ماذا يهمنى
جزعك أو يضيرنى مصابك أو يعينى ماذا سيحدث لك؟ بل أنا سعيد
كل السعادة أن أتيح لى أن أنتقم فيك من هؤلاء البغضاء الذين طامأ
عذبونى وألحوا فى أساءتى واضطهادى.

فبشار يعلن بهذا البيت أقصى سخطه وحقده على معاصريه وعلى

الناس جميعا . فان قرأته فانطق به في حرارة شديدة وسخط هائل ينفجر
في هذه الكلمة الغليظة « بقعة » ثم في جمعها « البق » . اقرأها بحيث تتخذ
من حرف القلقلة المشدد منفجرا لسخط شديد مكبوت .

الحكم الخلقى والحكم الفنى

فما رأينا في هذه القصيدة الزاخرة ؟
فلنفصل في رأينا فيها بين حكمين مختلفين ، ولنبدل كل جهدنا في
التمييز التام بينهما : الحكم الخلقى ، والحكم الفنى .
أما حكمنا الخلقى فنقرره دون تباطؤ ولا نظن فيه مجالا للخلاف .
فهذه قصيدة تامة الشناعة الخلقية ، يفخر قائلها بارتكابه جريمة لا نستطيع
قبولها ولا نجد لها مبررا واحدا ، ومهما يكن الحاح الناس في تعذيبه
واضطهاده فهذا « لا يجوز » له أن يفتقم بهذا النوع من الانتقام ، فان
كان يظن أنه يحملنا على الإعجاب به وبانتصاره فلن ينال هذا إلا من
أخسنا وأتمنا استهتارا بالحدود الخلقية ، وسائرنا يسخط عليه أشد
السخط ولا يرى في مانجح فيه من إغراء براعة تستدعى الإعجاب بل
تغريرا يستثير المقت . وهو كلما أطال في التهمك على المسكينة وتقلير
تفجيعها بسخرية وتخت لم يحملنا على الضحك منها أو الاستهزاء بها بل
زادنا لها تحسرا وعليه سخطا . فهو في غرضه هذا قد فشل فشلا تاما .
كذلك قد فشل في غرض آخر . أن كان يظن أنه بهذه القصيدة
يغري الفتيان بتقليده فقد نسي أنه دون أن يدري يلقي على الفتيات

درسا بليغا مخيفا يحذرهن من الوقوع في حبائلهم ويبصرهن بالمهاوى
التي تنتظرهن أن لم يفرطن في الحذر والاحتراس فيقعن فيما وقعت فيه
تلك التعسة من فخ منصوب. فهو من ناحية يهدم ما بناه من ناحية أخرى ،
فالفتاة التي تقرأ هذه القصيدة وتفهمها فهما صحيحا وتكون حريصة
على عفافها تجد فيها دروسا في صون شرفها لا تماثلها في نفعها الدروس
التي تجدها في كتب الأخلاق المدرسية التي توزع عليها وعلى زميلاتها
في مدارسهن . ولو كانت لى ابنة وبلغت سن المراهقة لعرفتها بهذه
القصيدة وشرحتها لها شرحا تام الصراحة مدركا أننى بهذا أبصرها بحيل
المغرين فأصونها بالطريقة الوحيدة المجدية من الوقوع في شباكهم .

فالخطر الحقيقي على الفتاة ليس أن يهاجمها مهاجم فيغتصبها عنوة ،
فهذا نادر الحدوث جدا ، بل الخطر الحقيقي أن تقع في هذه الحبال
الماكرة التي تتدرج من إحداها إلى الأخرى دون أن تدري إلأم
تقود أو تظن إلى التطور البطيء من المرحلة إلى المرحلة ، فالذى يصون
عفاف البنت ليس أن تحبس في عقودارها لا تخرج منه ، ولا أن يغطي
وجهها بنقاب كشيء كلما خرجت منه ، فلا شك عندى أن فتاة بشار
كانت تلقى هذا النوع من الصيانة الذى لا صيانة فيه . بل الذى يصون
عفافها أن تبصر بحقائق الحياة وتشرح لها حيل الرجال حتى تظن اليها
وتحذرهما ، ولكن هذا موضوع يخرج عما نحن بسبيله ولو حاولت
علاجه لاحتجت إلى كتاب يماثل كتابى هذا فى حجمه أو يزيد .

ولكن مارأينا في القيمة الفنية للقصيدة ؟

هذه مسألة أصعب بكثير ، فان أردنا الانتهاء فيها إلى رأى ذى قيمة فيجب أن نحذر من خطأين يسهل جدا الوقوع فى أحدهما .

يجب أن نحذر ، أولا ، من أن نسارع من الرفض الخلقى إلى الرفض الفنى . فالفن - رضينا بهذا أو لم نرض - لا يحكم عليه فى مجال النقد الأدبى بمقاييس الأخلاق . بل المقياس الصحيح الوحيد فى مجال النقد الأدبى هو المقياس الفنى المحض . هل يرضى شعورنا الفنى أو لا يرضيه . ولكن يجب أن نحذر أيضا من الخطأ النقيض : أن نسرع ، فى فرط تحمسنا لحرية الفن وإصرارنا على إطلاقه من قيود الخلق أو تقاليد المجتمع ، إلى قبول هذه القصيدة بصرف النظر عن قيمتها الفنية وتأثيرها الجمالى . وهذا ما يفعله للأسف الشديد كثير من الشبان المتحمسين أول ما يحررون أنفسهم من النظر الضيق المتزمت ، يطرون إلى النقيض فيقبلون كل ما فيه خدش للخلق ظانين أن كل ما ينفر منه الخلق فهو بالضرورة فن ! ولا يدرون أنهم بهذا يقعون فى هذا الخطأ المنطقى السخيف الذى يسمى « عدم استغراق الحد الأوسط » : الفن لا يتقيد بالأخلاق ، هذه القصيدة لا تتقيد بالأخلاق ، إذن هذه القصيدة فن ! أو ضع هذا الخطأ فى صورة منطقية أخرى : بعض الفن يخالف الأخلاق ، إذن كل ما يخالف الأخلاق فن !

فان فكرنا فى المسألة فى تودة وهدوء ، وحذرنا من الوقوع فى أحد الخطأين ، وحكمنا على الرائية بالمقياس الفنى وحده ، فإلام ننتهى ؟

أول ما نقر به للقصيدة هو قوتها التعبيرية ونجاحها التصويرى البالغ، فهذا شاعر به إحساسات معينة، وهو يريد أن يعبر عنها ويمثلها لنا حتى نفهمها فهما تاما، وقد نجح في هذا تمام النجاح، بما اختار من وزن يطابق حالته الشعورية مطابقة عجيبة، وبما فعله من تقسيم العبارات وتخير الألفاظ، وباتقانه اعداد الجوئم التدرج من مرحلة في القصيدة إلى مرحلة تالية، فهو في هذا كله أبدى براعة لا مزيد عليها في شعر شاعر، لا في الأدب العربى ولا فى أى أدب آخر نعرفه ويحق لنا الحديث عنه .

وربما يعتقد بعض القراء أن هذا هو كل ما يطلب من شاعر، وأنه إذا نجح فيه فقد أدى رسالته الفنية، أولا يتطلب من الشاعر أن يشعر شعورا صادقا، وأن يعبر عنه تعبيرا صادقا، وأن يكون تعبيره هذا من القوة والكمال بحيث يصور لنا عاطفته تصويرا تاما ؟

بلى، هذا ما تتطلبه من الشاعر، ولكن ليس هذا كل ما تتطلبه، بل نحن نتطلب منه أيضاً أن تكون عاطفته هذه عاطفة فنية، أعنى أن تكون عاطفة يقبلها الذوق الجمالى ويجد فيها القارئ امتعا جماليا . فان كانت كذلك قبلنا قصيدته كعمل فنى، أما أن نفر منها ذوقنا - نعنى ذوقنا الجمالى المحض، لا ذوقنا الدينى، أو الخلقى - فأنا نرفضها، ويكون رفضنا هذا رفضا فنيا محضا .

وتعليل هذا أن ليست كل الأحساسات البشرية بصالحة موضوعا للفن، بل منها ما يجب أن يتحاشاه الأديب وسائر الفنانين، لا لأنه

يخدش شعورنا الخلقى ، ولا لأنه يضر بالمجتمع (فهذه اعتبارات
لا تدخل فى موضوعنا الحالى) ، بل لأنه يخدش شعورنا الذوقى ، أعنى
أنه يشير فىنا اشمنزازا جماليا ، فنجدده قبيحا .

ولا فائدة فى شرح هذا الحكم من أن أطيل فى المناقشة النظرية ،
كما تفعل كتب قواعد النقد الأدبى وكتب الدراسات الجمالية ، فهذه
المناقشة النظرية قليلة النفع للقارىء ، وخصوصا إذا كان غير متقن لأدب
أجنبى واحد على الأقل . بل خير ما ألجأ اليه هو أن أضرب له مثالا .
فإن وافقنى القارىء على ضرورة المثال فلا يجوز عن أذن أن وجده مثالا
قبيحا ينفر منه ذوقه ، فليست أستطيع أن أمثل على التجربة القبيحة بمثال
جميل ، ولا حاجة لى بعد هذا التنبيه إلى الاعتذار .

افرض أن رساما بارعا رسم صورة رجل يجلس على المرحاض
ويعانى عسورة الأخراج . وأفرض أن هذا الرسام أجاد إجادة تامة فى
رسم عضلات وجهه وجحوظ عينييه وتشنج كتفيه وتساقط العرق من
جبينه . حتى صار رسمه هذا صورة تامة الصديق لما يحدث فى الواقع ،
ونجح نجاحا تاما فى حكاية التجربة الإنسانية التى يريد تصويرها . فهل
تظن هذا وحده يكفى لجعل صورته قطعة فنية يقبلها الفن فى دائرته ؟
وهل تقبل احتجاجة لو احتج بأن هذه تجربة صادقة ، وبأنه صورها
تصويرا صادقا ، وبأن تصويره تام الأجادة فى التعبير ؟ .

× من هذا المثال تتضح للقارىء حقيقتان : أولاهما أن بعض التجارب
البشرية لا تصلح موضوعا للفن ، وثانيتهما أن نفورنا عن تمثيل هذه

التجارب ليس نفورا خلقيا ، بل هو نفور جمالي . وهذا المثال يثبت
هاتين الحقيقتين بما يغنيننا عن انفاق صفحات طويلات في المناقشة النظرية .
فلنعد الآن إلى الرأية . نسلم بأن بشارا نجح نجاحا تاما في تصوير
عاطفته وتجسيم التجربة التي يصفها ، وهي تجربة صادقة وقعت له حقا ،
ولكن بقي أن نسأل : أهذه عاطفة يقبلها الفن ؟ أم هذه تجربة تدخل
في حدوده الفنية المحضة فتثير فينا متعة جمالية ولا تثير كراهة ذوقية ؟
هذا رجل يصف إغراءه لفتاة عذراء قليلة التجربة ضعيفة الحول ،
ويصف دهائه في اتخاذ الخطوات إلى إغرائها والتدرج في إثارة شبقها
حتى يتغلب على رهبتها وخوفها ، ولو اقترن وصفه هذا بشيء من الحب
للفتاة والعطف عليها لربما قبلناه ، ولكنه لا يعطف عليها إطلاقا ، بل
هو فرح بمصاها شامت فيها ، وهو يقلد تفجيعها وحسرتها بأسلوب
بالغ التمسك فظيع التخنث ، لا يدل على شفقة أو رثاء بل يعبر عن
قسوة هائلة وحقد مريع . وهذه كلها عواطف إذا اجتمعت صارت
شديدة الأيلام لنا زائدة الجرح لشعورنا ، لسنا نغنى الجرح الخلق
وحده ، بل الجرح الفني أيضا .

فسر إيلامها الفني هو اجتماعها وتعاضدها على إيذائنا حتى تصل
حدا لا يطاق ، ولو كانت كل منها بمفردها في قصيدة لربما استطعنا
قبولها .

قد نقبل قصيدة يفخر فيها الشاعر بنجاحه الغرامي بل يفخر بإغرائه
فتاة عفيفة ، ونحن نقبل فعلا قصائد من هذا النوع لشاعر عربي آخر ،
هو عمر بن أبي ربيعة . ولكن عمر في قصائده هذه يعبر عن حب

حقيقى لفتياته وعطف شديد عليهن وجزع صادق لمازقهن وأن يكن
هو سلبية .

وقد نقبل قصيدة يعبر فيها الشاعر عن سخطه على الناس وكرهه
للشعر ، ونحن نقبل فعلا قصائد من هذا النوع لأبى العلاء . بل قد
نقبل قصيدة يزيد فيها السكره إلى حد تمنى الأذى للشعر والدعوة إلى
الانتقام منهم والبطش بهم ، ونحن نقبل فعلا قصائد من هذا النوع
للمتنبى . ونقبل أيضا قصائد للجاهليين يتم فيها هذا الانتقام من الأعداء
ويفرح الشاعر به ويتشفي فيهم .

أما حين تجتمع كل هذه العواطف في تجربة واحدة فإنها أمض من
أن نطبقها . لذلك نرفض الرائية حتى إن حكمنا عليها بالحكم الفنى وحده .
ويعزونا في هذا الرفض اعتبار آخر هام جدا ، وهو أيضا اعتبار
فى محض : أن بشارا أخفق فى أن يشير فينا المشاركة العاطفية له .

فهدف الفن ليس أن يصور عاطفة الفنان فقط ، بل أن يحمل قارئه
أو سامعه أو ناظره على أن يشارك الفنان عاطفته ، فيفرح لفرحه ،
أو يأل لآلمه ، أو يزهو لزهوه . أو يسخط لسخطه . وهذا غرض
أخفق بشار فى الوصول إليه إخفاقا تاما ، فلا نحن نعجب بمهارته فى
الاعراء ، ولا نحن نسخر بالفتاة كما يريد منا أن نسخر بها . بل النتيجة
الوحيدة لمحاولته هى أن نسخط عليه هو وننحاز إلى صف الفتاة انحيازا
تاما لاستثناء فيه . والأديب الذى يعجز عن أن يشير فينا نظير عاطفته ،
ولا يكون سبب العجز ضعف بصيرتنا الأدبية أو قلة مراننا النقدى ،
قد أخفق فى أن ينتج أدبا .

الجانب الثاني : نور

الرأية وظلها الكفيف

أخشى أن أكون بدرامتي المصارحة للقصيدة الرائية قد هدمت على نفسي كل ما بنيته سابقا من حمل القراء على مساحة بشار والعطف عليه، فقد اضطررتني واجب الصدق النقدي إلى الكشف عن كل قسوتها، لم أخف منها شيئا .

ولست ألوم القارئ الذي تؤلمه الرائية فيضيق بصاحبها ويسخط عليه ويهم بأن يرتد إلى رأيه السابق فيه من الذم الخالص والأدانة الكاملة . وأنا ما قرأتها إلا كدت أفعل ذلك . ولكننا يجب ألا نسمح لسخطنا من قصيدة واحدة بأن ينسينا كل ما استكشفنا من الحقائق، سواء في تفهم نقائص بشار واستطلاع أسبابها ، أو في تجلية جوانبه الخيرة الهامة ، وإلا أفسدنا الصورة الصحيحة العميقة الشاهة التي كونها عن شخصيته وعدنا نتحدث عنه كما يتحدث سائر الناس الذين يكتفون بالنظر إلى عيوبه نظرا سطحيا لا يتعمق أصولها .

مهما تؤذنا الرائية فيجب قبل أن نصدر حكمنا النهائي على بشار أن ننسكن من غضبنا ونستعيد هدوءنا ونعود إلى التفكير فيه وفي حياته تفكيراً شاملاً واسعاً لا يطغى عليه انفعال واحد ناشئ عن تجربة

واحدة. ولستنا نغنى الآن وجوب العطف والتسامح في الدراسة الأدبية ،
بل القاضى المحايد نفسه لا ينطق بحكمه وهو في حالة عاطفية هائجة
ضد المتهم ، ولو فعل لما كان حكمه الذى يصدر عنه في هذه الحالة حكما
عادلا ، بل هو يرغم نفسه على الهدوء والتروى وضبط الشعور مهما
تكن جريمة المتهم من الشناعة ، بل كلما زادت شناعة الجريمة زادت
حاجته إلى ضبط شعوره وتهدئة انفعاله . هذا ما يفعله القاضى المحايد
التام الحياد فلا أقل من أن نكون مثله .

لا بد أولا من أن أنبه القارىء إلى أنه ليس في كلامى الذى سيلي
أى محاولة في التخفيف من شناعة الرائية أو التهوين من قسوتها البغيضة
وحقدها المذموم . ولا فيه أى محاولة لتبريرها بأى عذر من الأعذار .
لن أحاول أن أخفف أو أهون ولن أحاول أن أبرر ، ولكنى سأحاول
أن أفهم ، . هذا كل ما سأفعله وهذا كل ما يعينى .

فالحق أن ليس في هذه القصيدة ما يدعونا إلى تغيير رأينا الذى
كوناه عن بشار بعد ماضى من الدراسة المتهمة المستوفية . صحيح أنها
تطلعنا في بشار على قسوة مفرطة وكره للبشرية زائد ، ولكن لا تزال
الحقيقة في هذا الكره وتلك القسوة ما قررناه من قبل ، أنهما صفتان
مكتسبتان وليستا خصلتين أصيلتين .

بشار لم يكن شريرا في جبلته ولا قاسيا حقودا بطبيعته ، بل الذى
أثار فيه شره وقسوته وحقده على الناس ظروف مجتمعه وتجاربه
سيرته التى فصلنا الحديث عنها ولا نريد أن نكررها هنا . فليأمل القارىء

فيها مرة أخرى وليذكر نفسه وهو يقرأ الرائية بأن الناس قد جلبوا على أنفسهم هذا الشر بسلوهم نحو بشار .

بل الرائية نفسها تثبت ما نقول . فالقارىء وقد درسها دراسة متململة قد تبدى له أن إلفاشها غير مقصود لذاته ، بل للانتقام . فما فيها من أسراف في القسوة متعمد ، أعنى أنه ليس صادرا صدورا طبيعيا عن نفسه . بل هو الذى أرغم نفسه عليه مبالغة في الانتقام والمكاييدة . فلا بد أنه حين قالها كان في أزمة نفسية حالكة السواد ، فالحصيدة إنما تدل على هذه الحالة الوقتية ولا تدل على عموم نفسيته أو إجمال سيرته ، اللهم إلا إذا وجدنا له شعرا آخر كثيرا من هذا النوع ، وهذا ما لا نجد .

نستطيع إذن أن نعود فنكرر — وإن كان أغلب ظننا أن القارىء سيصعب عليه الآن أن يقبل كلامنا — أن بشاراً في دخيلة نفسه وأصيل طبيعته كان انسانا طيب القلب به استعداد للرحمة وتهيؤ للخير ، فإن كان قد انتهى إلى ما انتهى إليه فلسنا نريد أن نزعّم أنه ليس ملوما ، بل نريد أن نقرر أنه لم يكن وحده الملوم . بل هو برغم كل ما قامى ظل إلى آخر أيامه محتفظا بنصيب عظيم من هذه الطبيعة الخيرة ، تجلى لنا في نواحيه المضيئة العديدة التي استجليناها في القسم الماضى من هذا الكتاب .

وهنا تتبدى لنا — مرة أخرى — الروعة الحقيقية لهذه النواحي المضيئة ، وهي أنه احتفظ بها برغم كل ما اجتمع عليه من ظروف خليقة بأن تبتعث فيه القسوة والحقد والشر العظيم . فالرائية لا تغطى على هذه النواحي المضيئة ولا تكشفها ، بل تزيد بالمقارنة تألقا وبهاء .

فنفس الرجل الذى اضطره مجتمعه إلى ما رأينا فى الرائية من الفساد
والاجرام ، استطاع مع ذلك أن يظل بارا بأهل بيته ، محبا لأصدقائه
عطوفا عليهم عظيم المودة لهم ، كريما سخيا السكرم عليهم وعلى غيرهم ،
حنانا رقيق القلب نحو بعض المحيطين به وإن لم يكن نحو جميعهم ،
أخذنا نفسه فى كثير من الأحيان بالصبر والعفو والأعراض ، فكها
حلو الحديث لذيد المسامرة ، بل قد احتفظ بفكاهته الجيدة حتى
الساعات الأخيرة من حياته ، وهذا كله يرغمنا على التساؤل مرة أخرى :
ترى ماذا كانت تكون حاله لو عاش عيشة أسعد ولقى معاملة خيرا
مما لقي .

ولكن دعك من هذا السؤال النظرى وعد إذا شئت إلى الرائية
نفسها . مهما يكن فسادها وإيلاها ، أفستغربها من رجل لقي ما ذكرنا
من المحن والآلام ، وعانى ما وصفنا من الاساءة والاضطهاد ، وذاق
ما سجلنا من نكد الطبيعة ونكد البشر ؟ لعلك إن فكرت فى هذه
المسألة انتهيت إلى هذا رأى : ليس الغريب أن بشارا نظم هذه
القصيدة القاسية ، بل الغريب أننا لا نجد فى شعره سواها من نوعها .

هذه هى الحقيقة التى أريد الآن أن ألح فى تنبيه القارئ إليها ،
ليس الغريب أننا نجد فى شعره هذا السهم المسموم ، بل الغريب أننا
لا نجد فيه سهاما كثيرة مثله . ولقد وجد كارهون للبشر سددوا إلى
قلب الانسانية سهاما أكثر عددا ، ولم يكن لهم معشار أسبابه فى بغض
البشرية ، لامن العاهات الطبيعية ولا من الظلم الانسانى .

للقارىء أن يوافقنى على ماقلت فى مناقشتى الماضية ، وله أن يخالفنى ،
ولكنه لا يستطيع أن ينفى هذه الحقيقة التى ذكرتها ، أن رائية بشار
فريدة فى شعره ، فهما يمكن حكم القارىء عليه فى هذه القصيدة ، فالواجب
أن لا يدعها تغطى على سائر شعره ، وألا يقبل على هذا الشعر متأثراً
بهذه القصيدة .

وهذا للأسف الشديد ما فعله نقادنا . فقد سممت عليهم الرائية
نظرتهم فى سائر غزل بشار ، فلم يروا فيه إلا ما وجدوه فى الرائية من
العنف الحيوانى والانتهاك الوحشى ، فحكموا بأنه كان كذلك فى جميع
علاقاته مع جميع النساء ، وتبعهم - بطبيعة الحال - سائر المدرسين
والدارسين فى هذا الظن ، والحق أنهم وقعوا فى خطأ منطقي بسيط .
وهذا هو الخطأ : بعض شعر بشار شنيع . هذا شعر لبشار . إذن هذا
شعر شنيع .

ولكنى لا أريد أن أتجنى عليهم ، فما سميت به خطأ منطقياً بسيطاً هو
حقاً خطأ بسيط ، ولكن الذى أوقعهم فيه حالة نفسية عظيمة الاضطراب
شديدة التعقد ، وكذلك الشأن فى معظم أخطائنا المنطقية . إنما تبدولنا
بسيطة إلى درجة السخافة حين نضعها فى القالب المنطقي ، ولـكـنـنا فى
حياتنا المرتبكة الانفعالات المعقدة العواطف لا نفكر فى معظم
المسائل فى حدود القوالب المنطقية ، فهم قد رأوا لبشار قصيدة هاجت
فيهم أتم بغضهم وأشد استئثارهم ، فحكموا بأن قائلها لا بد أن يكون
على نصيب معادل من الفساد والشر ، ثم حكموا بأن مثل هذا الفاسد
الشرير مستحيل عليه أن يكون فى أى مجال آخر طيباً رقيقاً . وحالهم

النفسية هذه نعذرهم عليها بل نوافقهم فيها ، ولسكن أحكامهم التي نجمت عنها تامة الخطأ . فنعود نحن فنقول : بلى ، نفس الرجل الذي تصدر عنه هذه القسوة قد تصدر عنه آيات الحنان والرحمة في مجال آخر ، فالعواطف الإنسانية المتناقضة تتراوحنا جميعا ، وما أكثر الرجال المتعطفين الذين تنطق ألسنتهم أحيانا بهجر القول ورفث الحديث ، وما أكثر الذين يقسون على بعض الناس قسوة مفرطة ويرقون على بعضهم الآخر رقة مفرطة ، فوجود خصلة في بعض الأحيان لا ينفي وجود نقيضها في أحيان أخرى ، وقد قرأت من شهور قليلة عن رسام انجليزي كانت حالته مشابهة ، فله رسوم دينية غاية في الطهارة والنقاء ، والناس لا يعرفونه إلا بها ولا يتحدثون إلا عن دينه وطهره وفضيلته ، فلما مات عشر أحد أصدقائه المقربين بين أوراقه على رسوم جنسية فظيعة الإفحاش !

ولكن بشارا لنحسه قد حدث له العكس ، فرائيته قد ألقت على شعره ظلا كشيئا شديدا الحالك ، لم يستطع الناس من خلاله أن يتيبنوا في أى غزلية أخرى له عاطفة رقيقة أو حبا مخلصا أو حنانا وادعا ، فان وجدوا في غزله عذوبة لا يستطيعون انكارها ونعمة رقيقة لا يمكنهم تجاهلها قالوا هي عذوبة الخليع وسلاسة المتهتك الخبير الذي لا يقصد سوى أن يسهل شعره على الألسنة حتى يذيع وينتشر فيعم فسادا بين الشبان والنساء .

والحق أن هذا التعليل لرقة غزل بشار شديد الخطأ ، فالذى يستطيع أن يزيل عن غزله ذلك الظل الكشيف الذى ألقت عليه رائيته سيرغم

على أن يعترف بأن ما فيه من عدوبة ظاهرة ورقة بادية ليس متكلفا
لأرب عملي لا صلة له بينا بيع الشعر ومصادر الفن ، بل هو ينبع عن
نفسية عظيمة الحنان زاهرة الحب ، ويصدر عن قلب رقيق يهتز للجمال
اهتزازا شعريا لا عن جسم يهتز له مجرد اهتزاز حيواني . فلتلك الرقة
اللفظية حلاوة صافية وعدوبة خالصة مستحيل أن تكوننا صدرتا
تكلفا عن وحش مفترس يلبس قناع البشاشة والابتسام ، أو أن تكوننا
نبعنا عن قلب صخري صلد هو في صميمه مغلق أمام عواطف الإنسانية
الرحيمة ولكنه يتصنع الرقة ليخدع الناس ويفترس الضحايا ، وكل
ما تحتاج إليه لاستجلاء هذا الضياء المنير في سائر غزل بشار هو أن
تزيح عنه ذلك الظل الكشيف الذي وصفناه . وهو عبء أكلف القارىء
به وأنا أعرف جد المعرفة مبلغ صعوبته ، ولكنه شرط لا مناص
من استيفائه أن أراد أن يحسن دراسة شعره ، فليحاول جهده وليكرر
المحاولة ولينظر ماذا يرى .

صبية

تأمل في هذه القصيدة :

عجبت فطمة من نعتي لها	أجيد النعت مكفوف البصر ؟
بنت عشر وثلاث قسمت	بين غصن وكشيب وقمر
درة بحرية مكنونة	ما زها التاجر من بين الدرر
أذرت الدمع وقالت ويلتي	من ولوع الكفر كاب الخطر
أمتا بدد هذا لعبي	ووشاحي حله حتى انتثر

فدعيني معه يا أمّنا علنا في خلوة نقضى الوطر
أقبلت مغضبة تضربها واعتراها كجنون مستعر
بأبي والله ما أحسنه دمع عين يغسل السكحل قطر
أيها النوام هبوا ويحكم واسألوني اليوم ما طعم السهر

وإنما بدأنك بها لأنها قد تكون أشد قصائده تأثرا بظل الرائية
الكشيف ، فإن استطعت نفى هذا الظل عنها واستجلاء رقها وحلاوتها
وظرف دعابتها سهل عليك باقى غزله فربما رأيت فيه رأينا .

فهنا أيضا أثى تبكى وتذرى الدمع ، وتشكو قسوة بشار عليها .
وفي هذه القصيدة - وهى أيضا رائية ! - حل للوشاح بل فيها ضرب
عنيف . ولكن ما أعظم الخلاف بينها وبين الرائية السابقة ! هذه فى
واد وتلك فى واد . هذه نسمة من نسائم السعادة والرضى وتلك لفجة
من لفحات الجحيم . فهذه الرائية الجديدة مرحلة طروب لاهية ، فيها
نشوة حلوة لا مرارة فيها ومداعبة لا تصل حد الغلظة والجهامة ومكر
صبياني لم يتحول بعد إلى دهاء قاس مسموم .

وأول ما يجب أن تعرفه أنها من أول شعره فى الغزل ، فقد نظمها
فى صباه أو حين بدأ يدخل فى عصر شبابه ، ولم يكن الناس قد أطالوا
بعد فى تعذيبه ، ولم يكن اضطهادهم إياه قد أوصله بعد إلى نهاية سخطه
وحقده ، ولذلك لا تجد فيها كرها للناس ولا نقمة عليهم ، بل تجد
رضى عن الحياة ومسالمة واستبشارا ومرحا ، فالقدماء يقولون أنه
نظمها فى حبه الأول ، والقصة التى تقصها القصيدة هى أنه لاعب صبية
فى الثالثة عشرة من عمرها فكان بينهما ما يكون بين الصبيان المتلاعبين

من مخاصمة ينسونها في صديحة اليوم التالي . فبشار يصف افتتاحه بها ،
بجمالها الطاهر البرى . وبسذاجتها الصديانية المضحكة .

فان أردت أن تدرس هذه القصيدة لترى أصحححة أحكامى هذه
أم خاطئة ، فلنبدأ بأن نتفق على حقيقة لا أظن فيها مجالا للخلاف :
رقتها اللفظية العظيمة وما فيها من سلاسة عذبة . أفتخفى هذه الرقة قلبا
غليظا أم تمتزج هذه العذوبة بسم نقيع ؟ فلنتأمل أبياتها بيتا بيتا حتى
نحقق هذه المسألة .

عجبت فطمة من نعتى لها أيجيد النعت مكفوف البصر

يريد بهذا البيت أن يصور سذاجتها الناشئة من صغر سنها وضحالة
فكرها ، تسمع شعره في وصفها فتعجب في حيرة شديدة من استطاعته
وصفها وهو لا يستطيع أن يراها ، لا تدرى أنه يستطيع أن يكون
عنها في مخيلته صورة محبة جميلة مشتقة من استماعه لوصف الناس لها
وفهمه هذا الوصف بترجمته إلى خياله الخاص ، ومن إحساساته التي
يتلقاها هو عنها عن طريق السمع . والشم ، واللمس ، يسمع صوتها
الخلو البرى ، ويشم رائحتها العبقة الزكية ، ويلبس في ملاعبته إياها
جلدها النضر الرقيق ، فيكون من امتزاج هذه الاحساسات ، مضافا
إليها الأوصاف العينية التي يسمعها بمن يرونها ، صورة عن جمالها وعن
شخصيتها تحبه فيها ، فليس البصر هو طريق المعرفة الوحيد ، ولكن
أنى لهذه الصغيرة أن تعرف ذلك ؟ فدهشتها في هذا البيت دهشة
صديانية حلوة تعجبنا بسذاجتها اللطيفة ، وبشار حين يهزأ منها فهو

الضحك الممتزج بالحنان والأعجاب الذي يضحكه أحدنا حين يرى
تصرفا سخيفا من طفل له ، لا يصل درجة السخرية الالمية أو التهم-كم
المر الذي وجدناه في وصفه لحيرة الفتاة الأخرى كيف تخفى أثر العض
في شفتها ، وتحويله لاسمها من « فاطمة » إلى الصيغة العامة « فطمة »
غاية في الظرف ، وهو أيضا ناجم عن الحب والتدليل .

بنت عشر وثلاث قسمت بين غصن وكثيب وقمر

هذا بيت راقص التنعيم ذو موسيقية مريحة . قسم كلماته تقسيما
ماهرا بحيث تستقل كل تفعيلة من التفعيلات الست ولا تندمج إحداها
في الأخرى ، حتى تستطيع إذا تغنيت في البيت أن تقف وقفات خمساً
في خلاله تطلق فيها صوتك بالترجيع وتنوعه في ألحانه كما تشاء بين
علو وهبوط واستئناف ومجاوبة : بنت عشر - وثلاث - قسمت -
بين غصن - وكثيب - وقمر . والتنوينات الأربع تسمح لك بترديد
الصدى حتى تربط بين جميع أنغامك ، وتسمح للمغنين الذين جاءوا
إلى هذا البيت فوضعوا فيه ألحانهم أن يستعملوا آلاتهم الموسيقية
لتجاوب أصواتهم البشرية . وكأن بشارا حين يقول إنها بنت ثلاث
عشرة سنة يعتذر عن سدا جتها في البيت الماضي . ولكنك لا تقدر
جمال البيت تقديرا تاما إذا نظرت إلى تقسيمه إياها بين الغصن والكثيب
والقمر بالنظرة التي ينالها منا من يستعمل هذا الأسلوب في يومنا هذا
من شعرائنا المعاصرين ، فهذا معنى قد ابتذل الآن لكثرة ما تعاوره
الشعراء وقلوبه ، أما في عصر بشار فكان لا يزال جديدا ظريفا لما

تبتذله كثرة الاستعمال ، فانظر إليه نظرة معاصريه فلا بد أنهم أعجبوا
بظرفه . وكذلك في قراءتك لكل الشعر القديم جاهليه وأمويه حاول
أن تعثر على المعدن الأصيل الصادق الذى لم يرخص بعد بكثرة تداول
الأيدي له في موضعه وفي غير موضعه . فان قرأت مثلاً قول زهير
عن تنازع المها والدر والظباء في شبه المحبوبة فتخيل دهشة معاصريه
وافقتهم بهذا الأسلوب الطريف الغريب .

درة بحرية مكنونة مازها التاجر من بين الدرر

وهذا أيضاً وصف أصيل لم يكن قد ابتذل بعد ، فالذى يستعمله
في ذلك العصر ليس بالضرورة مقلداً كاذباً كالذى يستعمله في عصرنا
وهو لم ير في حياته درة ولم يضمها بين أصابعه . وهو يدت يتلاً لا تلاً
الدرة وتتراقص أنغامه تراقص أضوائها ، ويعبر عن عاطفة صادقة
أحسها بشار أمام تلك الصبية . فما هذه العاطفة ؟ ليست الحب وحده ،
ولا الإعجاب وحده ، بل الأجلال ، يراها درة مكنونة ، أى يراها
أنثى طاهرة الأنوثة لم تدنس طهارتها ولم تسترخص نفاسيتها ، فتبتعث
أنوثها الطاهرة منه الخشوع والانبهار .

أذرت الدمع وقالت ويلتى من ولوع الكفر كتاب الخطر
أمتا بدد هذا لعبى ووشاحى حله حتى انتثر

بهذين البيتين يبدأ القارىء في مواجهة الصعوبة الشديدة التى يلقاها
كل من يحاول أن يقبل على غزله إقبالا نزيها لا يتأثر بفكرة سابقة
كونتها آراء الآخرين أو دراسة الرائية الأولى (التى نظمها بعد ما يقرب

من نصف قرن من نظمه للقصيدة الحالية ١) فلنفرض أن القارىء نجح
فى محاولته هذه فلم ير فى البيتين إلا ما فبهما وحدهما . فإذا يجد فيهما ؟
ما القصة التى يقصانها ؟

القصة أن بشاراً الفتى كان يلاعب هذه الصبية . ولسنا نريد أن ندعى
أن ملاعبته كانت رقيقة ناعمة ، بل كانت فيها خشونة ، ولكن ما أبعدنا
عن خشونة الرائية الماضية ! تلك كانت خشونة الذكر الهائج
المغتصب ، وهذه لا تزيد على ذلك القدر من الخشونة الذى تجده
فى ملاعبة جميع الصبية . فقد بعثر لعبها التى كانت تلهو باللعب بها ،
فهبت صائحة به تلومه وتحاول منعه ، فتجاذبا تجاذب الصبيين
المشاجرين - لا تجاذبا آخر - فأنحل فى هذه الخناقة ، وشاحها .
فهذا كل ما يدل عليه حل الوشاح فى هذه الحادثة . سيبادر القارىء بأن
يسأل : ولكن ما معنى « ولوع الكف ركاب الخطر » ، وما معنى « نقضى
الوطر » فى البيت الذى سيلي ؟ وهذا سؤال سنأمل الجواب الصحيح
عليه بعد قليل ، ولكن لا بد أولاً من أن نتابع القصة لننظر ماذا
حدث بعد ذلك . الذى حدث أنها ذهبت باكية تشكو إلى حاضنتها .
فهذه أيضاً أنثى تدرى الدمع وتندب وتصيح ، ولكن ما أعظم اختلاف
هذا الموقف عن موقف الأخرى ! هذه دموع لا حرارة فيها ، دموع
لاهمة لا تعرف السكوارث الحقة فى الحياة ، دموع الصبيان سرعان
ما تجف وتحل محلها ابتسامة الرضى وتألق العين بالحبور واستئناف المرح
والإقبال على الحياة ، فهى دموع لا تثير فىنا حزناً ولا سخطاً ، بل
تحميلنا على الضحك ثم العطف والحنان ثم شيء من الحسد نحسده هؤلاء

الصبيبة الأغرار الذين لم يتجرعوا بعد من الحياة ما يجلب إلى عيونهم الدمع المرير المحرق ، والذين أقصى مصابهم أن تتحطم دماهم أو تتمزق ملابسهم ، فنتذكر أيام كنا نحن أيضا لا نعرف من نقمة الحياة ونقمة الناس إلا هذا القدر الهين .

تفر الصبيبة إلى حاضنتها صائحة شاكية ، ولكننا نعرف أن صياحها وشكواها ليس الشأن فيهما إلا كسائر الصبيان ، سرعان ما تنسى وتريد العودة إلى بشار لتلاعبه ، ولكن يحدث ما لم تكن تتوقعه ، وهو أن أمتها تحرم عليها العودة إلى ملاعبته . وهنا نستكشف سر دولوع الكف ركاب الخطر ، وسر د في خلوة نقضى الوطر .

فها تان جملتان لم تصدرا عن الصبيبة ، بل ينسبهما بشار إليها . وهو لا ينسبهما إلا بعد انتهاء « الخناق » حين بلغه غضب الأمة وتحرىها على الصبيبة أن تعود إليه ، ولا يدفعه إلى ذلك إلا رغبة أن يغيظها ويزيد من غضبها ، وأن يضحكنا من هذه العجوز الحمقاء الغضبي التي تضرب الصبيبة على غير ذنب جنته والسبب لا تستطيع أن تفهمه ، وهنا يجب أن نقف ونجتهد في استكشاف ما حدث حقا لا ما يدعى بشار حدوثه حين ينسب إلى الصبيبة الجملتين الماضيتين .

الذي حدث هو هذا : عادت الصبيبة إلى حاضنتها تنوح وتبكي ، فقصت عليها ما فعله بشار . وما فعله لم يكن سوى تهارش الصبيبة ليس من ورائه قصد سيء . ولكن الحاضرة لا تسلم بهذا ، بل تظن فيه الظنون ، وتفسره تفسير اميئا ، فتغضب لهذا غضبا شديدا ، ونظير هذا يحدث كثيرا في

قرانا حتى اليوم ، تعود الصبية من ملاعبة بريئة مع فتى في القرية ، فتشور
في نفس أمها أو أخيها الظنون السيئة ويحاولان منعها من مثل هذه
الملاعبة في المستقبل . فلما غضبت الأمة لم تجد أمامها من تصب عليه
غضبها سوى الصبية البريئة المسكينة ، فتلومها لوما فارصا . وتحرم عليها
أن تعود إلى بشار أو تلاعبه بعد اليوم ، فدهش الصبية الجاهلة دهشة
بالغة من هذا الانفعال الذي لم تتوقعه والذي لا تفهم له سببا . وتنسى
في الحال ما آذاها به رفيقها فتنتصر له وتسأل الأمة أن تدعها تعود إليه ،
وتسألها وتلج في سؤاها لم تمنعها من لقائه ، فتزداد العجوز غيظا لأنها
لا تستطيع مصارحتها بالسبب الحقيقي لغضبها وهو سوء ظنها بغرض
بشار ، وإلا نهتها إلى حقائق الجنس التي لا تزال عنها غافلة ، فحين تلج
الصبية في سؤاها وتعلن تمردا على حكم لا تفهمه ، لا تتمالك الحمقاء
غيظها فتقبل عليها بالضرب الشديد الحانق ، فتبكي الصبية أمر بكاء
يعرفه الأطفال ، وهو حين يأخذهم الكبار بذنب لا يعرفونه ويرون
منهم تصرفا قبيح الظلم لا يفهمون له مبررا .

وتبلغ القصة بشارا فيضحك ضحكا كثيرا ويسر من محنة تلك
العجوز الحمقاء ، فيعتمد إلى نظم قطعته ويتعمد فيها أن يزيد من غيظها
بأن يدعى أن قصدهما من الملاعبة كان حقا ما تتوهمه الأمة بسوء ظنها .
والدليل على أن هذا مجرد ادعاء منه أنه ينسب إلى الصبية مالا يمكن أن
تكون قد قالته . فحين يقول :

أذرت الدمع وقالت ويلتى من ولوع الكفر كاب الخطر

فهو ينسب إليها تعبيراً لفظياً غامزاً إلى مغزى لم تسكن تفهمه ،
ويركب الكلمات تركيباً كانت عاجزة عنه . وحين يقول :

فدعيني معه يا أمتاً علنا في خلوة نقضى الوطر

فالشرط الأول كلامها بلا شك ، ولكنه يأبى إلا أن يتمه بكلام
يخترعه هو وينسبه إليها ، فمستحيل أن تكون قد قالت لأمتها الشرط
الثانى أو ما فى معناه ، ويبعد جداً أن تكون قد فهمت بعد المغزى
الحقيقى لقضاء الوطر فى الخلوة ، إنما هو الذى ينسب إليها هذا الأسلوب
ليزيد من حنق الحاضنة . فاذا يفعل ذلك يشير ضحكنا الشديد من هذه
العجوز الرعنام المجنونة حين يقول :

أقبلت مغضبة تضربها واعتراها كجنون مستعر

ولكن ضحك بشار وسروره من حنق الأمة ليس قسوة خالصة
بل يخالطه حنان على الصبية وحزن لما أصابها ، يبدو فى هذا البيت
الجميل الذى لم نجد له مثيلاً فى الرائية الأخرى :

بأبى والله ما أحسنه دمع عين يغسل الكحل قطر

يزداد بها حباً ولها حناناً وعطفاً حين يرى دمعها أو يتصوره ، وإن كان
لا يملك أن يضحك من هذا « الفصل » ، فشأنه شأن الأب يرى طفله
الصغير يتعثّر فيقع فيسكى ، فيضحك من خطاه المضطربة ومشيته السخيفة
ولكن ضحكه مقترن بالحب والعطف والأسى لجزعه الطفولى ،
لا شامة هنا ولا تشفى . فمقارن بين استجابته لدمع هذه الصبية واستجابته
لدمع الأخرى ... ؟

ثم يختم قصيدته بببيت ظاهره الحزن :
 أيها النوام هبوا ويحكم واسألوني اليوم ما طعم السهر
 وفيه حقا نصيب من الحزن ، ولكنه ليس حزنا خالصا ، بل يمتزج
 به قدر كبير من البشاشة والنشوة والتفاؤل ، يتضح في طرب موسيقيته
 وأريحية تنعيمه ، فشأنه شأن الحزن الرومانتيكي ، لا يخلو من
 تلذذ وعذوبة .

هذه هي القصيدة التي قلنا أنها أشد غزله وقوعا تحت ظل الرائية
 البغيضة ، ولذلك لم ير فيها نقادنا إلا ما فسروه على حسب فكرتهم
 المستمدة من تلك ، وهذا خطأ أقل ما يقال فيه أنه يخلط بين فترتين
 من حياة بشار يفصلهما ما يقرب من نصف قرن . لست أدعي أن
 معظم القراء سيرون فيها رأيي من القراءة الأولى ، ولا من القراءة
 الثالثة ، فانها قد تحتاج إلى تأمل ومحاولة مكررة حتى يستطيعوا أن
 ينظروا فيها نظرة لا ترى فيها ما ليس فيها ، ولكن دعنا الآن نستكشف
 فيها شخصية بشار حين قالها ، فان نجحنا في هذا كان نجاحنا قويا ، لأننا
 بذلك نرى شخصية بشار كما كانت في أول شبابه قبل أن تتكالب
 على تغييرها ظروف حياته وأحداث سيرته فتدمغها بالطابع الذي رأيناه
 في آخر أيامه .

فأول ما يجب أن نبادر بتسجيله هو أن بشارا لم يكن قط إنسانا
 ناعما ضعيفا ، بل كان به منذ البداية - بطبيعة تكوينه - قدر من العنف
 والحدة والميل إلى المشاكسة ، يتجلى في مداعبته الحشنة للصديفة ، ولكن

هذا ما أقرنا به ، لم ندع قط أنه كان ملصكا وديعا . ولكن لولا ظروف
بيئته لما زادت هذه الصفات عما نجده في الكثيرين من الرجال من عنف
الذكورة وحدة النفسية والجرأة والافتحام ، فالعنف والحدة قد تخفى
تحتها رقة وجدانية وطيبة قلب ، ولما اتخذت قلبها الشرير الطاغى الذى
انتهت إلى تلبسه .

وثانى ما نسجله عليه أن به نزوعا إلى الانتقام ومقابلة الخصومة
بالخصومة ، يتجلى هذا فى تعمده أن يزيد من غيظ الأمة وإيغار صدرها
بما يدعى أن الصبية قالت ، وقد كانت هذه الصفة فيه السبب الأعظم فى
تكاثر مصائبه وازديادها شدة بعد شدة . كلما أساء إليه الناس قابلهم
بالأساء ، وكلما أمعنوا فى الخصومة أمعن وتمادى ، حتى بلغ مرحلة
الكيد المتعمد غير المبدوء .

ولكننا نرى فيه مع هاتين خصلة ثالثة ، هى الحنان على من يحبهم
والرئاء لما يلم بهم ، نراه فى أساء الصادق من بساء الصبية . وهذه صفة
استبقاها إلى آخر أيام حياته برغم كل مالى وقاسى ، فلو أن الظروف
واتتها لربما نمت حتى تغلبت فى التسكوين العام لشخصيته على شكسه
ومبادرته إلى الانتقام ، فلم يزد على العبث المفاكه الذى قد يؤلم ولكن
يكون ألمه وقتيا سطحيما ليس فيه حقد دفين أو رغبة فى الإيذاء القاسى .
وما أكثر أصدقاءنا المغرمين بما يسمى « المزاح العملى » ، نضيق به
ونتبرم وقد يؤلمنا أحيانا إيلاما مغضبا ولكن لا يصدر منهم عن خصومة
لدود أو حقد مسموم ، فسرعان ما نغفره لهم ونعود إلى مصادقتهم وإن
كنا نفضل لو لم يكونوا على هذا الميل الخبيث إلى المداعبة الحادة ...

هذه دراستنا النفسية لهذه القصيدة المبكرة ، فلندرسها الآن دراسة
فنية لنرى فيها مميزات صنعة الشعرية ، فانها على تبكيرها ترى خصائص
فيه الغزلى التى سنراها فى سائر غزله . فأول ما يلفتنا فيها سهولتها اللفظية
العظيمة ، وسلاستها ورقة جرسها ، وهى صفة تزداد فى أذننا حلاوة
وفى قلوبنا تمكنا كلما كررنا قراءتها وغيناها وترنمنا فيها ، فهى فى الحقيقة
لم تنظم للقراءة بل ليغنى فيها المغمنون المعاصرون لبشار ، ولذلك اختار
لها وزنا خفيفا وقافية رقيقة الجرس .

ثم نلاحظ قصرها وإيجازها ، فبشار يكتب بأبيات قليلة تخلص إلى
التجربة التى يريد وصفها خلوصا مباشرا بلا مقدمات ثم تنتهى حالما
ينتهى من وصفها بلا تذييل ولا استطراد . فهى أبيات قليلة فى
تجربة واحدة .

ولكن هاتين الميزتين لم يكن بشار هو مبتكرهما فى الشعر العربى ،
فقد سبقه إلى استكشافهما واستغلالهما عمر بن أبى ربيعة ، فبشار فى
الحقيقة يتبع السنة الشعرية التجديدية التى استنها عمر * من الاختصار
على المقطوعات القصيرة ، وتحرى السهولة والخفة فى الأوزان التى يختارها
والقوافى التى يكثر من استعمالها ، وكفى أن نذكر أن ما يقرب من
ربع ديوان عمر على روى الراى وحده ، ثم تحرى السهولة والركة فى
الألفاظ والتراكيب التى يصوغها .

ولكن مشابهة بشار لعمر تقتصر على هاتين الصفتين ، فان أتقنا
دراسة هذه الرائية وجدنا بشارا يختلف عنه فى ميزتين عظيمتى الأهمية

في الفن الشعري ، وهما وحدهما كفييلتان بأن تجعلا شعره تام
الاستقلال والتيز .

فبشار منذ هذه القصيدة - أي منذ بدايته الفنية - لم يكن يمارس
الحوار الدرامي الخالص ، أي لم يكن كعمر الذي لا ينسب إلى المتحدثين
في شعره إلا ما قالوه ، ولا يتحدث إلا بلمحاتهم الصافية يحكيها حكاية
خالصة ولا يدخل عليها نبرته هو . لم يكن بشار كذلك ، بل ما يعطيه
في شعره من حوار يعطيه دائما بنبرته هو ، وكثيرا ما يدخل عليه
من عنده عناصر لم تكن به أصلا ، كما رأينا في هذه القصيدة يضيف
إلى الصيغة جملتين لم تقلهما ، وحتى حين يقتصر على حكاية ما قيل يحكيه
دائما بأسلوبه هو ويخلط عاطفته بعاطفة المتحدث ، وقد رأينا هذا أيضا
في الرائية السابقة ، فما أعظم الفرق بين حوارها والحوار في شعر عمر .
ففي شعر عمر نسمع نساء يتحدثن حديثا مباشرا إلينا ، وفي تلك الرائية
سمعنا رجلا لا نخطئه صوته الذكري يقلد صوت النساء ، فان كان
غرضه من ذلك التقليد مجرد المداعبة والتظرف أثار ضحكنا ومرحنا ،
وإن كان غرضه التهمك الممض كان لنا فيه رأى آخر .

والميزة الأخرى نذكرها الآن ولكننا نترك تفصيل الحديث عنها
إلى القصائد القادمة ، وهي أن بشارا لا يكتفي - كما يكتفي عمر - بالسرد
العادي المطرد ، بل هو مغرم بأن يأتي في أواخر قصيدته بقلب فجائي
وتحويل شديد لمجرى الحديث وتغيير لنبرته التي كانت سائدة منذ أول
القصيدة ، فبينما هو حزين أو شاك إذ به ينقلب إلى نكتة مرحة يتغير
بها صوته تماما ، وبينما هو جاد أو متوله إذ يفاجئنا بمزحة مبتسمة ترغمنا

على الضحك الشديد . وهذا جاء به في هذه القصيدة في بيتها السابع
فاضطرنا إلى أن نعيد قراءتها لنفهمها فهما جديدا ونرى غرضه الحقيقي
من بيتها الرابع والسادس في الشطر الثاني من كل منهما .

فتاة

غدا ممالك بملاماته عليّ - وما بات من باليه
تناول خودا هضم الحشى من الحور محظوظة عاليه
فقلت دع اللوم في حبها فقبلك أعيت عذاليه -
وإني لا كتمهم سرها غداة تقول لها الجاليه :
عبيدة ، مالك مسلوقة وكنت معطرة حاله ؟
فقلت علي رقبة : اني رهنـت المرعـث خلخاله !
بمجلس يوم سأوفى به وأن أجلب الناس أحواليه

هذه أيضاً مقطوعة بالغة الرقة عظيمة الخفة ، فالفاظها العذبة ذات
التنغيم الرشيق ، وبحرها المتقارب بتتابعه السريع وتدفعه المسترسل ،
وقافيتها السلسلة من الياء المتحركة والهاء الساكنة تسبقهما فتحة ممدودة
بالآلف ، كل هذا يشيع فيها عذوبة وبهجة كلما زدنا القصيدة قراءة
ازددنا بهما إعجابا . وبشار يلتزم في القافية مالا يلزم ليضاعف من
موسيقية جرسها ، وحرف اللام من أعظم الحروف العربية سلاسة
ومائية ، وكل هذا يظهر من القراءة الأولى للقصيدة ، ولكن الشأن
فيها كالشأن في كل الشعر الجيد والموسيقى أيضاً ، لا تظفر بمتعتهما الكاملة
إلا إذا كررت قراءة الشعر أو الاستماع إلى الموسيقى حتى تلين الانغام

على لسانك وأذنك وتستكشف فيها آيات جديدة من الانسجام والإيقان
كلما عدت إليها .

وهذه أيضا قصيدة مرحة طروب ، لا حنق فيها ولا قسوة ، لم
ينظمها بشار في صباه بل نظمها بعد اكتمال رجولته وتتمام نضجه ، وهذا
يثبت لنا أنه برغم ما لقيه من مجتمعه ظل في صميمه محتفظا برقة قلبه
وحنان صدره ، وهي أيضا أبيات قليلة مباشرة في تجربة واحدة ، ولكن
دعنا الآن نتأمل نفس الظاهرة الفنية التي أشرنا إليها في ختام عرضنا
للقصيدة الماضية .

فيينا الحديث سائر سيرا عاديا مطردا إلى البيت الخامس إذ بشار
يقبله قلبا مفاجئا ليحيى بنادرة بارعة في منتهى الظرف ، وأى قارىء
يقدر الفكاهة لا يضحك ضحكا شديدا من قول الفتاة فجأة : « رهنـت
المـر عـث خـلخالـيه ! » .

تصور هذه الفتاة تعود إلى أمها المتكفلة بزيبتها وتطييبها القائمة
على ملابسها وحليها ، فتحس الأمة بنقص في أسباب زيبتها تشعر به
شعورا مبهما لم يتضح لها سببه بعد ، فتسأل الفتاة في حيرة : أليس هناك
شئ ينقصك ؟ فتجيب الفتاة ، ولكنها قبل أن تجيب تتلفت يمنة ويسرة
لتأكد من أن لا رقيب ، ثم تفاجئ الأمة بصراحة متحدية : بلى !
خلخالى ! تركته لدى بشار رهنا بأنى سأزوره مرة أخرى !

ولكنها لا تفجأ الأمة وحدها بل تفجأنا أيضا بهذا الجواب غير
المتوقع ، الذي لم يسبقه في الأبيات الماضية ما ينذرنا به ، ولكننا لا نلبث

أن نستجمع فهمنا فتنفجر بالضحك ، ويزيد من مرحنا تصورنا لرعب
الامة وفزعها حين يشوب إليها رشدتها فتدرك معنى ما نطقت به الفتاة ،
وتقبل عليها مستنكرة ، ولكن الفتاة الطائشة الجروح تصر على
التحدى ، وتكرر عزمها على الوفاء لبشار بوعدتها مهما يصح الناس
مستنكرين .

ولكن هذه القصيدة تختلف بعض الشيء عن سابقتها ، فتلک كانت
تامة اللهو تامة السعادة ليس فيها إلا رضى عن الحياة ورضى عن الناس ،
فان كنا وجدنا بها نبرة من الأسى فقد كانت هينة خفيفة وكان أسى
لا يخلو من حلاوة وتلذذ . أما المقطوعة الحالية ففيها بعض التكدير
حين يذكر بشار تغنيف مالك بن دينار إياه وتتبعه باللوم والمواخذة ،
ولكنه تكدير ما يلبث بشار أن يتغلب عليه ويتناساه فى إصراره على
مرحه واستبشاره .

هناك اختلاف آخر بين القصيدتين ، وهو اختلاف شخصيتي
المرأتين ، أما القصيدة الماضية فتصور صبية جميلة صغيرة لا تزيد على
الثالثة عشرة ، متدفقة بالمرح الصيداني البرى . صحيح أن حيويتها الأثوية
قد بدأت تتفتح وتثمر ، ولكنها لم تدرك ذلك بعد ولا تزال عن سحر
أنوثتها غافلة ، فهي لا تزال تلاعب الفتیان ملاعبة الصبية ، فان جذبوها
أو مزقوا وشاحها لم تفقه فى هذا شيئاً سوى جفاوة الأولاد فى اللعب ،
وعنفهم فى المنازعة ، فتذهب إلى أمتها تشكوهم إليها فتغضب الامة غضبا
كأنه الجنون المستعر وتشتد عليها بالتقريع ثم الضرب ، فتدهش

الصبيبة وتستخزي وتبكي لأنها لا تفهم سر هذا الغضب الزائد .
 أما هذه القصيدة فتصور بنتاً أكبر سناً بعض الشيء ، فتاة نظنها
 في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمرها ، بدأت تفهم سر الجنس
 ولذة مداعبة الرجال . صحيح أنها لم تتصل بهم اتصالاً جسيماً بعد ،
 ولكنها في مداعبتهم إياها بدأت تفهم الدافع الكامن وراء ذلك وتفهم
 سبب المتعة التي تجدها في هذه المداعبة ، ولكنها في حداثة سنّها لا تزال
 طائشة مندفعة هو جاء ، يدفعها اغراء الشباب ورعونة الحيوة إليهم دون
 أن تدرك الخطر الذي ينتظرها ، فإن حاول الناس تحذيرها وأخذها
 بالحكمة والاحتراس ثارت عليهم واستخفت بلومهم وتحدث أقاويلهم ، بل
 هي تلقى بنفسها القاء على بشار لا تدرك تمام الإدراك عاقبة هذه الرعونة .

امراة

ويبيضاء يضحك ماء الشبا	ب في وجهها لك إذ تبسم
وجارية خلقت وحدها	كأن النساء لديها خدم
دوار العذارى إذا زرنها	أطفن بحوراء مثل الصنم
يرحن فيمسحن أركانها	كما يمسح الحجر المستلم
ظمئت إليها فلم تسقني	بري ولم تشفني من سقم
وقالت : هويت فمت راشداً	كما مات عروة غما بغم
أصفراء ليس الفتى صخرة	ولكنه نصب هم وغم
صبت هواك على قلبه	فضاق وأعلن ما قد كتم
فلما رأيت الهوى قاتلي	ولست بجار ولا بابن عم

نزل
كسرى

دست إليها أبا مجلز ! وأى فتى أن أصاب اعتزم
فما زال حتى أنابت له فراح وحل لنا ما حرم

أو تحتاج هذه القصيدة هي الأخرى إلى أن نطيل في وصف رقتها
العذبة ؟ بل سلاسة أنغامها ورشاقة ألفاظها وبجرها المرقص واضحة
للقارىء من القراءة الأولى ، وسيزداد بها استمتاعاً كلما زادها قراءة .
والأنثى التي نراها في هذه القصيدة مختلفة عن كل من سابقتها ،
فهذه امرأة ناضجة ما نحسبها إلا قد توسطت العقد الثالث من عمرها
تم اكتمالها ورشدها ، واكتسبت خبرة بسلوك الرجال وفنونهم مع
النساء فهي لا تلقى بنفسها عليهم كما فعلت الماضية بل تعرف قيمة التثاقل
والتمنع والتظاهر بالصعوبة حتى تزيدهم بها هيأماً وفيها رغبة . استمع إلى
هذا البيت الظريف :

وقالت : هويت فمت راشداً كما مات عروة غمماً بغم
وتصور هذه الأنثى تتدلل وتتمنع ، تقول له في إغراء ظاهر
 واحتجاج واضح الادعاء : أنت تزعم أنك تحبني ؟ فلم لا تسكتني بحبي
حياً بريئاً أفلاطونياً ، لم لا تكون كعروة العذرى محباً مثالياً عفيفاً ؟
أم تريد مني شيئاً آخر ؟ انظر إلى الفخار الذي تكسبه إذا مت ميتة
شريفة سببها الهوى العذرى الطاهر ! فيزداد بشار أمامها تضرعاً
واستعطافاً لا يخلو من نبرة فارغة الصبر مؤداها : ما كل هذا الكلام
عن الحب العذرى والموت الشريف ! « على مين ياست ! » .

وقد آن لنا أن نتأمل في حب بشار ، أى حب كان ؟

كان بشار يحب النساء حباً تحقيقياً ، ليس في هذا شك ، ولا نريد أن ندعى أنه لم يقصد منهن سوى الحديث البريء والمتعة العذرية ، بل هو دون ريب كان يود لو حظى منهن بالاستمتاع الجسدى الكامل . ولكننا نخطئ أشد الخطأ إذا قفزنا من هذا إلى الحكم بأن هذا الاستمتاع الجسدى كان كل ما أراده منهن ، لم يكن بشار حيواناً لا يعنيه من الأنثى إلا أنها أداة لإطفاء الشهوة الملحة ، ولا كان كالرجل الذى يطغى به الظمأ الجنسى فيذهب إلى المومسات الماجورات لا يبغي لديهن سوى الإرضاء الآلى لهذا الظمأ . بل كان بشار يتطلب فى المرأة أكثر من هذا ، كان يفشد فيها ما يلتسمسه الرجل ذو العاطفة المهذبة والظمأ الوجدانى ، من الحنان الانثوى ، والرقّة والوداعة ، والحديث الحلو والمسامرة الهنيئة ، وكل ما يتنسمه الرجل الراقى فى كنف المرأة من روح الدعة والرحمة وظلال التعاطف والحنان . صحيح أنه لم تكن تتم له سعادته إلا إذا أتم هذه النشوة بالتحقيق الجسمى ، ولكنه فى هذا التحقيق نفسه لم يكن حيواناً هاجماً أو ذكراً جلفاً من أولئك الذين لا يرون أنثى إلا حبسوا فكركم وتشوقهم على ناحية واحدة منها .

ولا غرابة فى هذا . لا غرابة فى هذا برغم كل ما قاله الناس عن بشار ، فبشار كان شاعراً ، شاعراً ممتازاً عظيماً ، لا تنفس ذلك أبداً ، والدليل القوى على أنه لم يقتصر فى المرأة على أشباعها الجسدى تجده واضحاً فى غزله الرقيق الذى يفيض حناناً ، تجده مثلاً فى الأبيات الخمسة الأولى من هذه القصيدة .

ففيه أبيات ظاهرة الصدق تامة الأخلص ، تعبر عن شعور نحو

المرأة لا يستطيعه ذلك الصنف من الذكور . انظر إلى البيت الأول
المتهلل المرقص :

وبيضاء يضحك ماء الشبا ب في وجهها لك إذ تبسم
الذي لا يعنيه من المرأة إلا التحقيق الجنسي لا يهمه أتبتسم له أم
تعبس ، ثم تأمل في هذه البسمة الوضاعة المتلاثة ، بسمة الجمال ، بسمة
الشباب ، بسمة الوجه المحبب ، يجتمع فيها الجمال والشباب والحب
فلا يعود وجه المرأة مجرد جزء مادي من جسم مادي ، بل يكنس حلة
عجيبة من البهاء ، أصله الجمال الجسماني دون شك ، ولكنه يعلو عليه
كثيراً ، فتتنزل إليه مسحة روحانية من الملاء الأعلى ، وليس في الوجود
كله أبهى من وجه الحبيب الشاب الجميل يبتسم لك هذه الابتسامة النورانية .
وما أروع تعبير بشار : يضحك ماء الشباب في وجهها لك إذ تبسم ! وما
أروع هذه الكلمة الواحدة : لك ! نعم لك أنت يضحك وجهها فيضحك
الكون كله وترقص الحياة أمامك سعادة وطرباً حين ترى هذه البسمة
النورانية المتهللة .

فإن ظننت أن بشاراً لم ير هذه البسمة على أي حال ، فهو إنما
يقول كلاماً تقليدياً لا يدل بالضرورة على عاطفة صادقة ، أجبتك :
إن صدق عاطفته يقطع به هذا البيت البديع إن كان القارئ ذا ذوق
أدبي ناضج يميز بين كلام التقليد والتعبير الحار الصادق الحرارة ، فهذا
بيت يستحيل أن ينظمه مجرد مقلد ، بل قائله قد خبر هذه البسمة
وعرفها نوعاً ما من المعرفة . فلنفكر إذن : أي معرفة أتيحت لبشار؟
الذي يرفض صدق البيت لأن قائله أعشى ، لا يدرك مبلغ حساسية العميان ،
فإن شككت في هذا فأرقب أعشى تعرفه ، وأرقبه أياماً متعددة تراقب

فيها تأثره بمن يلقاهم من الناس ، بعضهم يتسم ، وبعضهم يعبس وجهه
وإن كان حديثه متودداً مجاملاً ، وابتسامه بعضهم صادرة عن صداقة
مخلصة وابتسامه الآخرين تصدر عن النفاق الاجتماعي المألوف ،
وابتسامه بعضهم سرور صادق وابتسامه الآخرين ممزوجة بالسخرية
والاستخفاف ، وانظر هل يميز ذلك المكفوف بين كل تلك الوجوه
أو تستوى أمامه ، ولا تسألني عن الوسيلة المضبوطة التي يعرف بها
الكفيف فإني لا أدري ، وإنما أكتفى بتسجيل الواقع الذي يستطيع
كل قارئ أن يتحققه بنفسه ، فأما إن كان من الماديين الذين يقصرون
المعرفة على الحواس فإنه يستطيع أن يقول أن الأعمى قد استعاض عن
البصر بتنمية الإحساسات الأخرى إلى درجة من الأرهاف لا يستطيعها
المبصرون ولا يصدقونها ، وأما إن كان من غير الماديين فربما يستطيع
تفسير آخر . وقد سمعت بموسيقى انجليزى كان يستطيع أن يحكم بعمر
المرأة ونصيبها من الجمال أو الدمامة بمجرد الاستماع إلى صوتها ، وقد
أكد لي من عرفوه أنه لم يخطئ في حياته مرة واحدة . وما يروى عن
بشار نفسه أنه استمع يوماً إلى امرأة فقال أنها جميلة الأسنان ، فلما سئل
كيف عرف ذلك أعطى سبباً مادياً صرفاً ، فقال إنها تكثر من الضحك
حتى تبدو أسنانها ، ولست أدري هل كان السبب الذي أعطاه بشار هو
كل شيء ، فبشار نفسه كان لا يؤمن إلا بمعرفة الحواس . . .

أضف إلى هذا كله أن استعمال بشار لأسلوب المبصرين لا يطعن
بالضرورة في صدق عاطفته ، فإنه اضطر في أحيان كثيرة إلى استعمال
الأوصاف البصرية كي يقرب إلى سامعيه أو قرائه المبصرين كنهه العاطفة

التي يحسها بترجمتها إلى اللغة التي يالفونها ، وإنك تجد نظير هذا في كلام العميان جميعاً ، شعرائهم وناثرهم ، في الأدب العربي وفي غيره من الآداب ، فليس استعماهم لهذه اللغة طاعناً في صدق الإحساس الذي يحاولون وصفه ، ولا تطيل في هذا فقد عرضنا له في مكان سابق من هذا الكتاب ، حين تأملنا في بعض الآيات التي يثبت بها بشار قدرة المكفوف على الاستجابة للجمال ، ولكن تأمل الآن في الآيات الأربعة التالية :

وجارية خلقت وحدها كأن النساء لديها خدم
دوار العذارى إذا زرنها أطفن بحوراء مثل الصنم^(١)
يرحن فيمسحن أركانها كما يمسح الحجر المستلم
ظمنت إليها فلم تسقني برى ولم تشفني من سقم
أتعرف رجلاً لا يهيمه في المرأة إلا ما يريد الرجل من المومس
يقول هذا الكلام؟ بل هذا كلام واضح الصدق ظاهر الحرارة ، يقوله رجل يحب المرأة حباً غير منقوص ، حباً لا يقتصر على جسمها وما يقدمه له ، وإلا لم يميزها على سائر الإناث فاستوين عند جميعهن أو معظمهن ، فبشار حين قال أنها خلقت وحدها وأن سائر النساء أمامها كالخدم كان يعني ما يقول بإخلاص ، صحيح أن هذا كان منه شعوراً وقتياً سينزل بعد فترة ويتجه إلى امرأة غيرها ، ولكن هذا لا يطعن في صحته مادام نحوها باقياً . والبيتان التاليان :

(١) دوار : صنم يدور حوله العابدون .

دوار العذارى إذا زرنها أطفن بحوراء مثل الصنم
يرحن فيمسحن أركانها كما يمسح الحجر المستلم
يعبران عن شعور لا يقتصر على الحب ، بل يسمو إلى الإجلال
الذى يبلغ منزلة التقديس ، وصدق الشعور فيهما واضح لكل ذى
دراية فنية تميز الصادق من المتكلف .

وحين يقول :

ظلمت إليها فلم تسقنى برى ولم تشفى من سقم
فأى ظماً هذا ؟ وأى رى يبغيه ؟ لست أدعى أنه كان ظماً عذرياً
يبغى الرى الأفلاطونى ، فلا شك أنه يريد منها التحقيق الجسمى فيما
يريده . ولكن أهذه الشهوة الجسمية هى كل ظمته وإرضاؤها الآلى
هو كل ربه ؟ لو كان ذلك أما كان يحد رياً كافياً بغيرها من النساء ،
أو بموس يستأجرها لليوم أو للساعة ؟ أو كانت تصدر عنه الآبيات
الماضية العظيمة الإكبار والتقديس ، أم كان يصدر عنه ما نراه فى
الآبيات التالية من الوله والتضرع حين يرى تمنعها ؟ :

وقالت : هويت فمت راشداً كما مات عروة غما بغم
أصفراء ليس الفتى صخرة ولكنه نصب هم وغم^(١)
صبت هواك على قلبه فضاقت وأعلن ما قد كتم
ولكن بينا هو فى هذا الحديث الحار الجاد ، إذ به يقلبه علينا فجأة

(١) لعل الرواية الصحيحة « نصب غم وهم » ، لتجنب الأخطاء ، وقد مزجنا فى
روايتهما لأبيات هذه القصيدة بين روايات شتى .

فيحملنا على الإعجاب الممزوج بالدهشة من فرط ولعه بالنسكة والمداعبة
حتى حين يكون في أشد جده :

فلما رأيت الهوى قاتلي ولست بجار ولا بان عم
دست اليها أبا مجلز ! وأي قتي أن أصاب اعترم
فما زال حتى أنابت له فراح وحل لنا ما حرم
النبرة في هذه الأبيات الثلاثة مختلفة تماما . ويجب على قارئ القصيدة
حين يأتي إليها أن يغير صوته فجأة من الشكوى الحارة المتضرعة إلى
المداعبة المرحية المبتسمة ، يهمس بها في مازحة ومكر ، وبشار يرغمنا
فيها على أن نضحك بالضحك الشديد ، ويزيد من فكاهة الأبيات أن
تلتفت إلى هذا الإسم المضحك الذي اختاره لديوته ، يسميه «أبا مجلز» ،
فكثير من القراء في يومنا هذا لا ينتبهون إلى مدى فكاهة هذه التسمية
إذ يظنونها اسما حقيقيا للرجل الذي أرسله بشار ، وهي ليست إلا كنية
هزلية يخرعها بشار فيختار حروفا تصدر في اجتماعها نفس الرنة
المضحكة التي تسمعها في بعجر ، وشنطخ ، وزعر ، وجعر ، أو
أمثالها ، والغريب أن بعض معاصريه في ضيق أذهانهم واقفارهم من
روح الفكاهة ظنوها اسما حقيقيا فأقبلوا عليه يسألونه من أبو مجلز
هذا فإنهم لا يعرفونه ! وكذلك الشأن في الكلمات الغريبة التي كان
بشار مغرما بإقحامها في شعره ، من أمثال « الشنفران » ، و « ابن قنان » ،
وغيرهما ، ثم يعجز معاصروه ومن تبعوهم من رجال اللغة عن اكتشافها
في معاجم اللغة أو فيما يعرفون من لغات العرب ، فيقولون أنها حشو
اضطر إليه حين أعوزه الوزن أو القافية ! وأعجب العجب أن نقادنا

المحدثين يتبعونهم في ذلك ولا يلتفتون إلى أنها متعمدة لغرض المزاح والاضحاك ، مع أنهم يستعملون في محادثاتهم أمثالهذين يسمون بعض أصدقائهم أو معارفهم أسماء هزلية ، ويعرفون نظائرها في اللغات الأجنبية ، وفي الانجليزية منها المئات تفيض بها المسرحيات الهزلية .

وولع بشار بتغيير مجرى حديثه وتبديل نبرة صوته تبديلا مفاجئا يصدر عن روح الفكاهة التي وجدت فيه بأصالتها والتي يغفل الناس عنها أو ينكرونها ، فهي مستمدة من بصره بمتناقضات الحياة وإدراكه للمفارقات . وحيلته في القلب معروفة بكثرة في الأدب الانجليزي ويسمونها twist ، وهي تؤدي إلى هبوط فجائي في عاطفة القارىء . يسمونه anticlimax ، فبينما عاطفته في تخرج واشتداد إذ تنفجر في ضحكة غير متوقعة ، ومن أحسن الأمثلة التي أتذكرها ما يقوله أحد الأشخاص في مسرحية لشكسبير ، وإيما أعطى هذا المثال لأنه في موضوعه قريب الشبه من أبيات بشار الماضية ، فهذا الشخص يحب ولهان يتحدث إلى محبوبته في ضراعة وشغف ، فيقول : سأحيي في فؤادك ، وأموت في حجرك ، وأدفن في عينيك ، وأيضا سأذهب معك إلى بيت عمك ! (١)

وهو نوع من المداعبة يغرم به المصريون ، وهم مشهورون بولعهم بكل أنواع الممازحة ، وكما سمعت في مظاهرات الطلبة من خطيب

متحمس ناثر ، ثم تحزقه النكتة ، فجأة فيضج مستمعوه بالضحك لما سمعوه من مزحة لم تسكن منتظرة . ومن أجود الأمثلة التي لا أزال أتذكرها ما قاله لنا أستاذ جامعي جليل معروف بفكاهته البارة كان يحاضرنا عن حسان بن ثابت ، فقال : وكان سيدنا حسان بن ثابت رضى الله عنه جباناً !

خليعة

إن كنا رأينا في القصيدة الماضية امرأة متدلة متناقلة ، فاننا سرى في المقطوعة التالية امرأة تزيد على هذا فتتثنى ثنائياً شديد الإغراء :

قال ريم مُرْعَثٌ ساحر الطرف والنظر^(١)

لست والله نائلي (قلت: أويغلب القدر!)

أنت إن رمت وصلنا فانج ، هل تدرك القمر

تدل هذه المرأة يصل إلى درجة الخلاعة . يصورها بشار تصويراً ناطقاً بهذا الوزن الذي اختاره . فاقراً الأبيات ، هي ثلاثة أبيات لا غير ، ولكن فيها صورة كاملة لهذه الأنثى الخليعة المغنجان تتلوى بكل أجزاء جسمها وتهتز اهتزازاً يحاكيه هذا الوزن البارع ، فإن كنت لا تعرف هذا التثنى المثير من واقع الحياة فأنت لاشك تعرفه من تمثيل بعض ممثلاتنا المشهورات في كثير من أفلامنا السينمائية !

وحتى في هذه القطعة القصيرة يأبى بشار إلا أن يدخل قلبه الفكاهة الذي

(١) مرعث : يلبس في أذنه الرعاث وهي الأقراط .

يبعث ضحكنا الشديد ، ولكنه لا يدخله هنا في نهاية القطعة بل في وسطها ، وهو الشطر الثاني من البيت الثاني : « قلت أو يغلب القدر ! » فهذا القول يقوله بشار سرا لا جهرا ، مناجيا به نفسه وهو يشهد تمنعها المدعى ، ولذلك وضعته بين قوسين . تصور إذن هذا المنظر . بينا هذه الأثني في تدللها وتثنيها الخليع تصنع الرفض والامتناع ، يقول بشار في نفسه بابتسامة ماكرة : (سنرى ! تزعمين أني لن أنالك ؟ صبرك !) ثم يستمر في تصوير تخلعها وادعائها أنها ستعجزه ، لا تدري ماذا قال سرا وعلام عقد العزم !

هذه أبيات خليعة بلا شك ، ولكننا لا نستطيع أن نرفضها رفضا فنيا . فتصويرها الفني العظيم الصدق والقوة لا يمتزج به تصوير لعواطف أخرى كرهية من الحقد أو القسوة كما رأينا في الرائية . وإن كان بشار قد عقد العزم على الظفر بها فهذا لا يثير فينا رثاء لها أو حزنا عليها ، فهي ليست فتاة بريئة غريرة بل هي امرأة ظاهرة الأفحاش ، ولا شك عندنا أن بشارا لن يكون أول من يظفر بها . ولذلك لا نجد في فكاهته البارعة (قلت : أو يغلب القدر !) ما يؤلمنا بل نرى فيها الجزاء الذي تستحقه هذه المتهتكة التي تدعى التمتع .

شريفات

أما الحديث في القصيدة التالية فعن نسوة من صنف تام الاختلاف :
لما طلعن من الرقيق ق على بالبردان خمسا (١)

(١) كان لبشار مجلسان في داره ، سمي أحدهما الرقيق وسمى الآخر البردان .

وكانهن أهلة تحت الثياب زفقن شمساً
لما طلعن حففها وأصخن ما يهمن همساً
فسألني من في البيوت فقلت ما يؤوين إنساً
ليت العيون الطارفا تطمسن عنا اليوم طمساً
فأصبن من طرف الحديث لذاذة وخرجن ملساً (١)
لولا تعرضهن لي يا قس كنت كآنت قساً! (٢)

هؤلاء نسوة شريقات فاضلات ، ويظهر من وصف بشار لهن
أنهن أيضاً من الطبقة الاستقرائية الغنية ، زرن بشاراً لا لغرض
سوى الاستمتاع البريء بحسن حديثه ، واحتيجن لهذه الزيارة بأنهن
جئن ليقول لهن شعراً ينجن به ، وواضح أن هذا مجرد احتجاج ،
ولسكنهن يحطن جداً قبل أن يدخلن منزله خوفاً على سمعتهن لو رآهن
رقيب ، ويظهر أن أحدهن كانت أعلاهن مرتبة فهو يصف التفاف
الأربع الأخريات حولها حتى يخفينها عن النظر وإصاخن السمع قبل
أن يدخلن حتى يتأكدن من خلوه المكان . ثم يسألن أفي منزله زوار
آخرون ولا يدخلن حتى يؤكد لهن بالنفي .

وتجروهن على زيارة بشار برغم كل صفاته السيئة وسمعته المشينة
يرينا أنه كان على قدر عظيم من حلاوة الروح وجمال المؤانسة ، حتى
يواجهن في سبيل مسامرته الظريفة وحديثه الفسكه كل الأخطار . ويرينا
أيضاً أن بشاراً لم يكن يهم بالفاحشة مع كل امرأة تزوره ، بل كان
يقدر للعفيفات مركزهن وخلقهن ويكتفي معهن بلذة المحادثة وأمتع المفاكهة
وقصيدته هذه في نفس الخفة والرشاقة التي وجدناها في القصائد

(١) ملساً : طاهرات خاليات من العيب كما دخلن .

(٢) يخاطب الحسن البصري .

الماضية، فلا لفاظها عذوبة و ورقة و لوز نممة ساحرة ، و لكننا
لا نجد فيها نفس المرح بل نجد عذوبتها ممزوجة بطعم حريف ، لأن
بشاراً حين نظمها كان حزينا ساخطا . و سبب ذلك أن الحسن البصرى
لما بلغه خبر زيارة هؤلاء النسوة له استغل القصة ليزيد من تشويه
سمعته لدى الناس و تصوره بصورة الفاتك الخطر الذى لا يؤمن حتى
على شريفات النساء و أخذ يحرض الناس على البطش به .

والذى يحزن بشارا هو أنه لم يحدث منه مع هؤلاء الزائرات إلا
الجلسة البريئة والحديث الحلال ، أفيتبعه أعداؤه بالتشنيع حتى فى هذا
القدر الهين من المتعة الشريفة ؟ و حزنه يتجلى فى نممة القصيدة كلها
فرنينها مقرون بالأسى ، و روى السين الذى اختاره لقافيته أشد الحروف
العربية تعبيرا عن الأسى والحسرة ، وهو وحده يشيع فى القصيدة كلها ،
روحا كشيئة متشائمة . وهذا الشعور يتجلى على أوضحه فى الآيات
الثلاثة الأخيرة ، حيث يتمنى أن تطمس عنه عيون المتجسسين ، و يحتج
بأنهم لم يصبن إلا لذاذة من طرائف الحديث وخرجن طاهرات ملسا
من العيب كما دخلن . ثم يأتى فى بيته الأخير بقلبه المعهود !

لكننا لا نجد هذا القلب مزحة خفيفة مرحة كما فى القصائد السابقة ،
بل نجد وخزة قاسية ، فالحسن البصرى كان يسمى بالقس لتعبده و زهد
وهى تسمية كان يطلقها المسلمون على نساء كههم المتقشفين ، ولكن بشارا
يقبلها إلى اللقب الكهنوتى المسيحى ببراعة لاذعة ، يقول له : ماذا تريد
منى ؟ أتريد أن تحرم على حتى حلال الحديث البرى ، و المؤانسة الشريفة ؟
أتريد جميع الناس أن يكونوا رهبانا متقشفين مثلك ؟ أتريدنى أن أكون
قسا مثلك ! تصور شيخا وقورا جليل الهيئة سابغ للحية يقول له خصم
له : يا قسيس !

طرب

ولكن بشارا الذى يستطيع نظم تلك القصيدة الكسيفة الآسية
حين يرهقه خصومه ، يستطيع أيضا حين يصفو له مجلس الأصدقاء أن
ينظم القصيدة الآتية العظيمة الطرب والانتشاء .

نروى أولا قصة نظمها : « وكانت بالبصرة قينة لبعض ولد سليمان
ابن على ، وكانت محسنة بارعة الظرف ، وكان بشار صديقا لسيدها
ومداحا له ، فحضر مجلسه يوما والجارية تغنى ، فسر بحضوره وشرب
حتى سكر ونام . ونهض بشار ، فقالت : يا أبا معاذ ، أحب أن تذكر
يومنا هذا فى قصيدة ولا تذكر فيها اسمى ولا اسم سیدی وتكتب بها
إليه ، فانصرف وكتب إليه القصيدة ، ووجهه بالآيات إليها ، فبعث
إليه سيدها بألفى دينار وسر بها سرورا شديدا . »

كان هذا مجلس سعادة تامة لا نكد فيها كما لم يتح لبشار فى حياته
كثيرا . فالمغنية ليست رخيصة الصوت فحسب بل هى محسنة بارعة
الظرف ، فهى من النوع المشقف المتحضر الذى كان بشار يغرم بمحادثته .
ويبدو أنها كانت تسكرم بشارا وتحسن معاملته ولا يرى منها إلا المجاملة
واللطف ، وسيدها صديق له ، يحضر بشار مجلس طربه فلا يطرده ،
ولا يعبس له ، ولا يقبله كارها كاظما . بل يسر سرورا صادقا بحضوره ،
فانظر الآن أى مرح وسعادة يستطيعهما بشار حين لا ينغص عليه
خصومه حياته :

وذات دل كأن البدر صورتها باتت تغنى عميد القلب سكرانا :
« إن العيون التى فى طرفها حور ، قتلنا ثم لم يحيين قتلانا »

فقلت: أحسنت يا سؤلى ويا أملى !
 « يا حبذا جبل الريان من جبل
 قالت: فهلا فدتك النفس أحسن من
 « يا قوم أذن لبعض الحى عاشقة
 فقلت: أحسنت! أنت الشمس طالعة
 فأسمعنى صوتا مطربا هزجا
 ياليتنى كنت تفاحا مفلجة
 حتى إذا وجدت ريحى فأعجبها
 فحركت عودها ثم انثنت طربا
 « أصبحت أطوع خلق الله كلهم
 فقلت: أطربتنا يا زين مجلسنا!
 لو كنت أعلم أن الحب يقتلنى
 فغنت الشرب صوتا مؤنقا رملا
 « لا يقتل الله من دامت مودته

فأسمعنى جزاك الله إحسانا :
 وحبذا ساكن الريان من كانا ،
 هذا لمن كان صب القلب حيرانا :
 والأذن تعشق قبل العين أحيانا ،
 أضربت فى القلب والأحشاء نيرانا
 يزيد صبا محبا فيك أشجانا
 أو كنت من قضب الرياحان ريحانا
 ونحن فى خلوة مثلت إنسانا !
 تشدو به ثم لا تخفيه كتماننا :
 لا كثر الخلق لى فى الحب عصيانا ،
 فهات ! انك بالاحسان أولانا
 أعددت لى قبل ألقاك أكفانا
 يذكى السرور ويبيكى العين ألوانا :
 والله يقتل أهل الغدر أحيانا ،

هذه الأبيات الستة عشر نادرة المثال فى طربها العظيم ونشوتها الزائدة ، أما فى جودة تصويرها لمجلس الغناء وما يحدث فيه من طرب وصياح فهى معدومة النظير ، فإنها تجسمه تجسيميا يبلغ درجة الكمال .
 بشار تارة يصف غناء القينة وجمال صوتها وبراعة تلحينها ، وتارة يصف تأثره هو بغنائها . ووصفه هذا لو قرأه أوربى لما فهمه ، لأن الأوربيين إذا استمعوا إلى الموسيقى أو الغناء لموا الصمت التام حتى تنتهى القطعة ، ثم لا يعبرون عن إعجابهم إلا بالتصفيق ، ولكن القارىء العربى يستطيع فهم القصيدة جيدا إذا تخيل ما يحدث بيننا إلى الآن فى مجالس

الغناء حين نأخذ النشوة السامعين فيصيحون ويقاطعون ويستزيدون
« كان والنبي كان ! » .

وقارىء هذه القصيدة إذا أراد أن يحسن تمثيلها فلا بد له من أن
يتغنى في أبيات الغناء ، وهى التى وضعناها بين قوسين ، ولا يكتفى فيها
بمجرد القراءة ، ويكون خيراً لو اشترك فى القصيدة صديقان ، أحدهما
يقرأ أبيات الحكاية والوصف والثانى جميل الصوت يغنى بأبيات الغناء ،
فيكون بينهما ما يشبه الحوار .

تأمل الآن تدرج بشار فى الطرب وازدياده فى الهتاف بازدياد
طربه . حين يسمعها أولاً تغنى :

« ان العيون التى فى طرفها حور قتلنا ثم لم يحمين قتلانا ،

يعبر عن إعجابه هكذا :

فقلت : أحسنت ! يا سولى ويا أملى فأسمعينى جزاك الله إحسانا

كما يقول أحدنا : الله الله ! كان والنبي كان !

ولسكن حين تزیده غناء يزيد صياحاً ، وخصوصاً حين يرى أنها
بلباقتها البارعة تغنيه من شعره هو ، فيكون هذا تأثره :

فقلت : أحسنت ! أنت الشمس طاعة أضربت فى القلب والأحشاء نيرانا

فأسمعينى صـ و تا مطر با هز جا يزيد صبا محبسا فيك أشجانا

فيكون كأحدنا فى حفلات غنائنا حين يزيد طربه فلا يكتفى

بالاعجاب بالغناء بل يعبر عن استملاحه للمغنية فيصيح : يا فل ! يا ورد !

يا قمر ! آه يا قلبى ! يا حلاوتك يا خفة ! جننتينا خالص ! ونظير هذا من

صياح لا تظن أنه يقتصر على عامتنا ، بل يشارك فيه جلة وزرائنا وكبار مشفقينا ، تنشر مجلاتنا الأسبوعية صورهم وقد استخفهم الطرب في الحفلات التي تغني فيها إحدى مغنياتنا المشهورات ، فهو امن كراسيهم وفغرو أفواههم وتشنجت وجوههم بالتلذذ وبسطوا أيديهم بالضراعة والاستعطاف ! ولكن بشارا لا يكتفى بتصوير تأثيره الظاهر وما صدر عنه من صياح ، بل يصور أيضاً الخواج التي كانت تدور في عقله ، ولا تنس أنه كان ثملا ، فقد اجتمعت عليه نشوة الغناء ونشوة الخمر :

يا ليتني كنت تفاحا مقلجة أو كنت من قضب الريحان ريحانا حتى إذا وجدت ريحي فأعجبها ونحن في خلوة مثلت إنسانا !

وهذان بيتان لا نظير لهما في وصف تخيلات السكران . لاحظ أن بشارا لم يصح بهما بنفس الصوت الذي نطق به البيتين السابقين ، وإنما هذا ما تهيمه له مخيلته ، فان كان نطق بشيء فلم يزد على أن تلثم بيضع كلمات غير مفهومة ، فعليك حين تقرأهما أن تتمم بهما في تخبط وخفوت وأن تقلد وأنت تنطق بهما تطوح السكران وتلعشمه المعروف . وفكر الآن في هذا الخيال المضحك : يتخيل أنه انقلب إلى تفاحة مقسمة أو إلى عود من الريحان ، فتمر به المغنية فتجد له شذى عبقا ، فتحمله إلى حبرتها الخاصة حتى تستمتع بتشممه ، فاذا به ينقلب من التفاحة أو الريحانة إلى بشار بلحمه ودمه !

وهذا الخيال المبالغ في الأغراب لا يصدر إلا عن سكران ، ولكنك لا تعدم أحلاما مشابهة له في الصحة حين يأخذهم الطرب ، فكم منا

انصرف عن حفلة غناء أو فيلم سينمائي وفي طريقه إلى بيته يدبر الصدف
الخيالية التي ربما تجمع بينه وبين تلك المغنية المشهورة أو الممثلة الفاتنة
فتقع في حبه ويعجبها ظرفه وتطارحه الغرام !

ثم تغنى مرة أخرى ، فيزيد تأثيره :

فقلت : أطربتنا يا زين مجلسنا ! فها ! انك بالأحسان أولانا
لو كنت أعلم أن الحب يقتلني أعددت لي قبل أن ألقاك أكفانا
واسترساله في هذا البيت الثاني يصور تصويراً تاماً ما يحدث في
مجالسنا أيضاً حين يزيد بأحدنا الطرب فلا يكتفى بالتعبير عن استحسانه
للغناء أو تميمه بالمغنية بل يدعي أنها قتلتها ويصيح : آه يا ناس ! مت
خلاص ! موتينا يا روجي ! ثم يلقي بنفسه على صديقه المجاور له ، أو
يقذف بطربوشه إلى السقف !

فاذا استمر الطرب بلغ التأثير نهايته ، فوجدت بعض السامعين
يجاوز الصياح والأعجاب إلى البكاء والنحيب إذ وصل إلى أقصى الميوعة
العاطفية :

فغنت الشرب صوتاً مؤنقارماً يذكي السرور ويبكي العين ألواناً
ولكن بشاراً في هذا كله لا يصف حسن غنائها وجودة أنغامها
فحسب ، بل يصف أيضاً ما تمزج به غنائها من دلال وابتسام وانثام ،
تزيد به من افتتاح السامعين ، وهو ما يحدث بعينه من مغنياتنا المشهورات ،
فانك تجد جزءاً عظيماً من رواجهن يرجع ، لا إلى جمال غنائهن وحده ،
بل إلى ظرفهن وشخصيتهن المحببة إلى السامعين .

وهكذا يقسم بشار قصيدته تقسيماً رائعاً بين غناء الجارية وطربه هو وصياحه ، وإن عادت أبيات الغناء وجدتها لا تزيد عن خمسة ، ولو أنك أحصيت عدد الدقائق التي تقضى في الغناء في إحدى حفلاتنا وعدد الدقائق التي يشغلها صباح المستمعين وإعجابهم واستزادتهم ، لوجدت مطابقة عجيبة في النسبة بين حفلاتنا وبين هذه القصيدة الفذة .
على أن بشاراً لا يصف طرب المستمعين وحدهم ، بل يصف طرب المغنية أيضاً :

فركت عودها ثم انثنت طرباً . . تشدو به ثم لا تخفيه كتماناً
فإنها حين تجد تأثرهم وتسمع استحسانهم المفرط تزيد من جهدها
في التحسين وتبلغ أقصاها في الاتقان حتى تتم المجاورة والانسجام فكما
نقول في اصطلاحنا « تنجلى » في النصف الأخير من الحفلة . وهل
تستطيع أن تتصور إحدى مغنياتنا « تنجلى » لو لم يعطها مستمعوها
هذا الهمّات فاستمعوا إليها في صمت تام كما يفعل مستمعو المغنيات
الغربيات ؟

وهكذا نجد بشاراً برغم مالمق وقامى وكل ما امتلأ به صدره من
الحقد والنقمة يستطيع المرح الخالص والسعادة الصافية حين تواتيه
الفرصة وتكمل له أسباب الغبطة فتصدر عنه مثل هذه القصيدة الطروب
ذات الرضى التام والاستبشار المعجب . وهي صفة احتفظ بها حتى
أواخر أيامه ، وبقاؤها فيه على الرغم من خصوماته ومصائبه يشهد لنا

أنه في أصالة طبعه كان من الصنف المستبشر المرح الذي يريد مصادقة الجميع ، فإذا تراه كان يصير لو خلت حياته من آلامها ولم يسممها عليه خصومه ؟ لا شك أنه كان حينئذ لا يقل سعادة وشفاء عن عمر أو أبى نواس فلا نسمع في شعره إلا ما نسمع في شعرهما من أنغام السعادة المنطلقة الحرة ولا نذوق منه إلا ما نذوقه منهما من القراح الذي لا يخالطه ثقل ولا قذى . صحيح أننا كنا نسمع فيه بين الفينة والفينة نغمة حادة أو مزحة لاذعة ولكنها ما كانت تزيد في إيلاها إلى الحد الطاغى الذي لا يحتمل بل كانت فكاهتها تخفف من لذعها وطيبة قلب صاحبها تسهل لنا قبولها . فان كان بشار لعاه ودماثة محتوما عليه ألا يخلو من قدر من المرارة فقد كان استعداده للفرح ونزوعه إلى الجوانب المضيفة الباسمة من الحياة لا يقلان عما نجد في عمر وأب نواس ففيه ما فيهما من القدرة على الاستمتاع العميق بمباهج الحياة وفيه ما فيهما من إشار للتفاؤل وعزوف عن العبوس والتشاؤم . فانك لا تجد في شعرهما قصيدة تفوق هذه القصيدة مرحا ونشاطا هذا مع أنهما كانا مبصرين وهو كفيف وكانا وسيمين وهو دميم وكانا محبين معززين وهو مبغوض محقر . فليذكر القارىء مرة أخرى في ذلك الفقى الهندى الذى قصصت قصته . . .

خشوع

ياليتى تزدد نكرا من حب من أحبيت بكرا
حوراء إن نظرت اليك لك سقتك بالعينين خمرًا

وكان رجع حديثها قطع الرياض كسين زهرا
 وكان تحت لسانها هاروت ينفث فيه سحرا
 وتخال ما جمعت عليه ثيابها ذهباً وعطرا
 وكانها برد الشرا ب صفا ووافق منك فطرا
 جنينة إنسية أو بين ذاك أجل أمرا
 وكفاك أنى لم أحط بشكاة من أحبت خبرا
 إلا مقالة زائر نثرت لى الأحزان نثرا
 متخشعا تحت الهوى عشراً وتحت الموت عشرا

بهذه القصيدة نعود إلى تأمل حب بشار للنساء : أكان شهوة
 جسمية محضة ؟ .

هذه قصيدة أخرى تنفي ذلك. فليلاحظ القارىء مرة أخرى أنى
 لا أدعى أن بشاراً أحب حباً أفلاطونياً، لا أدعى ذلك الآن وما ادعيته
 قط ، فلا شك أن عاطفته في هذه القصيدة تقوم على الأحساس الشديد
 بالجمال الجسدى للمرأة، ولكن أليس هذا هو شأن كل حب من الرجل
 للمرأة مهما يكن سموه وتحليقه ؟ بلى ، إن كنا ممن يخلصون التفكير
 ويصرون على نزاهة الحكم ، ولم ننخدع بما قد يدعيه البعض من
 استطاعتهم تمثيل الجمال المثالى المجرد . فالحب الأفلاطونى نفسه لا بد أن
 ينشأ عن جمال جسمانى يجده صاحبه فى المرأة أو يظنه فيها ، ثم يتسامى
 فى نظرته إليه حتى يستجلى فى صورته المادية انعكاساً من المثل الذى
 يؤمن به . فالمثل الأفلاطونية قد يكون لها وجود حقيقى قائم بذاته

في عالم آخر، ولـكننا معشر البشر لا نستطيع إدراكها إلا إذا تجسست
لنا في شكل حسي، والذي يدعى القدرة على الإدراك التجريدي يخدع
نفسه ويخدع غيره.

فلنبحث الآن في هذا الحب الأفلاطوني، أله وجود في واقع الحياة؟
أهناك من يقتصرون في نظرهم إلى محبوتهم على الاستمتاع الروحي
المجرد لا ييغون متعة سواه؟ إن ألجأ إلى ما يلجأ إليه البعض من الإنكار
التام لوجود هذا النوع من الحب أو التكذيب البات لكل من يدعيه،
فانه ربما يوجد، ولـكن وجوده مقصور على فترة من الميوعة العاطفية
يمر بها الفتى في بدء تفتحه العاطفي، ثم يخلص منها حين يتم نضجه، فان
بقي فيها سائر حياته فهو من الشواذ الذين يحدث لهم اضطراب جسمي
أو عقلي يعوق تطورهم ويبقيهم في مرحلة ينتقل منها معظم الناس،
وهؤلاء قلة خرجت على القاعدة الطبيعية فهم لا يقاس عليهم ولا
يستمد من سلوكهم حكم يطبق على سائر الناس أو مثال يطالبون
بمحاكاته.

فالحق أن معظم جنسنا البشري يستلزم الاستمتاع الجسمي ويقوم
على أساسه. ولـكن ليس معنى هذا أنه يبقى في جميع الناس محدودا في
هذه المتعة الجنسية، فان بعضنا يستطيع أن يتخذها بداية للنشوة أعلى
ومراقبة يصعد عليها إلى أفق أسمى. وهكذا كان حب بشار بلا مرأى،
يبدأ بالجسد ثم يتسامى إلى الروح. ونقادنا الذين رأوا افتتانهم بالجمال
الجسماني فحكموا بأنه لا يعرف إلا النزوع الحيواني وقعوا في خطأ بدائي
فخواه أن كل من افتتن بالجسد لا يستطيع الاقتتان بالروح، وكل من

تطلب متعة الجسد ينصرف عن نشوة الوجدان، فهم في الحقيقة يقسمون الحب قسمين لا يرون لهما ثالثاً : أما الحب المادى وأما الحب المثالى، وهو خطأ قد تغفره للفتيان في فترة تهوسهم الخيالى ولكن لا نسامحه في نقاد ناضجين حصيفي التفكير صادقى الملاحظة لحقائق الحياة .

عد الآن إلى القصيدة وتأمل أولاً رقتها البالغة ، بألفاظها وأنغامها ووزنها ورويتها ، أكانت هذه الرقة تتحقق لرجل ليست المرأة عنده إلا أنثى يصبو جسد الرجل إلى جسدها ، وأداه يرضى بها غريزته ، أم هي رقة « ليس يحتاج الشاعر إلا لأن يكون « حيواناً ، ذكياً » نثنأنى له ؟ أيمن أن تكون رقة صناعية متكلفة يستطيعها أى صناع حاذق فلا تدل على حنين صادق وشوق مخلص ؟

ثم تدبر وصف بشار لهذه الفتاة ، انظر أولاً وصفه لها بأنها « بكر » وما يشيعه هذا اللفظ في القصيدة كلها من معانى البراءة والطهر ، والوداعة والحياء ، التى تقرنها أذهاننا بالعدراء ، وهى لفظة تتخذها جميع الآداب التى نعرفها رمزاً لهذه المعانى ، فان قرنها أحدنا بالأفحاش والاعتصاب فهذا إثمهم هو لا إثم بشار فى هذه القصيدة ، أو هو ظل الرائية الأخرى لا يزال يفسد عليه نظره فى غزل بشار ، فليس فى باقى القصيدة كلمة واحدة تعززه .

وهذه اللفظة تعطيك مفتاح هذه القصيدة ، فشعور بشار فيها نحو الفتاة شعور إجلال يصل حد الرهبة والخشوع ، خشوع البشر أمام السر الألهى المحجب .

ثم يصفها بشار وصفا يستمد من أسلوب المبصرين :

حوراء أن نظرت اليـك سقتك بالعينين خمرًا
ولكنه سرعان ما يعتمد إلى وصف ناحية من جمالها يعرفها حق
المعرفة ، جمال صوتها وفتنة حديثها :

وكان رجع حديثها قطع الرياض كسين زهرا

وكان تحت لسانها هاروت ينفث فيه سحرا

والذي يقول هذا الشعر الجميل قد شغف حقًا بصوتها الجميل وحديثها
الفان . والذي يفتنه في المرأة حديثها ليس حيوانا همه الأشباع الجسمي .
وليس هذان البيتان هما كل ما قال بشار في وصف شغفه بالحديث ،
فه في هذا المعنى أشعار كثيرة جمعها نقادنا المحدثون فلا تحتاج هنا إلى
الاستشهاد بها ، والعجيب أنهم حين يجمعونها لا يلتفتون إلى المغزى
الحقيقي لكثيرتها في شعره ، ولا إلى استحالة صدورهما من رجل يقولون
عنه أنك « لا تقرأ له بيتا واحدا [بيتا واحدا] يسمو به إلى إدراك
« النفس » الأثوية وما فيها من حلاوة صافية ورحمة سماوية وكنوز
عطف تغذى بها وجدان الرجل . فلم شغف بحديث المرأة كل هذا
الشغف وافتن إلى هذا الحد من الافتتان ؟

وليس أقطع في الدلالة على صدق افتتانه هذا من طريقته في
الوصف ، صحيح أن ثاني البيتين ليس إلا التشبيه التقليدي الذي لا يدل
بالضرورة على إعجاب صادق ، وإن كان لا يطعن بالضرورة في صدق

الإعجاب ، ولكن أولها يحتاج إلى نظر ملي ، فأسلوبه تام الابتكار
تام الجدة على الشعر العربي ، والشاعر الذي لا يكتفى بالتشبيه المعهود
بل يجهد نفسه في أن يعبر عن شعوره الشخصي تعبيرا شخصيا مستقلا
يدل على صدق العاطفة التي يدعيها ، وخصوصا إذا لاحظنا أن هذه
المحاولة تلجئه إلى أسلوب غريب لم يعهده سامعوه ، ولا يزال غريبا
على الكثيرين منا يرغم سيرورة شعره ، بل أحد نقادنا العظام يصعب
عليه فهمه فيذهب في تفسيره مذهبا لا يمكن أن يكون الشاعر قصده ،
نعني المازني حين يقول ^(١) عن هذا البيت : « وأولى به أن يكون تشبيها
لأنفاسها وطيبها ، وإن كان مقبولا بمعنى أن نسيم الرياح ينعش الجسم
ويحي النفس » .

فليس غرض بشار أن يصف أنفاسها وطيبها أي رائحة فمها حين
تتحدث ، وإنما غرضه أن يحدد الصفة السمعية المحضة لصوتها . أي
وقعه على الأذن ، أو قرع تموجات الصوت في الهواء لطبلة أذنه ، وما
لهذه التموجات من تكرر وأثر ينقطع ويستأنف ويستترسل برهة بعد
انتهاء الوقع الحسي ، وهذا يتضح لك أن تأملت كلمة « رجع » . فبشار
كان مفرط الحساسية بتأثير الصوت ، فلم يكن يسمع فيه نغمة واحدة
أو نغمتين إحداها عالية ، والأخرى منخفضة ، أو إحداها رقيقة والأخرى
ضخمة ، بل كان يسمع فيه أنغاما متجددة متناهية لا عدد لها ، لا يستطيع
المبصر تمييزها إحداها عن الأخرى اللهم إلا إذا كان موسيقيا موهوبا .

(١) صفحة ٦٨ من كتابه عن بشار في سلسلة أعلام الإسلام .

وغرابة وصفه أن يشبه رجوع الحديث بقطع الرياض المكسوة
بالزهر ، وهذه لا تسمع ، بل ترى ، فهو ينقل تأثيره العاطفي من حاسة
إلى حاسة ، والذي يدفعه إلى هذا هو أنه يحاول أن ينقل شعوره الدقيق
إلى المبصرين بلغة يفهمونها . والمفتاح إلى فهم محاولته هو كلمة «قطع» ،
فالرياض التي يختارها للتشبيه هي إذن قطع مختلفة الألوان ، لأن كلا
منها ينبت زهرا مختلفا ، فهو يقول للمبصرين : إن الأنغام المختلفة التي
أميزها في رجوع حديثها هي كالألوان المختلفة التي تراها عيونكم في
الرياض المزهرة . وشرحنا هذا ليس مجرد تخمين ، بل الدليل على
صحته يلمته الآخر :

وحديث كأنه قطع الروض ففيه الصفراء والحمراء .

فالأذن الموسيقية المرهفة يتتابع عليها رجوع الحديث فتميز فيه بين
عشرات الدرجات الصوتية ، كالعين المبصرة تميز بين عشرات الظلال
اللونية ، وبشار يخاطب أناسا معظمهم لا يستطيعون هذا التمييز المرهف
في درجات الصوت ، ولذلك يختار لهم تشبيها قد يفهمونه ، ولو أنه كان
يخاطب موسيقيا متخصصا لما احتاج إلى هذا التشبيه بل لفهم غرضه
مباشرة .

والعجيب أن الموسيقيين النابغين الذين نعرف سيرهم كانوا كثيرا
ما يخلطون بين حاسة السمع وحاسة البصر ، فيتخيلون للأنغام ألوانا
أو يرون الألوان فتستدعي إلى خيلتهم الموسيقية نغمة معينة ، وهذا
يستطيع علماء النفس تحليله بتداعي الخواطر واقتران نغمة معينة ولون

معين بتجربة واحدة فاذا تكررت التجربة استدعى أحدهما الآخر .
ولكن ما شأن بشار وهو لم ير ألوانا ؟ العلة هي أنه إن لم يكن
اللون الأحمر مثلا فانه سمع الكثير من وصف الناس له وحديثهم عنه
وشعورهم نحو الأشياء التي تتلون به ووصفهم لهذا الشعور في نثرهم
وشعرهم ، فكون لنفسه من هذه الأوصاف « كنها » خاصا للون
الأحمر ، حين تفرع أذنه نغمة يجدها بقريحته الموسيقية الحساسة تثير
فيه عواطف مشابهة فطبعي أن يربط بينها وبين اللون الأحمر . ولابد
لنا في متابعة هذا كله أن نتذكر ما تدل عليه أخباره من أنه كان شديد
الشغف بالموسيقى والغناء ، بل يقولون أنه « كان صاحب صوت حسن » ،
ومعنى هذا بالطبع أنه كان كثيرا ما يلجأ إلى التغنى في مجالسه السعيدة
ولا يكتفى بالتكلم أو الانشاد^(١) . فاذا ضمنا هذا إلى تأثيره الشديد بجمال
صوت المتحدثات والمغنيات فقد يحق لنا أن نستنبط أنه لو أتاحت له
فرصة التعليم والتدرب منذ صباه لكان موسيقيا متخصصا . فهذا إذن
تفسير قرنه بين الانغام والألوان ، وبينه العجيب الرائع :

وإذا دخلت تقنعي بالحر ، إن الحسن أحمر !

يذكرني بما روى لي عن ذلك الموسيقى الانجائزي المكفوف الذي
ذكرته سابقا ، فقد قص على أصدقائه أنه كان يجلس إلى البيانو
فيقول لهم : تظنون أنني لا أعرف الألوان التي تتحدثون عنها ! هذا

(١) أضيف إلى هذا أن مخطوطة كتاب طبقات ابن المعتز التي صورها ونشرها
عباس إقبال نجد فيها هذه الجملة « وكان مغننا بارعا » ويغلب على ظني أنه تحريف
صحته « وكان مغنيا بارعا » .

هو اللون الأحمر — ثم يوقع على أصابع البيانو لحنا خاصا . وهذا هو اللون الأزرق — ثم يوقع لحنا آخر ، وهكذا .

فبشار لم يقصد وصف رائحة أنفاسها وتشبيهها بنسيم الرياض في الطيب أو الانعاش ، وإنما يريد أن يصور للناس اللذة السمعية التي يجدها في الاستماع إلى صوتها ذى الانغام المتعددة الدقيقة ، فليجأ إلى تشبيهه يستطيعون أن يفهموه فشبه تعدد هذه الانغام بتعدد الألوان والظلال التي يرونها بعيونهم ويصفونها في حديثهم وأدهم الشعري والنثري ، ولكن الذى نقصد إليه من هذا الاستطراد هو إثبات صدق عاطفته ، فان الشاعر الذى يلجأ إلى هذا الوصف الغريب محتوم أن يكون صادقا فى الشعور الذى يدعيه ، وهو افتتانه الخالص بحديث المرأة ، والذى يشغف بالحديث هذا الشغف لا يكون احساسه نحوها مجرد احساس الحيوان الذكر نحو أنثاه . على أن بشارا فى البيت القادم :

وتخال ما جمعت عليه ثيابها ذهبيا وعطرا

يعطى الدليل الأعظم على أن انفعاله أمام جمال المرأة لم يكن مجرد الشبق الجسمي ، بل هو هنا يمتزج بالخشوع والرهبة ، فالرهبة والخشوع خير وصف للشعور فى هذا البيت . يفكر بشار فى جمال جسمها ، هذا ما نسلم به ، لا ندعى أنه يفكر فى جمال روحها ، ولكن إذا به هذا الجمال الجسمي سر خفي مرهوب يخشع له ويقشعر حين يفكر فيه كما يقشعر العابد إذ يدنو من محراب إلهه الذى يعبده ، وهذه القشعريرة تكاد تحس بها احساسا جسميا إذا تأملت رمزه « ما جمعت عليه ثيابها » . لا يقول جسمها ، ولا يقول أعضائها كذا وكذا ، بل ليس يقول

جمالها ، بل يرمز إليه بهذا الرمز المبهم ، ما جمعت عليه ثيابها . فالذى جمعت عليه ثيابها شيء نفيس محجب لا يكتنه سره المستخفي ، ولكن يصل منه إشاعات تم عليه ، فهو شيء وهاج متألق له بريق الذهب يكاد سناه يذهب بالأبصار ، وله شذى أرج شديد الفعل بالعقل يشير في رأسه دواراً ، ولأمر ما يحرقون في محارب العباداة أنواع العطور ، ويوقدون الشموع والنجف ذات الضوء المتقطع المهتز ، حتى في عصرنا الكهر بائي يؤثرونها على المصابيح الكهر بائية ذات الضوء الثابت ، واضطراب بشار ودواره تحس به أيضاً في قوله « تخال » فهو لا يدرك تماماً حقيقة انفعاله وإنما هذا ما يخاله . وتشبيهاه نجد أحدهما مرة أخرى مستمداً من أسلوب المبصرين ولكن ثانيهما شيء هو به حد خبير .

ثم تأمل قوله :

وكانها برد الشرا ب صفا ووافق منك فطرا

فلنفكر ملياً في هذا الشعور الذى يصفه ، أى شعور هو ؟

تكون شديد العطش بعد يوم طويل مرهق من أيام الصوم . ثم يقبل إليك قدح من الماء البارد السائغ الشهى ، فتشربه فيروى غلتك . فأى شعور تشعر به ؟ لا شك أن أول ما تشعر به هو الارضاء الجسمي ، كنت تشعر بألم جسمي من فرط عطشك ، فقد انتهى الآن هذا الألم وأعقبته لذة الرى ومتمعة الراحة الجسمية . ولكن أهذا كل شيء ؟ بل يتبع ارتياحك الجسمي ارتياح نفسي عجيب ، تهدأ وتقر وتحس بالرضى والبشر وتبتسم للناس والحياة ثم تنتعش روحك وتخالطها

الآريحية وتحس بنشوة من الاستبشار نسميها السعادة . هذا هو الشعور
الذي يصفه نحو محبوبته ، يبدأ بأن يكون إرضاء جسميا وينتهي بأن
يكون نشوة روحية .

وهذا هو الشأن في كل المتع الروحية التي نستطيعها نحن أبناء آدم،
حتى النشوة الفنية الصافية تبدأ باستمتاع حسي تستمتع به أذننا بكلمات
أو أنغام جميلة الوقع على الأذن أو تستمتع به عيننا بألوان وأجرام
جميلة الوقع على العين. بل هذا هو الشأن في النشوة الدينية تبدأ بالطرب
الحسي من تنعيم القرآن المعجز أو حلاوة ترنيم الأناجيل والمزامير
أو شجي ألحان الأوغرن أو الدفوف أو شذى عطر الأعواد والبخور.
ذلك أقصى ما نستطيع معشر البشر فليقل أنصار الحب. الأفلاطوني
ما يقولون .

فإن بقي عندك شك في سمو عاطفة بشار فاستمع إلى هذا البيت :

جنينة أنسية أو بين ذاك أجل أمرا

أفقائله لا يرى في المرأة إلا « أداة يرضى بها غريزته » ؟ أم هو
لا يحتاج « إلا لأن يكون حيوانا ذكيا » ؟ أم هو رجل لا يدرك ما في
النفس الأنثوية « من حلاوة صافية ورحمة سماوية » ؟ ما معناه ؟ هي
شيء عجيب محير لا يستطيع أن يفهمه ، والشيء الوحيد الذي يثق به
هو أنها ليست مجرد مخلوق بشري . أفجنينة هي ؟ ولكن لاشك أن لها
جسم الإنس وصفات الإنس . أم تراها نصف إنسي ونصف جنى ؟
أم تراها شيئا سوى هذا كله ، مخلوقا آخر من جنس مختلف تماما ،

لا هو بالأنس ولا هو بالجن ، بل يشبه كلا منهما في بعض صفاته ،
ولكنه يفوقهما تماما ويعلو عليهما معا ؟

X الذى يشعر بهذا الشعور نحو المرأة لا يمكن أن يكون اقتصر على
أن يفهم « الأثني الجسد » فهما حيوانيا ، بل لا يمكن أن يكون اقتصر
على بشريتها ، إنما تجلى له فيها مغزى يبدأ بالبشرية ويتصعد بها ، مغزى
علوى ، مغزى إلهى .

أما الأبيات الثلاثة الأخيرة فيقص فيها بشار قصة هذه القصيدة ،
وهي أنه انتظر محبوبته في ليلة واعدته عليها ، ولما لم تأت ، ثم
أرسلت إليه جاريتها تعتذر إليه بمرضها ، فقضى زمنا يتنازعه ألمان ، تارة
يتأجج شوقا وحرمانا وتارة يكاد يقتله الخوف عليها لما بلغه عنها من
مرض سمع به ولا يعرف كنهه أو مقدار خطورته . والذى لا يرى في
هذه الأبيات حرقه صادقة غير مدعاة قد صمم على ألا يرى ببشار
لونا واحداً من الصدق :

وكفاك أنى لم أحط	بشكاة من أحبيت خبرا
إلا مقالة زائر	نثرت لى الأحزان نثرا
متخشعا تحت الهوى	عشرا وتحت الموت عشرا

أيها الساقيان صُبا شرابى !

كل هذه قصائد جميلة مطربة ، وهي وحدها كافية أن تنزله في الشعر
العربي منزلا رفيعا ، ولكن أجمل شعره عندي ، وأشدّه جميعا تأثيرا فيّ ،

هو أبياته الفائقة الشجيرة ، وددت لو كتبتها بماء الذهب إن كان في هذا
إكرام للشعر :

أيها الساقيان صبا شرابي واسقياني من ريق بيضاء رود
ان دائي الظما ! وان دوائى شربة من رضاب ثغر برود
ولها مضحك كسخر الأقا حى وحديث كالوشى وشى البرود
نزلت في السواد من حبة القلـ ب ونالت زيادة المستزيد
ثم قالت : نلقاك بعد ليال والليالى يبلين كل جديد
عندها الصبر عن لقائى وعندى زفرات يا كن قلب الحديد

لعلامتنا الجليل الأستاذ أحمد أمين مقالة طريفة (١) يشرح فيها
الرأى القائل بأن الذوق لا يعمل ، فيروى من أدلة أصحابه أن «الناظر
ينظر إلى الصورة فيستجملها أو يستقبحها ، فإن أنت سألته : لم استجملها
أو لم استقبحها ؟ لم يحرجوا ، وإذا أجاب أجاب بكلمات منمقة ،
ولكنها جوفاء ، لا تحوى علة ولا توضح سببا ، وإنما هي نفس الدعوى
بألفاظ رشيقة جميلة ، وإذا رأيت طاقة من الزهر قلت : ما أجملها !
ولكن ان سئلت : لم كانت جميلة ؟ قلت : إنها منسقة ، أنها بديعة
الألوان ، أن نفسى لترتاح إلى رؤيتها ، أنها لتسر النظر وتبهر العقل ،
وأنت غنى عن أن أقول لك أن هذه ألفاظ وجل قد ترضى البلاغة ،
ولكن لا ترضى المنطق... لاشئ في الحقيقة إلا الذوق الذى لا يعمل ،
وهذا هو الشأن في الأدب ، وأظهر مثل لذلك ما فعله عبد القاهر

(١) مقالة « كيف يرقى الأدب » في الجزء الأول من فيض الخاطر

الجر جاني في أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز ، فماذا صنع ؟ أنه يأتي بالبيت الجميل ثم يقف ويتساءل : فيم كان جماله ؟ فما هو إلا أن يصوغ لك جملاً رشيقة ، فيقول : أن هذا اللفظ يروقك ويؤنسك . وغيره يثقل عليك ويوحشك ، وهذا الوضع يهرك جماله . وهذا النظم يأخذ بلبك ما فيه من نسج وصياغة ، ووشى وتحبير

ثم يمضى في تفنيد هذا الرأي وإن سلم بأن فيه شية من الحق ، ويقول أنه إن كان الفن نتيجة الذوق لا محالة ، فإن الذوق يمكن تربيته وترقيته . وتفنيده صحيح ، وادعائه عن إمكان تربية الذوق وترقيته مصيب ، للأسباب التي يذكرها ، ولأنه ليس من الحق أن يقال أن كل بضاعة الناقد الأدبي أن يقول ما أجمل وما أروع ، أو أن هذا ليروقى ويؤنسنى ، وأن هذا ليبهرنى جماله . بل في استطاعته — إن كان ناقدًا مجرباً — أن ينجح في اقناع قارئه بوسائل في التحليل عملية ، ونصائح وإرشادات إذا اتبعها قارئه وكان ذا استعداد فطرى حسن انتهى إلى أن يرى في الشعر المدرّوس نفس الجمال الذي يدعيه الناقد .

كل هذا صحيح ، ولكنني أعود فأقول : أن في الأدب قطعاً معجزة الجمال ، يأتي إليها الناقد فينبهر ، فإن حاول التحليل ، جمالها كان أقصى حيلته الادعاء الذي لا يقوم عليه تدليل ، وكان أقصى أمله أن يشير في القارئ نفس الحالة العاطفية التي تخالجه ، بأن يسهب في وصفها فلعل انبهاره تنتقل عدواه إلى القارئ .

فها نذا أجد نفسى في نظير هذا الموقف ، لا أدري ماذا أقول لأشرح

للقارىء مبلغ تأثير هذه الآيات فيّ ، وعزائي الوحيد أن أرى من نقاد الأدب ، عربيه وغربيه ، من هم أعظم منى مكانة وأرسخ قدما ، يجدون أنفسهم بين الفينة والفينة في مثل هذا المأزق العسر ، حين تجبهم معجزات الأدب بأنهم روعتها فيصعقون ولا يستطيعون كلاما «يرضى المنطق» .

ما ذا أقول ؟ هل أتحدث عن رقة الألفاظ وعذوبتها ، أو عن ماني التنعيم من حنان وإشجاء ، أو عن ملامة بحر الخفيف ، بهدوئه وجلاله ، لهذا الحزن الهادي . الجليل الذي يملك الشاعر ، لا ثورة فيه ولا سخط ، بل أسي وجداني وشجن وديع شديد التأثير في القلب .

كل هذا صحيح ، ولكنه بأجمعه لا يكفي في تحليل مقدار الشجي الذي تبتعثه هذه القصيدة ، فهذا «المقدار» أعظم بكثير مما يبدو أن هذه الألفاظ اللغوية المألوفة حقيقة بابتعائه . فأننا أكتفى بأن أنبه القارىء إلى أن هذه المقطوعة أشد شعر بشار احتياجا إلى الغناء . فقرامتها لا تكفي أبداً ، بل يجب وجوبا أن يتغنى فيها ، وما أظن أسبوعا يمر بي إلا حاولت ذلك وتمنيت لو كان الله وهبني صوتا جميلا من أجلها ، وتمنيت لو استكشفتها بعض مغنينا البارعين ، فغنوها بدلا من هذه الأغاني السخيفة السقيمة التي يفسدون بها أذواق الناس كل يوم ، فانهم سيجدون في هذه المقطوعة كل ما تشتهيهم أنفسهم من العاطفية والجوى والحرقة ، ولكنها عاطفية صحيحة لا مرض فيها ، وجوى سليم لا ميوعة فيه ولا سقم ، وحرقة صادقة لا كذب فيها ولا مبالغة ، ولقد هممت مرات بأن أكتب إلى أشجاءهم صوتا وأصدقهم نشوة فنية

أسأله غناءها وألحف في السؤال ، مشترطاً شرطاً واحداً : أن يكون تلحينه فيها بسيطاً إلى أقصى حد من البساطة ، عربياً خالص العربية لا شبة فيه من التقليد الأفرنجي أو « التجديد » المزعوم .

ولكن دعنا من هذا كله ، فلنتأمل هذا « الظمأ » ، الذي يتحدث عنه بشار والذي تنطق به القافات الثلاث في البيت الأول ، فتمثل لنا ما يحدث للعطشان من تحريك الحلق انتظاراً للشراب ، أو ما نسميه « بلع الريق » . أي ظمأ هذا ؟ .

أهو ظمأ إلى مجرد شراب مادي ، أم هو ظمأ إلى مجرد شراب بشري ؟ بل هو ظمأ روحاني رفيع ، وإن كان الشاعر لا يعبر عنه هذا التعبير . صحيح أن منشأه تعطشه إلى جمالها الجسمي ، إلى اللذة المادية لريقها البارد الشهي . وصحيح أن الشاعر يقول أن دواءه شربة من رضاها . ولكنه لا يقف عند اللذة المادية ، وهذا الدواء الذي يريده ليس إلا بدءاً للنشوة العليا التي سئلته . وإلا فتأمل في كل بيت من أبيات المقطوعة يلي البيتين الأولين ، تجده لا يريد تقييلها فقط ، بل يريد أيضاً أن يستمع إلى ضحكها ، وأن تداعب أذنه نغمات حديثها ، وهو هنا ينقل إحساس السمع ، لا إلى إحساس البصر كما فعل سابقاً ، بل إلى إحساس اللمس ، فيجد هذه النغمات على مسمعه نعومة ودقة وإرهافاً يكاد يكون ملوساً كوشى البرود حين تتحسس أطراف الأصابع (١) . ثم تأمل في نزولها في السواد من حبة قلبه ، ونيلها زيادة المستزيد .

(١) وهذا ما يفعله كبار الموسيقيين أيضاً ، يجدون للانغام ملمساً ويمثلون في الألحان المختلفة درجات مختلفة من النعومة والملاسة أو المتانة والسمك أو الأحجام المستديرة والمربعة والمثلثة .

فالذي يتأمل بيته الرابع يقطع بصدقه ، فهذه اللهجة الحارة الشجية « نزلت في السواد من حبة القلب » ، وهذا التعبير الدقيق « السواد من حبة القلب » ، وهذه النجوى الواهية « ونالت زيادة المستزيد » ترن أنغامها بالصدق . أما لهفته ونفاد صبره في البيت الخامس ، وزفراته اللائي يأكلن قلب الحديد في البيت الأخير ، فهي أعظم بكثير مما تستدعيه رغبة جسمانية محضة .

وهاتان هما الحقيقةتان اللتان لا أظن فيهما مجالا للشك . للقارىء أن ينزل الآيات منزلة في الشعر دون ما أدعى لها ، وأنا أدعى لها الذروة العليا التي لا منطلق بعدها ، فالخلاف في قدر الأجادة مشروع في النقد وربما تتحكم فيه عوامل شخصية لا يمكن التجادل فيها . ولكن ما أظن ناقدًا منصفًا يستطيع أن ينكر هاتين الحقيقةتين : أن اللهفة في هذه الآيات تامة الصدق ، وأنها لهفة تعلو كثيرا على اللهفة المادية . فهذه القصيدة وحدها أستطيع أن أواجه نقادنا الذين يهتمون بشارا بالنفاق والكذب في كل شعره ، ويصفونه بالتكلف في كل شعور يدعيه ، وينسكرون أن يوجد في شعره الهام أو حنين أو أشواق أو بدوات أو خيال ، ويدعون أن كل صبوته صبوة الجسد إلى الجسد ، فان لم نجد في هذه الآيات نعمة ساحرة ترتفع بالنفس إلى عالم الأحلام والأشواق وتسبح بها في فراديس الأفراح والأشجان فلنستأنف التأمل فيها ، ولنعدده كرة بعد كرة ، ولنتغن بها يوما بعد يوم وشهرا بعد شهر ، ولننعش مع قائلها ولنفتح له قلوبنا ولا نغلقها دونه ، ولنسمح لشجنه وحنينه بأن يتغلغل إلى السواد من حياتها ولا نقم في سبيله العراقيين

والحواجز : ثم لننظر ماذا نرى ، فان ظللنا على رأينا فيها من الانتقاص فقد يكون لرأينا بعد هذه المحاولة المخلصة قيمة ، أما قبلها فلا . فالسبيل الواحدة إلى التقدير الفنى الصحيح أن تبذل جهدك فى المشاركة العاطفية ، فان لم تفعل فليس بمستغرب ألا تجد جمالا فى أى عمل فنى ، قصيدة كان أو صورة ، أو قطعة موسيقية أو تصويرا منحوتا .

على أنه لا يزال بيدى وسيلة فى الأقناع الجأ الآن إليها ، وهى وسيلة كثيرا ما تكون فى النقد الأدبى خير الوسائل ، بل يدعى البعض أنها دائما خير الوسائل ، وهى المقارنة . فلعلها تقدم إلى القارىء معونة عظيمة فى تكوين رأيه الخاص عن قصيدة بشار . فأسوق إليه قطعة من أروع الشعر الانجليزى وأشهره . ثم أتأمل فى مقدار اتفاقها مع قصيدتنا العربية ومقدار اختلافها عنها . وهى القطعة الآتية للشاعر الاليزابيثى المعروف بن جونسون Ben Jonson :

Drink to me only with thine eyes,
And I will pledge with mine;
Or leave a kiss but in the cup
And I'll not look for wine.
The thirst that from the soul doth rise
Doth ask a drink divine;
But might I of Jove's nectar sup,
I would not change for thine.

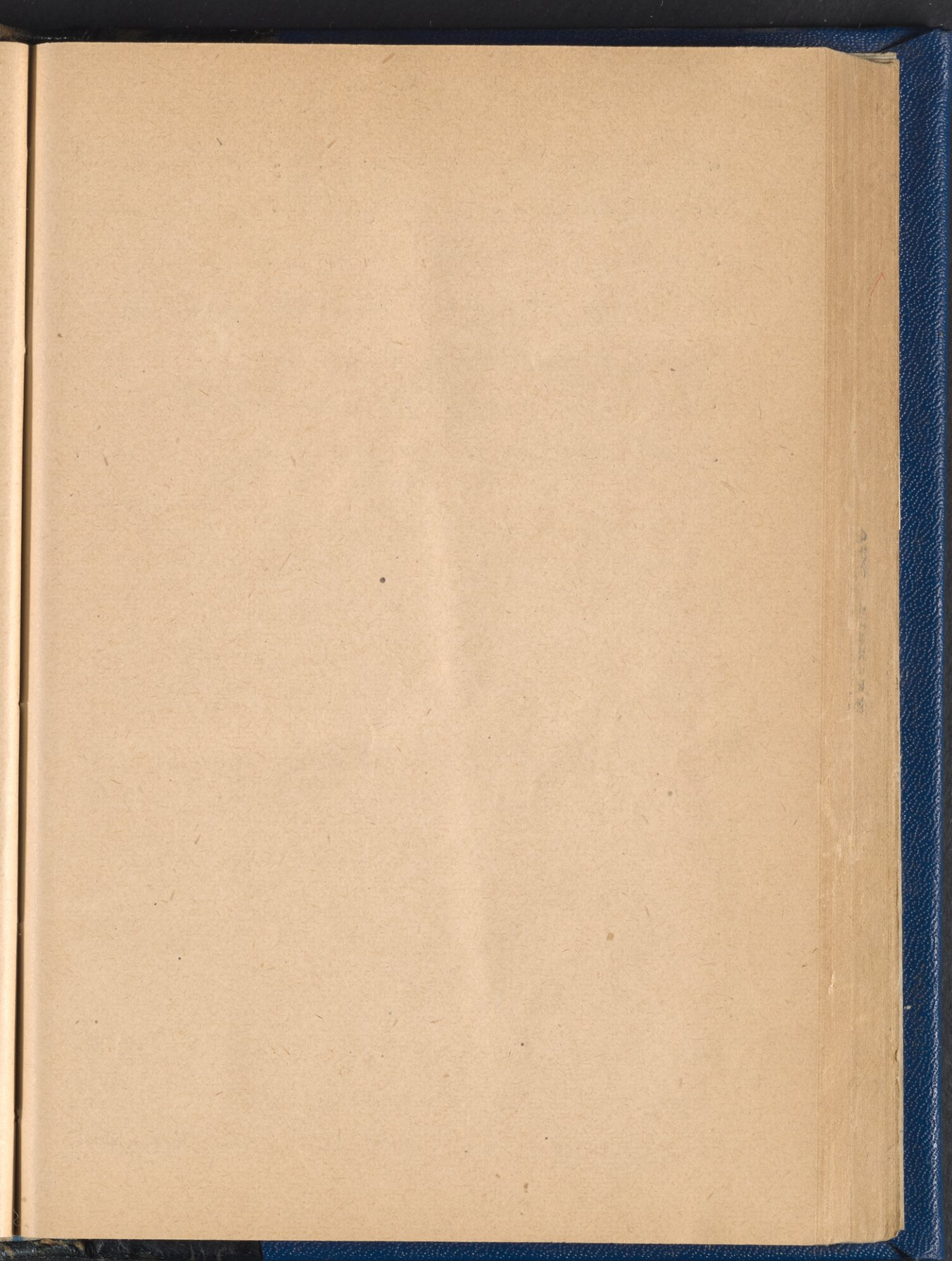
كلما تذكرت أبيات بشار تذكرتها ، وكلما أحزنتنى أن مقطوعة بشار لم يتغن فيها أحد كبار مغنينا تعزيت بأن زميلاتها الانجليزى قد

وضعت فيها بضعة من أعذب الألحان . وهذه ترجمتي المتهافة لتلك
المقطوعة الفائقة :

بعينيك اشربى نخبي أعاهدك بعينيا
ذرى لى قبلة فى الكأ س تكفى عطشى ريا
فإن الظمأ الروحى يبغى الشرب روحيا
ولو أنى رشفت الرا ح من ربى الهيا
لما استبدلت من ذاك ال طلا القدسى لإنسيا

هذا إذن هو السبب الذى يدفع بالشاعر إلى طلب الرى الإنسانى .
هو فى الحقيقة يريد النشوة الإلهية ، ولكن أنى للبشر بها إلا عن سبيل
النشوة الانسية ؟ ولذلك يريد أن يستمتع بالنظر إلى عينيها الساحرتين
ويتذوق ريقها الحلو ، فهذا مسلكه إلى الانتشاء الروحى ، لا يجذسواه .
لاشك أن المقطوعة الانجلازية أتم تعبيرا وأقوى تصريحا ،
فالشاعر يصرح بتعبيرات « ظمأ الروح » ، و « رى الروح » . ولكن
هذا هو كل الفرق ، وهو بعد فرق أسلوبى سطحى ، أما الفكرة الكامنة
فهى هى والعاطفة المختزنة هى هى ، فإن لم تجد بشارا يستعمل هذه
التعبيرات فلا يصرفك هذا عن تعمق فكرته الحقيقية التى يودعها كل
بيت من أبياته الستة ، فانما منعه من مثل ذلك التعبير المحدد أنه لم يكن
معروفا فى تاريخ الشعر العربى إلى عصره . فلا تحسبن أن وجه المشابهة
بين الشاعرين يقتصر على أن كلا منهما يرفض الخمر ويطلب قبلة الجبيلة ،
فإن الشعور الذى يضمّنه بشار هذه الكلمة الواحدة : « الظما » هو هو

الذى يطنب الشاعر الإنجليزي في وصفه بيت كامل : « الظمأ الذى
يتصاعد من الروح ، . بهما نفس الداء وهما يلتهمسان نفس الدواء ،
ولا يريان اليه وصولاً إلا عن سبيل قبلة الحبسية . فان كان بن جونسون
يريد إلى جانب هذه القبلة أن ينظر إلى عينيها ، فان بشارا يريد أن
يسمع ضحكاتها وحديثها . وإن كان الشاعر الإنجليزي يصرح في بيتيه
الآخرين بأنه لو وجد سبيلاً إلى الخمر الإلهية لما احتاج إلى قبلتها ،
والشاعر العربى لا يقول شيئاً من هذا ، فلاحظ اختلاف العصرين
والثقافتين .



النهاية

وداع الغزل؛ ووداع الحياة

هذا — أيها القارىء — هو الشاعر الذى قالوا عنه أنه لا ينظم الشعر إلا تكلفا ومعاينة ، وإن ما بشعره من رقة لا يمكن أنكارها إنما هى رقة تصنعها تصنعا وكان غرضه منها لا أن يعبر عن حنين صادق فى قلبه ، بل أن يسهل رواية شعره على الألسنة حتى يذيع ويعم فساداه . على أن الدليل النهائى على مكانة الغزل من نفس بشار هو مبالغ حزنه حين نهائى المهدي عن إدخاله فى شعره . فلو كان لا ينظم الغزل إلا للهو والتعابث أو لما آرب عملية لما حزن كل ذلك الحزن وتفجع إلى تلك الدرجة من التفجع حين منع منه ، فحسرتة هذه تدل على أن الغزل كان له متنفسا صادقا عن حاجة نفسية ملحة غالبة .

والقارىء الذى درس ما مضى من قصائد غزلية صادقة العاطفة قاهرة الإحساس ورآه يفرغ فيها خالص شعوره ويعبر بها عن ظمأ جسمه وروحه يستطيع أن يقدر وقع هذا النهى على نفسه . فالمهدي إذ حرمه الغزل إنما حرمه الحياة دون أن يدري ، ولعل هذا هو الذى حدا به إلى تقبل القتل برضى واستخفاف ، فأى خير بقى له فى الحياة ؛ وأى مطلب للشاعر الصادق الذى يحجز عن متنفس روحه وملاك وجدانه؟

وسندرس الآن قصائد خمساً يضمها جواه ولذعته ، وهي من آخر
القصائد التي نظمها في حياته ، نبدأ منها بهذه القصيدة الرائعة المشهورة :

يا منظراً حسناً رأيته	من وجه جارية فديته
بعثت إلى تسومني	برد الشباب وقد طويته
والله رب محمد	ما إن غدرت ولا نويته
أمسكت عنك وربما	عرض البلاء وما ابتغيته
إن الخليفة قد أبي	وإذا أبي شيئاً أبيته
ومخضب رخص البناء	ن بكى على وما بكيته
ويشوقني بيت الحبيد	ب إذا ادكرت وأين بيته
قام الخليفة دونه	فصبرت عنه وما قلبيته
ونهاى الملك الهما	م عن النسيب وما عصيته
لا بل وفيت فلم أضع	عهداً ولا وأياً وأيته
وأنا المظل على العدا	وإذا غلا علق شريته
أصني الخليل إذا دنا	وإذا نأى عنى نأيته

هذا حزن صادق يلتهب به كل بيت ، والقافية المذيلة بالهاء الساكنة
تختتم كل بيت بزفرة ملتاعة شديدة اللفح للقلوب ، والياء الساكنة
تصدر ما يشبه صرخة أليمة من صدر مجروح

يعتذر بشار إلى صديقه عن إمساكه عن زيارتها ويؤكد لها أنه اضطر
إليه ، ويقسم لها على ما نسلم له به دون حاجة إلى قسم منه : يقسم لها على
وفائه للأصدقاء وتنزله عن الغدر بلى عن مجرد العزم عليه . ويشرح
لها - ولنا - لم أطاع الخليفة . لم يطعه جنبنا ، فهما تسكر عيوب بشار

فليس الجبن أحدها ، والذي أفسد عليه حياته لم يكن الجبن بل الجرأة الزائدة يتحدى بها شعور الناس وعقائدهم طول حياته ، حتى جعل معظمهم أعداء له .

لم يطعه إذن خوفاً ، فهو الطويل التحدى للأعداء :

« وأنا المطبل على العدا ، »

فلم أطاعه ؟ :

لا ، بل وفيت ، فلم أضع عهداً ولا وأياً وأيته (١)

إنما أطاعه رعاية لحق الصداقة القديمة وأن يكن المهدي قد نسيها أو تناساها ، ووفاء لذكراها وإن يكن المهدي قد خانها . وهذا ادعاء من بشار لاشك عندي في صدقه ، فإن صح ادعاؤه وتصديقنا فهذا يزيد غدر المهدي قبحا ، وقد تكرر نفس الفصل مرة أخرى في تاريخ الأدب العربي حين غدر الأمين بصديقه القديم أبي نواس ، فخرم عليه شرب الخمر خوفاً من لوم الناس ، فقبل أبو نواس هذا التحريم لعين الدافع الذي وجدناه في بشار : وفاء للعهد القديم .

على أن الذي يؤلم بشاراً أشد الأيلام هو هجر المهدي إياه وأبعاده عن مجلسه وحرمانه صداقته بعد ما طال ما استمتع بها . وهذا يحمله على أن يقول في أنفة واستهانة تدلان في صميمهما على حسرة عظيمة :

(١) الوأى (بالواو ، وهى القراءة الصحيحة) الوعد والضمان .

... .. وإذا غلا علق شريكه (١)

أصفي الخليل إذا دنا وإذا نأى عنى نأيته

فإن كان برغم هذا قد عقد العزم على أن يطيع المهدي حفظاً
لواجب الصداقة القديمة فإنه يضاعف من روعته . والعجيب أن نقادنا
ينصرفون عن استكشاف هذا الوفاء حين يقفون — وقفات عابرة —
أمام القصيدة ، كما يتجاهلون حرارتها وصدق التبايعها ، فلا يرون فيها
إلا محاولة خبيثة من بشار في أن يعاود الغزل الذي نهى عنه ! فهذا كل
ما تفوز به من أحدهم (٢) :

« ونهاه الخليفة المهدي عن الغزل والتشبيب وحبسه قليلاً فأمسك
وهو كاره وخائف ولكنه كان لا يزال يحتمل في القول . تأمل هذه
الآيات (ثم يروي ستة أبيات من القصيدة ، لا يوردها كلها) وإذا
لم يكن هذا من الغزل الذي نهى عنه ، فلا ندري ماذا يكون
الغزل ؟ » .

والجواب : يكون الغزل قصيدة مماثلة للقصائد الماضية . فالحق
أن ليس في الآيات — إذا أحسنّا تأملها ولم تتأثر بالتفسير الشائع لها —
غزل بالمعنى الذي نعهده في بشار . فكل ما فيها ذكريات مؤلمة وتحسر
شديد على الحرمان الذي فرض عليه فكان شديد الوقع على نفسه .

(١) شري : باع . أي إذا تغالى على صديق بصداقته وظنّها أنفس مما أستحق

زهدت فيها .

(٢) المازني ص ٩٥ .

والقدماء يروون قصة تؤكد صدق عزم بشار حين يقول :
ونهاى الملك الهما م عن النسيب وما عصيته
وهى قصة وجدت نقادنا يميلون الإشارة إليها . فيروى صاحب
الآغانى (١) أنه لما نهاه المهدي عن الغزل :

« حضر بجاسا لصديق له يقال له عمرو بن سمان ، فقال له : أنشدنا
يا أبا معاذ شيئا من غزلك . فأنشأ يقول :

وقائل هات أسمعنا فقلت له أنا هم أنت يا عمرو بن سمان
أما سمعت بما قد شاع في مضر وفي الحليفتين من بكر وقحطان
قال الخليفة لا تنسب بجارية إياك إياك أن تشقى بعصيان ،

والقصيدة الثانية التى نظمها فى هذه الفترة هى القافية الجيدة التى
رويناها من قبل :

خليلي أن العسر سوف يفيق وإن يسارا فى غد خلّيق
وهى أيضا شديدة الحزن واضحة الصدق ، ومعظمها شكوى من قطع
المهدي عطاياه ورفضه أن يثيبه على مدائح ، ولكن حزنها لا يزال
مختلطا ببعض الأمل لم ينته إلى اليأس التام ، وفيها نرى ظاهرة جديدة فى
حياة بشار وفى شعره ، وهى إقباله على شرب الخمر بإسراف ، يحاول أن
يعرق فيها أحزانه :

ذرائى أشب همى براح فإتنى أرى الدهر فيه فرجة ومضيق
وما كنت الا كالزمان اذا صحا صحوت وان ماق الزمان أموق

فالآن اذ حمق زمانه يريد أن يحقق هو أيضا بالأمرا ففى السكر،
وهى ظاهرة سنزيدها تأملا فى القصيدة القادمة .

أما هذه القصيدة فخالية من الأمل وخداع النفس بالآمانى ، فيها
يتم استيلاء اليأس على نفس بشار ، وهى قصيدة عظيمة الأسى وصدق
عاطفتها أظهر من أن يحتاج الى تدليل . ولسكن اليأس قد انتهى بحزنها الى
الهدوء والتسليم :

يابن موسى ماذا يقول الامام فى فتاة بالقلب منها أُوام (١)
بت من حبها أوقر بالسكا س ويهفو على فؤادى الهيام (٢)
لم يكن بينها وبينى إلا كتب العاشقين والأحلام
يابن موسى اسقنى ودع عنك سلى إن سلى حى وفى احتشام
رب كأم كالسلسبيل تعلل ت بها والعيون عنى نيام
حبست للشرارة فى بيت رأس عتقت عانسا عليها الختام (٣)
نفحت نفحة فهزت ندى بنسيم وأنشق عنها الزكام

(١) الأوام : حر العطش .

(٢) أوقر . أسكن . ويلي هذا البيت بيت لانستطيع روايته

(٣) بيت رأس : اسم القرية التى صنعت فيها الحجر .

وكان المعلول منها إذا را ح شج في لسانه برسام (١)
 صدمته الشمول حتى بعينه به انكسار وفي المفاصل خام (٢)
 وهو باقى الأطراف حيث به الكأ س وماتت أوصاله والكلام
 وفقى يشرب المدامة بالمأ ل ويمشى يروم مالا يرام
 أنفدت كأسه الدنانير حتى ذهب العين واستمر السوام (٣)
 تركته الصهباء يرنو بعين نام إنسانها وليست تنام
 جن من شربة تعل بأخرى وبكى حين سار فيه المدام
 كان لى صاحباً فأودى به الده ر وفارقه ، عليه السلام
 بقى الناس بعد هلك نداما ى وقوعاً لم يشعروا ما الكلام (٤)
 كجزور الأيسار لا كبديف بها لباغ ولا عليها سنام
 يابن موسى فقد الحبيب على العي ن قذاة وفي الفؤاد سقام
 كيف يصفو لى النعيم وحيداً والاخلاء فى المقابر هام
 نفسهم على أم المنايا فأنامتهم بعنف ، فناموا (٥)
 لا يخض انسجام عيني عليهم إنما غاية الحزين السجام
 تأمل فى الأسى العميق المذعن الذى يتخللها ، وقد اختار لها بحر
 الخفيف ، ولعله أكثر البحور العربية ملاءمة لهذا الحزن اليائس الجليل،

(١) برسام : علة تسبب الهذيان .

(٢) خام : انخزال وضعف .

(٣) العين : الذهب . استمر : مضى كمر . السوام : الإبل الراعية . أى أنفق فيها ثمنه ثم ما يملك من الحيوان الراعى .

(٤) وقوعاً : سقطاً مهما لا قيمة له ولا غناء فيه . ما الكلام : لا ذكاهم ولا هم

حسن منطق وبيان ومسامرة .

(٥) نفسهم : حسرتهم

وهو البحر الذى اختاره أبو العلاء لداليته العظيمة ، غير مجد فى ملتي واعتقادى . ولقد يشتد به الحزن فيصيح : « فأنا متهم بعنف » ، فنظن أنه عائد إلى ثورته القديمة ، ولكنه سرعان ما يعود إلى التسليم والاذعان : « فنامول » . ويقلع عن عناده القديم فيكتفى بالبكاء ويجد فيه أقصى ما يستطيع أن يفعل : « إنما غاية الحزين السجام » .

ثم تأمل الآن هذه الظاهرة الجديدة فى حياته وفى شعره : يصف الخمر ويطيل فى وصف مجلسها وفعلها بالشاربين . والسبب واضح وقد ذكره هو ، فهو يلتمس فيها عزاء وسلوى عن مصائبه التى تكاثرت ، ويستعيض بوصفها عن الغزل الذى حجز عنه . كان بشار من قبل يشرب الخمر ويستلذها ، ولكن لم تكن تنزل من نفسه منزلة ممتازة ، ولم تكن إلا لذة واحدة من ضمن لذات متساوية ، أما الآن فهو يسرف فى شربها يبغي النسيان ، كما نرى كثيرين من المفجوعين يفعلون . وهو فى وصفه لها يأتى بهذا البيت الجميل نكاد نحس فيه بنشرها يهب على وجهها :

نفحت نفحة فهزت نديمي بنسيم وانشق عنها الزكام

استمع إلى اجتماع الحروف والتنغيم فى قوله : « نفحت نفحة » وقوله « نديمي بنسيم » .

وقول بشار : « إن سلبى حمى وفى احتشام » ، يرينا مرة أخرى أنه لم يترك الغزل خوفاً من المهدى بل رعاية للصدقة القديمة وتقدير الحرج موقفه . على أن الذى يضاعف من نكده فى هذه القصيدة أن القدر

اختار هذه الفترة الأليمة من حياته لينتزع منه نفرا من أعز أصدقائه إليه، يروون أن خمسة منهم ماتوا واحدا بعد واحد، وهو في حالة نفسية هو أحوج فيها إلى الأصدقاء منه في أية فترة مضت. ووصفه لحرقة على فقدهم عظيم الجمال شديد التأثير في نفوسنا. ويبدو أن اجتماع هذه المصائب عليه في وقت واحد هو الذي اضطره أخيرا إلى الأذعان، وهذا ما نراه في القصيدة التالية.

وهذه القصيدة هي أيضا عظيمة الحزن تامة اليأس: (١)

وأخ فجعته به وكان مؤملا	فمضى فتذكرك الحوادث ما مضى
ولقد جريت مع الصَّبِّ باطلق الصَّبِّا	ثم ارعويت فلم أجدلى مركضا
وعلمت ما علم امرؤ من دهره	فأطعت عاذلتى وأعطيت الرضى
فاشرب على تلف الأحبة أنسا	جزر المنية ظاعنين وخفضا
ما كل بارقة تجود بمائها	وكذاك لو صدق الربيع لروضا
ومنيقة شرفا جعلت لها الهوى	إما مكافأة وإما مقرضا
حتى إذا شربت بماء مودتى	وشربت برد رضاها متبرضا
قالت لتريها اذهبا فتحسسا	ما باله ترك السلام واعرضا
ويلي عليه وويلتى من بينه	كان المحب وكنت حبا فانقضى

قد ذقت ألفته وذقت فراقه فوجدت ذا عسلا وذا جمر الغضا
وروى الضاد يكسبها مضاضة شديدة ويجعل لحزنها مذاقا مريرا ،
وترى فيها اجتماع النكبات عليه ، من تحريم الغزل ، ووفاة الأصدقاء ،
وحرمان العطاء من المهدى يشير إليه في البيت الخامس ، فلا غرو أن
يقبل على الشرب بإسراف ، ولا غرو أن يقوده اليأس إلى الأذعان .
فهذا بشار الذى طال صخبه وضجيجيه ، وامتد تحديه وعناده ، ينتهى
إلى الرضوخ ، فيطيع العاذل ويعطى الرضى ، فقد أدرك بعد سبعين سنة
ما كان خليقا بأن يدركه من قبل : أن فردا واحدا لا يستطيع تحدى
المجتمع إلى الأبد :

وعلمت ما علم امرؤ من دهره فأطعت عاذلتى وأعطيت الرضى
أما أبياتها الخمسة الأخيرة فلا يظنها تحايلا على العودة إلى الغزل
إلا من لا يعرف غزل بشار أى شئ كان ، فهذه ذكريات مؤلمة تعاوده
على الرغم منه فلا يجد فيها لذة ولا إسعادا ، بل تزيد من تعسه وتوجعه ،
فأين هى من غزله القديم الطرب المرقص الذى رأيناه ...

* * *

ولكن ما كان بشار ليتمهى إلى الأذعان والتسليم إلا بعد صراع
عنيف مع نفسه ، تهم بالتمرد فيقمعها ، وتشور جامحة فيكبحها ، وهذا
الصراع العنيف نجده مصورا أدق تصوير فى القصيدة الفذة الآتية :
والله لولا رضى الخليفة ما أعطيت ضيما على فى شجن

وربما خير لابن آدم في الـ كره وشقى الهوى على البدن
 فاشرب على أُنْبة الزمان فما تلقى زمانا صفا من الابن (١)
 الله يعطيك من فواضله والمرء يغضى عينا على الكُمن (٢)
 قد عشت بين الريحان والراح والـ مزهر في ظل مجلس حسن
 وقد ملأت البلاد ما بين فُغـ فـور إلى القيروان فالين (٣)
 شعرا تصلى له العواتق والـ شيب صلاة الغواة للوثن (٤)
 ثم نهاني المهدي فأنصرفت نفسي ، صنيع الموفق اللقن
 فالحمد لله لا شريك له ليس بباق شيء على الزمن
 تأمل أولا في البحر الذي اختاره لها . هو المنسرح . أى نفس
 البحر الذي نظم فيه رائيته « قد لامني في خيلتي عمر ، وهذا من أقسى
 سخرية الأقدار .

فنفس الوزن الذي وجد بشار ضرباته المتقطعة ومقاطعه المضطربة
 ملائمة لما أراد التعبير عنه من خلاعة وتمايل متخنت ، يجده الآن
 بنفس الضربات والمقاطع ، ملائمة لاضطرابه الهائج ، وتزلزل صدره
 بين ثورة وكظم ، وتهدج صوته بين الغضب الذي يجيش به والصبر
 والهدوء الذي يرغب عليه نفسه .

(١) الأُنْبة : الشر والعيب .

(٢) الكُمن : ظلمة بالبصر ، أو جرب وحمرة فيه

(٣) فغفور : الصين

(٤) العاتق : الجارية أول ما أدركت والتي لم تتزوج . والثيب : المرأة التي دخل

بها زوجها أو ضد البكر .

لعل بحر المنسرح أشد البحور العربية اضطرابا ، وسبب ذلك
توالى مقاطعه القصيرة والطويلة بكيفية لا يكاد يكون فيها نظام .
فالعروضيون يقررون أن أصل البحر «مستفععلن مفعولات مستفععلن»
في كل شطر ، ولكنه لا يأتي على هذه الصورة التامة أبدا ، فعروضه
دائما مطوية (أى تتحول مستفععلن فيها إلى مفتعلن) ، وضربه دائما
مطوى أو مقطوع (أى تتحول مستفععلن فيه إلى مفتعلن أو مفعولن) .
أضف إلى ذلك أن «مفعولات» يكثر فيها الطي ، أى تتحول إلى
مفعلات ، والخاصة أننا إذا عبرنا عن المقطع القصير بعلامة «ب»
والمقطع الطويل بعلامة (—) يكون هذا هو القالب الذى يكثر
ورود الوزن فيه :

— ب — — ب — — ب — — ب — — ب — —

والذى يتأمل في توزيع هذه المقاطع لا يرى نظاما أو تناسقا في
تتابعها ، فليست منها مجموعة تتكرر فتكسب النغم اثلافا ، بل ينتقل
اللسان من أحدها إلى الآخر بما يكاد أن يكون حركات متنافرة
لا مجاوبة فيها ولا ترديد ، ولعل هذا هو السبب الذى يجعل الوزن
شديد الصعوبة علينا في عصرنا الحديث ، فليست أتذكر قصيدة واحدة
حديثه نظمت فيه ، وهو على أى حال يصعب علينا تقطيع أبياته تقطعا
صحيحا ويكثر فيه الخطأ . والقارىء الذى يقدر على النظم يستطيع أن
يحقق هذا بنفسه بأن يحاول أن ينظم فيه بضعة أبيات ، فإنه قد يستطيع
نظم البيتين أو الثلاثة ولكن أن زاد على هذا وجد صعوبة متزايدة
واختلاطا كبيرا .

وقد رأينا كيف لامت هذه المقاطع المضطربة ما كان يصوره
في الرائية من تثن خليع ومن سرور يكتمه ويتظاهر بدلامنه بالحزن .
فاقرأ الآن هذه القصيدة الجديدة بعناية وتأن وانظر كيف تصير كل
ضربة من ضربات هذا الوزن صرخة مجروحة وطعنة واخزة ، والسبب
أنه محتاج شديد الهياج ولكنه يكبح انفعاله بعنف فيخرج منه كل
مقطع كأنه زفرة مختزنة تنفجر على الرغم منه في حرارة كاوية أو كأنه
صرخة طال حبسه لها فهي تنطلق بحدة تطعن الصدر كالمديّة .

في البيت الأول :

والله لولا رضى الخليفة ما أعطيت ضيما على في شجن
يكبر بشار أنه لم يطع المهدي جبنا أو خنوعا للضم وإنما رغبة
في إرضاء صديقه القديم . وهو بيت شديد الضغن العظيم المرارة . انظر
كيف تتراوح عاطفته فيه بين نزوع إلى التمرد على الضم ، فليس بمن
اعتادوا على قبوله وليس بمن يرضون بالإيذاء دون احتجاج ، وبين
جهده في قمع ثورته وقبول الضم والشجن إرضاء للخليفة .

وفي البيت الثاني :

وربما خير لابن آدم في الـ كره وشق الهوى على البدن
هذا هو العزاء الوحيد الذى يستطيعه ، يريد أن يتعزى بمعنى
الآية السكرية « وعسى أن تسكرها شيئا وهو خير لكم وعسى أن
تحبوا شيئا وهو شر لكم » . ومن منا لم يلجأ في حياته أكثر من مرة إلى
هذه الآية الرائعة الجميلة يجد فيها عزاء الوحيد حين تشتد به مصائبه

فيعجز عن تغييرها ويعجز عجزا تاما عن فهم الحكمة فيها فلا يرى
لجروحه بلسم إلا التسليم التام بقضاء الله وإن ثقل عليه والقبول التام
لعدله وإن خفى عليه وجه العدل فيما ألم به .

ثم ينتهى بشار إلى اليأس المطلق في البيتين التاليين :

فاشرب على أبنة الزمان فما تلقى زمانا صفا من الابن
الله يعطيك من فواضله والمرء يغضى عينا على الكمن
يئس الآن يأساً نهائياً من الناس جميعا ، لم يبق له فيهم أمل ، فلم تعد
أمامه إلا وسيلتان يستعمل بعضنا إحداها حين يياسون ويستعمل
آخرون الأخرى ، ولكن بشارا في فداحة رزئه يستعملهما معا ،
يقبل على الخمر يحاول أن ينسى فيها شجنه ، ويقبل إلى الله ياتمس فضله
وكرمه ورحمته ، يرجو إن كان العرف قد ذهب من الناس فلن يذهب
من الله .

ثم فكرر في بشار يقضى سبعين سنة قبل أن يدرك هذه الحقيقة
البسيطة ، أن المرء لا يستطيع أن يظفر بمراذه في كل حال ، وأن مامن
زمان يخلو من الشر والأقذاء ، وأن كلا منا مضطر في أحوال كثيرة
إلى أن يقبل ما يكره ويدعن لما لا يستطيع تغييره . بشار الذى ظل
طول حياته شديد الشغب عظيم الأنفة يضطر الآن إلى قبول نصيبه
والأذعان لمقدوره . يدرك بعد طول العناد والتمرد أن فردا واحدا
بالغا ما بلغت قوة احتجاجه وشدة صخبه لن يستطيع مقاومة المجتمع
وتحدى الناس إلى الأبد ، فيرضخ ويدعن . وهذا سر ايلام هذين
البيتين ، فسواء أحببنا بشارا أم كرهناه ، وسواء أظننا أنه لقي جزاءه

العادل أم ظننا أنه لقي قسوة زائدة ، فإن من آلم التجارب علينا أن نرى عزيزا يذل ورجلا ذا إباء وشمم يضع أنفه في الرغام .

ثم تأمل هذا الأسلوب المجازي الذي اختاره بشار : « والمرء يغضى عينا على الكمن » ، ترى أله معنى أعمق مما أراد بشار ، معنى لم يدرك هو مغزاه الحقيقي ؟ أصار بشار أخيرا إلى قبول عاهته الطبيعية العظمى فيما يقبل الآن من نكبات ؟

ولكن هذا اليأس والأذعان لا يدومان طويلا حتى يعود بشار إلى التحسر ، فيضاعف من عذاب نفسه بتذكر ما استمتع به حتى الآن من حياة لاهية طليقة لم يثنه عنها عدل العاذلين ، وما تغنى به من غزل حر نفس به عن خباجات صدره ولم يكبحه عنه شكوى خصومه من استهتاره وإفساده للنساء ثيبا وأبكارا :

قد عشت بين الريحان والراح والـ مزهر في ظل مجلس حسن
وقد ملأت البلاد ما بين فـ فور إلى القيروان فالين
شعرا تصلى له العواتق والـ شيب صلاة الغواة للوثن
وهذه أبيات عظيمة الاضطراب والتزلزل ، وادعاء بشار فيها عن ذبوع شعره لاشك في صدقه ، ومهما يكن رأينا الخلق في بعض غزله فالذي لامرأ فيه أنه صور جانبها هاما من المجتمع في عصره تصويرا صادقا وفيما ، فكان هذا من أسباب رواجه ، وهناك من النقاد من لا يطالبون الأديب بأكثر من هذا ، ولكن انظر الآن كيف يعود بشار بعد هذه الصرخات المدويات إلى إرغام نفسه على الهدوء والتسليم في البيتين الأخيرين ، وكيف يرتفع فيهما على كل أحزانهم مصائبه فيصـ

ذروة السخرية الرفيعة التي يندر وجودها في الشعر العربي ، فيزعم
أنه الآن قد ثاب عن غيه وأفاق من غفوته واتضح له نهج الهدى ونجاة
من هوة الضلال :

ثم نهاني المهدي ، فأنصرفت نفسي ، صنيع الموفق اللقن
فالحمد لله لا شريك له ليس بشيء باق على الزمن
فإن ظننا أن قوله « فالحمد لله » معناه : الحمد لله على هذه الهداية ،
فسرعان ما يأتي الشطر الثاني ليعطينا المعنى الحقيقي : الحمد لله على هذا
المكروه ، لا يحمد على مكروه سواه . وهما بيتان يذكرا لنا بسخرية
أبي نواس في موقف عظيم المائلة (١)

خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، عسى الله أن يتوب عليهم .

(١) هذه أبيات أبي نواس :

وعدتني ، والخير عادة	أنت يا بن الزيم ألزمتني النسك
وتبدلت عفة وزهاده	فارعوى باطلى وأقصر حبلى
رى في حسن سمته وقتاده	لو تراني ذكرت للحسن البص
حف في لبق مكان القلاده	المسايح في ذراعى والمص
حب منها مليحة مستفاده	ولما شئت أن ترى ظرفة تع
وتفطن لموضع السجاده	فادعني ، لا عدمت تقويم مثلى
توقن النفس أنها من عباده	ترأثرا من الصلاة بوجهى
لاشترها يعدها للشهادة	لو رآها بعض الرائيين يوما
أدركتني على يدك السعاده	ولقد طال ما شقيت ولكن

للمؤلف :

== ثقافة الناقد الأدبي ==

يقاوم بعض النزعات الضارة ويصحح عددا من الأخطاء الشائعة في دراسة الأدب العربي وتدريسه ، ويشرح السبب في تدهور نقدنا المعاصر ، ويصف للنقاد الثقافة التي تلزمهم حتى يتقنوا عملهم ، ويريهم كيف يربطون في دراستهم بين الأدب والحياة ، ويدعم قضيته بدراسة مفصلة لشخصية ابن الرومي وفنه الشعري .

إن يمضي وقت طويل قبل أن يكون له أثره في تصحيح اتجاهنا نحو أدبنا « الذي ضيعه كل محافظيه ، وأفسده معظم مجدييه » .
الكتاب الذي قال كبير المستشرقين ، الأستاذ هـ . ر . جب ، في رسالة إلى مؤلفه : « الصفة التي تميزه فوق كل شيء هي الإخلاص ، وهذه هي الدعامة التي لا بد منها لكل عمل جيد في أي ميدان من ميادين البحث ، وهي تنبئ عن تفكير صادق لا يقنع بالتقارير السطحية المرتجلة أو الآراء التي يرددتها الناس .

« إنك باحتجاجك على هذه الطريقة الشائعة في دراسة الشعراء والكتاب ، وباعطائك مثالا على التحليل المتعمق ، قد أدت خدمة جليلة إلى دراسة الأدب العربي . ولكنك لم تستخدم الأدب العربي وحده .

« فان هذه المعالجة الصريحة لجهود الانسانية ومشاكلها التي تجمع
بين النزاهة الدقيقة والفهم المتعاطف ، هي ما يحتاج العالم أجمع - وليس
مصر وحدها أو العالم العربي وحده - اليه اليوم أشد الاحتياج ، .
في أربعائة صفحة كبيرة محلاة بالصور والرسوم على ورق جيد .

يطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن المكاتب الشهيرة . الثمن : ٥٠ قرشاً

تصويب

صواب	خطأ	سطر	صفحة
الشره	الشره	٥	٣
يردعه	يروعه	٧	٣
يقدم	يقوم	١٣	٧
بل	بلى	٩	١٦
الريج	الريج	٩	١٩
سلامته	سلامته	٢٠	٣٩
زارع	زارع	٤	٥٥
الممزوج	المزوج	١٠	٧١
أعيط	أعيط	١	٨٨
درجة	ودرجة	١٢	١٤٨
نوعا ما	عا ما	٢١	١٦٥
ضجر	ضخر	٥	١٧٣
في البق	للبق	٧	١٨٥
ii	11	٢٠	٢٢٣
حور	حور	٢١	٢٢٨

Date



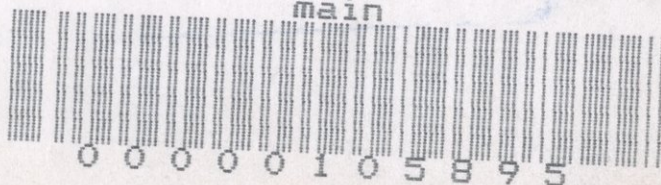
AUC - LIBRARY



DATE DUE

 AUC 29 MAY 1996	 AUC 3 - MAR 1997
 AUC 1 - DEC 1996	 AUC 10 JAN 1999
 AUC 17 DEC 1996	
 AUC 28 DEC 1996	

main



00000105895

PJ 7741 B3 Z9x 1951/c.2

PJ
7741
B3
Z9x
1951
c.4

74 APR 1987

PJ

7741

B3

Z9x

1951

C. 2